مكتبة ٣٢٧

رواية

بول أوستر

تمبكتو

ترجمها عن الإنكليزية: محمد عبد النبي

المتوسط

عن الرواية:

«(تمبكتو) حلَّقتْ عاليًا بلغةٍ جريئة وذكية وبالغة الحَساسية ... إنَّ مغامرتها وطاقتها السَافرة تنمّ عن كاتبٍ يقف على الحافة ليتخذ قفزةً أكثر تعويضًا في هواء عالَمه الخاص غير المحدّد بخرائط بَعد.»

فيليب جراهام، شيكاغو تريبيون.

«أمثولةٌ عصرية تدعو القرّاء إلى سَبر ما يكمن تحت سَطحها البسيط المخاتل بحثًا عن حقائق أعمق... يُبدي أوستر موهبةً مصقولة لكي يُضيء جوانب قصية من الروح.»

مايكل هوبكينز، ميلواكي جورنال سينتنل.

«على مدى الخمس وعشرين سنة الماضية رسَّخ بول أوستر مكانةً شديدة الخصوصية في الأدب المعاصر.»

مايكل ديردا – ذا نيو يورك ريفيو أوف بوكس.

مكسه

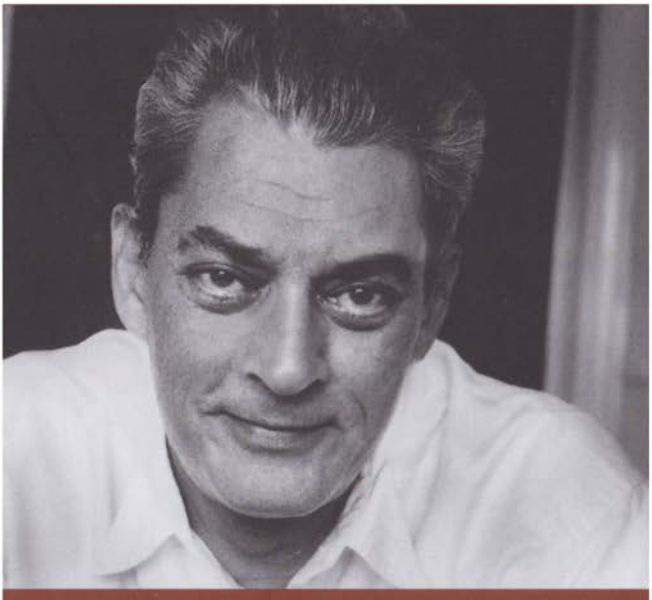

بول أوستر: ولد عام ١٩٤٧، وهو روائي، وناقد، وشاعر، ومترجم، وسينارست ومخرج وممثل ومنتج سينمائي. يعيش حالياً في بروكلين في نيويورك.

أوستر هو من أبرز الشخصيات في الأدب الأمريكي والعالمي المعاصر. يُنسب إلى أدب ما بعد الحداثوية.

اثنا عشر كتاباً لأوستر كانت الكتب الأكثر مبيعاً في العالم. كما أن كتبه تُرجمت لأكثر من ثلاثين لغة.

منشورات المتوسط

مكسه

تمبكتو

مكتبة | 327

مكسه

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٨ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

مكتبة ٢٠١٨١٢١١

Timbuktu *by* "Paul Auster"
Copyright © Paul Auster (1999)
was first published by Henry Holt and Company, LLC (New York, NY)
Arabic copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: بول أوستر / المترجم: محمد عبد النبي / عنوان الكتاب: تمبكتو
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-35-2

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

مكسه

بول أوستر

تمبكتو

ترجمها عن الإنكليزية: محمد عبد النبي

المتوسط

مكتبة | 327

مكسه

إلى روبرت مك-كرَم

مکسه

١

كان السيد بونز(*) يعلم أن ويلي ليس أمامه إلا أيّام معدودة في هذا العالم. سَكَنه السُّعال منذ أكثر من ستّة أشهر، والآن لم تعد هناك أيّة فُرصة في أن يفارقه. كان ذلك الشيء بداخله قد اكتسب حياةً خاصّة، في بطءٍ وعناد، ودون أن يتّخذ ولو لمرّة واحدة منعطفاً إلى الأفضل، مُتطوّراً من خشخشة ضعيفة مُفعمَة بالبلغم في الثالث من فبراير إلى هرّات نخامية ذات صَفير واختلاجاتٍ هائلة بشعة، في منتصف الصيف. كان ذلك كله سيّئاً بما فيه الكفاية، ولكنْ، خلال الأسبوعَيْن الأخيرَيْن تسلّلتْ نغمة جديدة إلى موسيقى الشُّعَب الهوائية – شيء مكتوم وصُوّاني وقارع – وصارت الهجمات أكثر تواتراً الآن كما لو أنها متواصلة تقريباً. وفي كل مرّة تبدأ فيها إحدى هذه النوبات، يكاد السيد بونز ينتظر أن ينفجر جسد ويلي تحت صواريخ الضغط التي تنفجر داخل قفصه الصدري. وأحسّ أن الخطوة التالية ستكون هي الدم، وحين وقعتْ تلك اللحظة القاضية بالفعل في أصيل يوم أحد، فكأنّ ملائكة السماء جميعها قد فتحتْ أفواهها، وأخذت تُنشد. رأى السيد بونز ما حدث بعينَيْه، واقفاً على حافّة الطريق ما بين واشنطن وبالتيمور، حيث تَنَخَّمَ ويلي في منديله بضع كتلٍ بائسة من مادّة حمراء، وعندئذٍ تماماً عرف أن كل ذرّة من الأمل قد تبدّدتْ. حطّتْ رائحة الموت على منكبَيّ ويلي جي. كريسماس، وكانت النهاية المقتربة

---

*) معنى اسمه السّيّد عِظام.

حقيقةً لا ريبَ فيها، مؤكّدة كَما أن الشمس مصباحٌ في السحاب يُضاء ويُطفأ كلَّ يوم.

ماذا بوسع كلبٍ مسكين أن يفعل؟ كان السيد بونز مع صاحبه ويلي منذ أن وعى على الوجود جروًا وليدًا، والآن صارَ في حُكم المستحيل بالنسبة له أن يتخيّل عالمًا يخلو من سيّده. كانت كل فكرة وكل ذكر وكل مثقالِ ذرّةٍ من الأرض والهواء مُشبعةً بحضور ويلي. العادات لا تموت بسهولة، ولا شكّ أن هناك بعض الحقّ في المقولة الشائعة عن صعوبة تعلّم الكلاب العُجُز حيلًا جديدة، غير أنَّ رُعب السيد بونز ممّا سيأتي كان مصدرُه أكثر من مَحض الحُبّ والوفاء. لقد كان رعبًا وجوديًا خالصًا. فإذا حذفنا ويلي من العالم، فالنتيجة الأغلب أنَّ العالم نفسه سيتوقّف عن الوجود.

ذلك هو المأزِق الذي واجهه السيد بونز في صباح أغسطس ذلك بينما يجرجر قَدَمَيْه في شوارع بالتيمور مع سَيّده العليل. إنَّ كلبًا وحيدًا ليس أفضل كثيرًا من كلبٍ ميّت، فحين يلفظ ويلي نَفَسَهُ الأخير، فلن يجدَ هو أمامه ما يتطلّع إليه سوى زواله الوَشيك. كان ويلي قد ظلَّ يُحذِّره من هذا لأيّامٍ عديدة حتّى الآن، وقد حفظَ السيد بونز الدرسَ عن ظهر قلب: كيف يتجنّب صائدي الكلاب، ورجال الشرطة، وعرباتهم، والسّيّارات التي بلا لوحات معدنية، والمنافقين المنتمين إلى ما تُسمَّى جمعيات الرّفق. مهما خاطبوكَ بمعسول الكلام، فلا معنى لكلمة (ملجأ)إلا المتاعب. يبدأ الأمر بشَبَكات وأسلحة تُطلِق رصاصات المهدّئات العصبية، ثمّ الانحدار إلى كابوسٍ من الأقفاص وأضواء النيون، ثمّ الانتهاء بحقنة قاتلة أو جرعة من غازٍ سامٍّ. لو أن السيد بونز ينتمي إلى سلالةٍ، يسهلُ التّعرُّف عليها،

فرُبمّا كان أوفر حظًا في مسابقات الجمال اليومية التي تُقَام أمام المالكين المنتَظَرين، لكن أقرب أقرباء ويلي ليس سوى خليط من الصفات الوراثية – رقعةٌ من الكلب الاسكتلندي الضخم، ورقعةٌ من اللابرادور، ورقعة من الإسبانيول، ورُقَع من فُسيفساء كلابية متناثرة مثل لُغزٍ، يجب تجميع أجزائه معًا – ما زاد الأمور سوءًا أن برزت من معطف فرائه الرّثّ عقدٌ خشنة، وانبعثتْ من فمه رائحة كريهة، واحتقنتْ في عينَيْه كُراتٌ دموية حزينة. لن يرغبَ أحدٌ في إنقاذه. وكما كان مُنشِد الشِّعْرالمتشرّد أن يقول، لا مَهرَب من المكتوب. إن لم يعثر السيد بونز على سيّدٍ آخر بأسرع وقت ممكن، لضاعَ وصارَ نَسيًا مَنسيًا.

"وإذا لم تَنلْ منكَ أسلحتُهم الصاعقة"، واصل ويلي حديثَه وهو يتشبَّث بعمود إنارة في ذلك الصباح كثيف الضباب في بالتيمور، ليمنعَ نفسه من السقوط،"فهناك ألف شيءٍ آخر سوف ينالُ منكَ. إنّي أحذّركَ، يا كيموسابي(*). فلا بدَّ أن تعثرَ لكَ على مجنونٍ جديد، وإلاَّ فإنَّ أيّامكَ معدودة. انظرْ فقط في أنحاء هذا البلد الكئيب. هناك مطعم صينيّ في كل مربّع سَكَني، وإذا اعتقدتَ أن أحدًا لن يسيلَ لعابه حين تتبختَرَ أمام تلك المطاعم، فأنتَ لا تفقه شيئًا في المطبخ الشرقي. لمذاق الكلاب مكانةٌ عالية عندهم، يا صاحبي، والطُّهاة هناك يتصيَّدون الكلابَ الشاردة، ويذبحونها في الزقاق وراءَ المطعم مباشرةً. عشرة، عشرين، ثلاثين كلباً كُلّ أسبوع. وقد يمرِّرونها على قائمة الطعام، بِعَدِّها بطًا أو خنازير، لكنّ قلّة وسط الزحام تعرف ما هذا، لا يمكن استغفال خبراء التّذوُّق ولو لثانيةٍ واحدة. إن لم تكن تريد أن تطيرَ من مقلاة شخص، اسمه موو- جووو-

---

*) Kemo-Sabe: صيغة تحبُّب، وقد استُخدم التعبير أوّل مرّة في المسلسل الدرامي الأمريكي لون رنجر Lone Ranger، ثم شاعَ فيما بعد بمعنى الرفيق المخلص والصديق الصدوق.

جاي إلى طبق التقديم، ستفكّر ألف مرّة قبل أن تهزّ ذيلكَ أمام أحد تلك المطاعم الصينية الحقيرة. هل تلتقط فكرتي، يا السيد بونز؟ اعرفْ عدوّكَ -ثمّ اناً بنفسكَ عنه".

فهم السيد بونز المقصود. دائماً ما كان يفهم ما يقوله له ويلي. وقد كان الحال بينهما هكذا بقدرما تُسعفه الذاكرة، والآن صار استيعابه للغة "الإنجلوش"(*) جيّداً مثل أيّ مُهاجر قضى سبع سنوات على التراب الأمريكي. كانت لغته الثانية بالطبع، ومختلفة تمامًا عن اللغة التي تلقّاها عن أمّه، ورغم أن قدرات النطق لديه لم تكنْ على خير ما يُرام، فقد أتقن بكل معنى الكلمة خصائص ودقائق تركيب الجملة والنحو. ويجب ألّا نعدّ شيئًا من هذا غريبًا أو نادرًا بالنسبة لحيوان في ذكاء السيد بونز. يكتسبُ أغلبُ الكلاب معرفةً عملية جيّدة بالاستماع إلى حديث السائرين على قَدَمَيْن، لكنْ، في حالة السيد بونز كانت لديه ميزة إضافية، لأنَّ الحظّ أكرمَهُ بسيّد لا يعامله على أنه مخلوق أدنى. لقد كانا رفيقَيْن منذ البداية، إضافةً إلى أن السيد بونز لم يكن فقط أعزّ أصدقاء ويلي، بل صديقه الوحيد، وبما أنَّ ويلي كان رجلًا مُولَعًا بصوته الشخصي، مَهووسًا بالكلام عن حَقِ حتّى النُخاع، ونادرًا ما كان يتوقّف عن الحديث من اللحظة التي يفتحُ فيها عينيه صباحًا حتّى يغيّبه الخمرُ ليلًا، لهذا كان من المنطقي تمامًا أن شَعرَ السيد بونز بألفةٍ شديدة مع لغة سيّده. وإذا جمعنا هذه العوامل كلها تبقى المفاجأة الوحيدة أن السيد بونز عجزَ عن تعلُّم التّحدُّث. ولم يكنْ هذا نتيجة لتقصيره في بذل الجهد المخلص، ولكنّ الوضع البيولوجي لم يكن في صفّه، ومع ما مَنَحَهُ القدرُ من تركيب خاصّ للخطم والأسنان واللسان، فإنَّ أفضل ما كان يمكن أن يصدر عنه هو سلسلة من درجات

*) في الأصلIngloosh: كلمة غير صحيحة للتعبير عن اللغة الإنجليزية بلهجة مِستر بونز.

النّباح والعواء والتثاؤب، شكلٌ مُشوَّش من الحديث. كان يتألّم لإدراكه كم كانت تلك الضوضاء بعيدة كلّ البُعد عن طلاقة الحديث، ولكن ويلي تركه على الدوام يقول ما لديه، وفي نهاية الأمر، كان هذا كلَّ ما يهمّ. كان السيد بونز حُرًا في أن يدلو بدلوه، وكُلّما فعلَ كان سيّده يُوليه غايةَ انتباهه، وإذا ما تطلَّعتَ في وجه ويلي وهو يتابع نضالَ صاحبه، لكي يقلّد واحدًا من بني البشر، لأقسمتَ أن ويلي كان مُنصتًا إلى كل كلمة.

غير أن السيد بونز. في ذلك الأحد الكئيب في بالتيمور. أبقى فمه مُغلقاً. لقد بلغا أيّامهما الأخيرة معًا، وربّما ساعاتهما الأخيرة، ولم يعد هناك وقت للتمتُّع بالأحاديث المطوّلة والمنعطفات المشوَّشة، لا وقت للحماقات القديمة. تستدعي بعض المواقف اللباقة والانضباط، وفي مأزقهما الرهيب الراهن سيكون من الأفضل كثيرًا أن يُمسكَ لسانه، ويتصرّف ككلبٍ صالح مخلص. ترك ويلي يشدّ المقود الموصول بطوق رقبته دونما اعتراض. لم ينتحب مُشتكيًا، لأنه لم يأكل شيئًا خلال الستّ وثلاثين ساعة الماضية؛ كما أنه لم يتشمّم روائح الإناث في الهواء؛ ولم يتوقّف ليبول عند كل عمود إنارة وخرطوم مطافئ. سار ببساطة متمهّلًا إلى جانب ويلي، تابعًا سيّده بينما يفتّشان الدورب الخالية عن مبنى ٣١٦ في شارع كليفرت.

لم يكن السيد بونز يبغض بالتيمور في حدّ ذاتها. فلم تكن رائحتها أسوأ من أيّة مدينة أخرى، حطّت بهما الرحال فيها على مدى السنوات، ولكنْ، رغم فَهْمه للهدف من الرحلة، فقد أحزنَهُ أن يرى إنسانًا يختار أن يعيش لحظاته الأخيرة على وجه الأرض في مكانٍ لم يسبقْ له العيش فيه قطّ. لا يرتكبُ كلبٌ تلك الغَلطة أبدًا، بل يعقدُ صُلحَه مع العالَم، ثمّ يُسلِّم

الأمانة على أرضٍ يألفها وتألفه. لكنّ ويلي كان لا يزال عليه إنجاز أمرَيْن قبل أن يموتَ، وبعناده المميّز رسخَ في رأسه أنَّ شخصًا واحدًا فقط يُمكنه أن يساعدَهُ. اسم هذا الشخص كان بياسوانسون، وبما أن آخر ما عُرفَ عن بياسوانسون أنها تعيش في بالتيمور، فقد كان عليهما المجيء إلى بالتيمور للعثور عليها. لا بأس في هذا كله، أمَّا إن لم تُفلحْ خطّة ويلي في تحقيق المَرجو منها، فإن السيد بونز سوفَ يُترك في النهاية مهجورًا في هذه المدينة، مدينة فطائر الكابوريا والسلالم الرخامية، فماذا عساه أن يصنع عندئذٍ؟ كان يُمكن أن تنتهي المسألة في نصف دقيقة باتّصالٍ هاتفيّ، لكنّ ويلي لديه مَقتٌ فَلسفيٌّ لاستخدام الهاتف في أمورٍ ذات شأن. يفضّل السيرَ أيّامًا بلا توقّف على أن يلتقطَ أحد تلك الأجهزة الغريبة، ويتحدَّث إلى شخص، لا يمكنه أن يراه. وهكذا فها هما. وقد قطعا مئَتَي ميلاً. هائمان في شوارع بالتيمور بلا خريطة، يبحثان عن عنوان، قد يكون أو لا يكون.

من بين الأمرَيْن اللذَيْن لا يزال ويلي يطمحُ لإنجازهما قبل رحيله، ليس لأحدهما أيّ أسبقيّة على الآخر، فلكلٍّ منهما عنده الأهمّيّة نفسها، وبما أنه لم يعدْ هناك متّسع من الوقت ليفكّر في التعهّد بكلٍّ على حِدة، توصَّل إلى ما أسماه حِيلة خَليج تشيسابيك: شَرَك اللحظة الأخيرة، ليصيدَ عُصفورَيْن بحجرٍ واحد. المهمّة الأولى نُوقشَتْ في الفقرات السابقة: العثور على مأوى جديد لرفيقه ذي الفراء. والثانية: تسوية شؤونه الخاصّة، والتأكُّد من أنه سيترك مخطوطاته بين أيدٍ أمينة. في تلك اللحظة، كان مُنجَز عمره كله محشورًا في خِزانة مستأجَرة بمحطّة حافلات جرايهاوند الرئيسة في شارع فاييت، على مسافة ناصيَتَيْن من الموضع الذي يقفُ فيه الآن هو ومِستر بونز. المفتاح في جَيبه، وإن لم يجدْ شخصًا يثقُ فيه بما يكفي، ليأتمنه على ذلك المفتاح، فسوف تُبادُ كلّ كلمةٍ قد كَتَبَهَا ذات يوم، بالتّخلّص منها مثل أمتعةٍ كثيرة، لا يُطالِب بها أحد.

خلال الثلاثة وعشرين عامًا التي حملَ فيها اسمه المُستعار كريسماس، مَلأ ويلي بكتاباته صفحات أربعة وسبعين دفترًا، التي ضمّت قصائد وقصصًا ومقالات ويوميات وشذرات وتأمّلات في سيرته الذاتية والألف وثمانمائة بَيت الأولى من ملحمة-قيد-العَمل، هيأيّام الشريد. سُطرَ الجزءُ الأكبر من تلك الأعمال على مائدة المطبخ في شقّة أمّه في بروكلين، لكنه بعد وفاتها قبل أربع سنوات اضطرّ أن يكتب في الهواء الطلق، غالبًا وهو يكافح عناصر الطبيعة في الحدائق العامّة والأزقّة المتربة، فيما يناضل لوَضْع أفكاره على الورق. في صميم فؤاده، لم يكن لدى ويلي أيّة أوهام حوله نفسه. كان يعلم أنه روحٌ مُضطربة مَغمومة وغير مُؤهّلة للتوافق مع هذا العالم، لكنه كان يعلم أيضًا أن هناك الكثير من العمل الجيّد مدفون في دفاتر الكتابة تلك، ومن هذه الناحية على الأقلّ، يستطيع أن يرفعَ رأسه عاليًا. رُبّما لو كان حريصًا حدَّ الوَسوسة على تناوُل دوائه، أو رُبّما لو كان جسده أقوى قليلًا، أو رُبّما لو لم يكن مُغرمًا إلى هذا الحدّ بأصناف شراب الشَّعير والكحوليّات وصَخَب البارات، فلعلّه كان قد أنجزَ قدرًا أكبر من العمل الجيّد. كان هذا أمرًا مُمكنًا تمامًا، لكنْ، فات الأوان الآن على الندم واستعادة الأخطاء. كتبَ ويلي آخر جملة، يمكنه أن يكتبها مُطلقًا، ولم يتبقَّ في الساعة إلا دقّات معدودة. الكلمات التي في الخزانة هي كل ما كان لديه ليكشفه عن نَفسه. فإذا تبدّدتْ الكلمات سيكون الأمر كما لو أنه لم يوجدْ قَطّ.

وهنا ظهرتْ بياسوانسون في الصورة. عرف ويلي أنها مُجرّد قفزة في الظلام، لكنه كان مقتنعاً أنه إذا أفلح في العثور عليها، وعندما يعثر عليها، سيجدها على استعداد لتحريك السماء والأرض لمساعدته. حدث ذات مرّة، أيّامَ كان العالم مازال صبيًا، أن كانت السّيّدة سوانسون معلّمة اللغة

مكتبة telegram @ktabpdf

الإنجليزية في مدرسته الثانوية، ولولاها لكان من المشكوك فيه أن يجدَ الشجاعة على الإطلاق، لكي يقول عن نفسه كاتبًا. في تلك الأيّام، كان ما يزال وليام جوريفيتش صبيًا نحيفًا في السادسة عشر من عمره مُولَع بالكُتُب وموسيقى البيبوب جاز، فأخذتْهُ هي تحت جناحها، وأغدقتْ على كتاباته الأولى إطراءً مبالغًا فيه جدًا، ولا يتناسب بالمرّة مع قيمتها الحقيقة، بحيث إنه بدأ يرى نفسه الأملَ العظيمَ التالي للأدب الأمريكي. وليست المسألة إن كان ما فعلتْهُ صوابًا أم خطأً، ذلك لأن النتائج كانت أقلّ أهمّيّة من البشائر في تلك المرحلة، فقد اعترفت السّيّدة سوانسون بموهبته، ورأت الشرارة المشعّة في روحه الغرّة، ولا أحد يمكنه أن يبلغَ أيّ شيء في هذه الحياة دون وجود شخص آخر يؤمن به. تلك حقيقة مُجرَّبة، وبينما رأى بقية تلاميذ الفصل في ثانوية ميدوود السّيّدة سوانسون مُجرّد امرأة أربعينية قصيرة بدينة بذراعَيْن مترهّلَيْن، يترجرجان كُلّما كتبت شيئاً على السبورة، فقد رآها ويلي جميلة، ملاكًا نزل من السماء، واتخذ صورةَ البَشر.

رغم ذلك، فعندما بدأت الدراسة من جديد في فصل الخريف، كانت السّيّدة سوانسون قد رحلتْ. عُرضتْ على زوجها وظيفة جديدة في بالتيمور، وبما أن السّيّدة سوانسون لم تكن مُعلّمة وفقط، بل زوجة أيضًا، فلم يكن أمامها خيار آخر سوى أن تتركَ بروكلين، وتذهب حيثما يذهب السّيّد سوانسون. كانت العاصفة أشدَّ من قدرة ويلي على الاستيعاب، لكن الأمر لم يكنْ بهذا السوء، فحتّى لو صارت مرشدته شديدة النأي، فإنها لم تنسه. خلال السنوات العديدة التالية، واصلت السّيّدة سوانسون مراسلاتٍ نَشطة مع صديقها الصغير، مُستمرّة في قراءة المخطوطات التي يرسلها إليها، والتعليق عليها، وحرصت على تذكّر عيد ميلاده بهدايا من تسجيلات تشارلي باركر القديمة، وأيضًا اقترحت عليه مجلاتٍ صغيرة،

يمكن أن يبدأ إرسال أعماله إليها. في عامه الدراسي الأخير، كتبتْ خطابًا جيّاش الحماس تزكيةً لويلي، فساعدَ في حصوله على مِنحة دراسية كاملة في جامعة كولومبيا. كانت السّيّدة سوانسُون هي مُلهمته، حاميته، وتميمة الحظّ الطّيّب، هذا كلُه مجتمعٌ في شخصٍ واحد، وفي تلك النقطة من حياة ويلي لم يكن يعرف لطموحه حدودًا. وعندئذٍ زاره الفصام في عام ١٩٦٨، حيث تؤدّي الحقائق والعواقب رقصةً مجنونة على سِلك كهرباء عالي الفولت. حَبَسوه في مُستشفى، وبعد ستّة أشهرٍ من المعالجة بالصدمات الكهربائية وعقاقير الطّبّ النفسي، لم يعدْ كما كان أبدًا. انضمَّ إلى صفوف السائرين في الحياة بجراحهم الداخلية ، ورغم أنه قد استمرّ في إنتاج المزيد من قصائده وقصصه، مواصلاً الكتابة سواءً في الصّحّة أو المرض، فنادرًا ما اهتمّ بالرّدّ على رسائل السّيّدة سوانسون. كانت الأسباب وراء ذلك بلا أهمّيّة.لعلّ ويلي كان مُحرَجًا من البقاء على تواصلٍ معها، ولعلّه كان مُشتّتَ الذهن، مستغرقًا في شؤون أخرى. وقد يكون فَقَدَ إيمانه بهيئة البريد الأمريكية، ولم يعد مُطمئنًا أنّ حاملي البريد لا يتطفّلون بنظراتهم داخل ما ينقلون من رسائل. بطريقةٍ أو بأخرى، تناقصت المراسلات الغزيرة بينه وبين السّيّدة سوانسون إلى لا شيء تقريبًا. اقتصرتْ خلال عام أو اثنَيْن على بطاقة البريد العارضة غير منتظمة الإيقاع، ثمّ بطاقات تهنئة العام الجديد التي يمكن شراؤها من أيّ متجر، حتّى انقطعتْ تمامًا مع عام ١٩٧٦، ومنذ ذلك الحين، لم يتراسلا، ولو ببعض لَفْظ.

كان السيد بونز على علْمٍ بهذا كله، وذلك ما كان يُقلقه بالتحديد. انقضى سبعة عشر عامًا. كان الرئيس هو جيرالد فورد في ذلك الوقت، بحقّ المسيح، وهو نفسه كان مازالَ أمامه عشر سنوات أخرى حتّى يُولَد. لا يخدع ويلي أحدًا إلا نفسه. تخيّل الأشياء كلها التي يمكنها أن تحدث في

تلك الفترة. تخيّل التّغيّرات التي يمكنها أن تحدث في سبع عشرة ساعة أو سبع عشرة دقيقة – فضلًا عن سبعة عشر عامًا. فالمُرجّح، على أقلّ تقدير، أنَّ السّيّدة سوانسون قد انتقلت إلى عنوانٍ آخر. تندفعُ الفتاةُ القديمة نحو السبعين الآن، وإن لم تكنْ مصابة بخرف الشيخوخة أو تعيش في بيتٍ نقّال على عجلات في فلوريدا، فأقرب الاحتمالات أنها ماتت. اعترفَ ويلي بهذا كله حين كانا يضربان في شوارع بالتيمور ذلك الصباح، لكنْ، ما هذا الخِراء؟ لو استطاعَ لقالها، كانت هذه رميتهم الواحدة والوحيدة، وبما أن الحياة ليست سوى مقامرة على كل حال، فلمَ لا يُغامران بكل شيء لمرّةٍ أخيرة؟

آهيا ويلي. لقد روى قصصًا كثيرة جدًا، وتحدَّث بأصواتٍ مختلفة كثيرة جدًا، وصاغَ الواقعة الواحدة بأساليب عديدة متباينة للغاية، بحيث لم تعد لدى السيد بونز أدنى فكرة عمّا ينبغي تصديقه أو تكذيبه. ما الذي كان حقيقة، وما الذي كان اختلاقًا؟ تَصعُب معرفة هذا عند التعامل مع شخصية، لها تعقيدات وأوهام ويلي جي. كريسماس. يمكن لمِستر بونز أن يشهد بصحّة الأشياء التي شاهدها بعينَيْه، الأحداث التي عاشها بلحمه ودمه، لكنه لم يكن بصحبة ويلي إلّا منذ سبع سنوات فقط، أمّا الحقائق الخاصّة بالثماني والثلاثين سنة السابقة على ذلك، فقد كانت فوضى تامّة. وإذا لم يَعش السيد بونز طفولته جروًا تحت السقف ذاته مع أُمّ ويلي رُبّما طُمِسَت القصّة بكاملها في أكفان الظلام، ولكنْ، بالاستماع إلى السّيّدة جوريفيتش ومضاهاة إفاداتها بإفادات ابنها، نجح السيد بونز في أن يخيطَ الرُّقع معًا، ليرسم صورةً معقولة ومتماسكة لعالَم ويلي، وكيف كان قبل أن ينضمّ هو إليه. كان ينقصه ألف جزئية، وألف جزئية أخرى اختلطتْ معًا في اضطرابٍ وتشوّش، غير أن السيد بونز كان يملك حدسًا يدلّه على الاتّجاه الصحيح، كان يستشعر ماذا كان شكل الأجزاء المفقودة مِن هذا العالَم.

لم يكنْ عالمًا غنيًا، مثلاً، كما لم يكن مُبهجًا، والغالب أن هواء الشّقّة كان مَشوبًا بحُمُوضة النَكَد والقُنُوط. ونَظرًا لكلّ ما مرّتْ به الأسرة قد أن تحطّ رحالها في أمريكا، فلعلّها معجزة أن نجحَ دافيد جوريفيتش وإدا بيرلماتر في إنجاب أيّ ولدٍ أساسًا. مِن بين السّبعة الذين وُلدوا لأجداد ويلي في وارسو ولودز ما بين عامَي ١٩١٠ و ١٩٢١، هما وحدَهما فقط نجيا من الحرب. هما وحدهما لم تُوشَم أرقامٌ على ساعدَيْهما، وهما وحدَهما تعطّف عليهما الحظّ بفرصةٍ للفرار. ليس معنى ذلك أنّ هذا الزمن قد مرّ عليهما مرور الكرام، وقد استمع السيد بونز إلى ما يكفي من القصص، ليقشعرَّ فراؤه. عشرة أيّام كاملة قضياها في وارسو مختبئَيْن في سندرة، لا تتسع إلّا للزحف على أربع. ثمّ هُناك مسيرة شهر على الأقدام من باريس إلى المنطقة الحُرّة في الجنوب، ينامان في مخازن التبن، ويسرقان البيض، ليحفظا رمقَيْهما. كما كان هناك معسكر تجميع اللاجئين في مِندي، ونقود الرشوات للسماح لهما بالمرور الآمن، وأربعة أشهر من الجحيم البيروقراطي في مارسيليا، بينما ينتظران تأشيرات المرور بإسبانيا. ثمّ تأتي الغيبوبة الطويلة من العَجز التّامّ عن الانتقال والتّحرّك في لِشبونة، والابن الذي وَلدتْه إدّا ميتًا عام ١٩٤٤، وعامان من التطلّع نحو المحيط الأطلنطي، بينما الحرب تجرجر قَدَمَيْها برتابة ونقودهما تضمحل بسرعة الريح. في الوقت الذي وصل فيه والدا ويلي إلى بروكلين عام ١٩٤٦، لم يكونا يبدآن حياةً جديدة، بل حياة ما بعد الموت، هُدنة قصيرة بين موتَيْن. والد ويلي، الذي كان ذات يوم محاميًا شابًا بارعًا في بولندا، تسوَّل عملاً من أحد أبناء العمومة بعيدي القرابة، وظلّ خلال الثلاثة عشر عامًا التالية، يستقلّ قطار أنفاق خطّ الجادّة السابعة إلى شركة تصنيع أزرار في الشارع الثامن والعشرين غربًا. وخلال السنة الأولى، عملت أمّ ويلي على تكملة دخلهما

بإعطاء دروس البيانو في شقّتهم ليهود صغار أشقياء، ولكن ذلك انتهى ذات صباحٍ من نوفمبر عام ١٩٤٧ حين أبرز ويلي وجهه الصغير من بين ساقَيْها، رافضًا – على غير المعتاد من أطفالهما -التّوقّف عن التّنفّس.

نشأ أمريكيًا، واحدًا من صِبية بروكلين، لعبَ البيسبول بالعصا في الشَارع، وقرأ مجلّة ماد(*) ليلاً تحت الأغطية، واستمع إلى أغنيات بادي هولي وبوبر الكبير(**). لم يكنْ بوسع أيٍّ من والدَيْه استيعاب مثل تلك الأشياء، ولكن ذلك كان آخر ما ينشغل به ويلي، بما أن هدفه الأعظم في الحياة في تلك المرحلة هو إقناع نفسه بأن أمّه وأباه ليسا والدَيْه الحقيقيَّيْن. كان يراهما مخلوقَيْن غريبَيْن، ومثيرَيْن للحرج بشدّة، إصبعَي إبهامٍ متقرِّحَيْن، لهما لكنة بولندية وأساليب أجنبية طنّانة، وبدون أن يضطرّ للتفكير كثيرًا، فهمَ أنَّ أمله الوحيد للنجاة يكمن في مقاومة هذَيْن الشخصَيْن ما أمكنه ذلك. وحين سقط أبوه ميتًا من أزمة قلبية في الثامنة والأربعين من عمره، كان حزن ويلي يُخفِّفه إحساسٌ سرّيّ بالارتياح. بلغ الثانية عشر لتوّه، على حافّة المراهقة، وقد صاغَ فلسفة لعمره كله تتمثّل في الترحيب بالمشكلات حيثما وجدَ إليها سبيلاً. فكُلّما كانت حياتكَ تَعسةً رهيبة، اقتربتْ أكثر من الحقيقة، من اللُّب الصارم للوجود، وما عساه يكون أفظع من فَقد والدكَ بعد ستّة أسابيع من عيد ميلادكَ الثاني عشر؟ يَسِمُكَ هذا بعلامة الشخص المأساوي، ينزع عنكَ المؤهّلات اللازمة لسباق الفئران المستميت وراء الآمال العقيمة والأوهام العاطفية، ويرسم حولكَ هالةً من المعاناة المشروعة. لكن الحقيقة أن ويلي لم يعانِ كثيرًا. لطالما كان أبوه لغزًا بالنسبة له، رجل يركنُ إلى نوبات صمت قد تصل أسبوعًا كاملاً، لينفجر

(*) Mad magazine: مجلّة فكاهية أمريكية، أسسّها هارفي كيرتزمان عام ١٩٥٢.

(**) Buddy Holly - the Big Bopper .

فجأة في غضبةٍ عارمة، وقد صفعَ ويلي غير مرّة لأصغر وأتفه المخالفات. كلّا، لم تكن الحياة صعبة بعد فَقْد حقيبة المتفجّرات تلك، بل لم يستدعِ التّكيّف معها أيّ جهدٍ على الإطلاق.

أو هذا ما افترضه السّيّد البروفيسور(*) الصالح بونز. تجاهلْ رأيَهُ إن شئتَ، ولكنْ، مَن سواه يمكنكَ أن تثقَ به؟ بعد استماعه إلى تلك القصص على مدى السنوات السبع السابقة، ألم يكتسب الحقّ في أن نعدّه المرجع الأهمّ عالميًا في هذا الشأن؟

وهكذا صار ويلي وحده مع أمّه. لا يمكن لأحد أن يعدّها أنيسة المعشر، لكنها على الأقلّ أمسكتْ يَدَيْها عنه، وأبدت له قدرًا معقولًا من العاطفة، ومن دفء القلب ما يكفي ليوازن الفترات التي عمدتْ فيها إلى تأنيبه واستفزازه وانتقاده في مواعظ مُطوَّلة. وفي المُجمَل، حاول ويلي أن يكون ابنا بارًا. بل إنه في تلك اللحظات النادرة، حين كان يستطيع التوقّف عن التفكير في نفسه، بذل جهدًا واعيًا، ليتلطّف معها. وإن كانت بينهما خلافات، فلم تكنْ نتيجة عداوة شخصية، بقدر ما كانت ثمرة رؤيَتَيْن للعالم متعارضَتَيْن التعارض كله. فمن التجارب المريرة للسّيّدة جوريفيتش أدركتْ أن العالم موجود لينال منها، وانطلاقًا من هذا عاشتْ حياتها، وفعلتْ كل ما يسعها، لكي تنأى بنفسها عن الأذى. كان ويلي أيضًا يدرك أن العالم موجود لينالَ منه، ولكنْ، على خلاف أمّه لم يجدْ أيّة غضاضة في ردّ الهجوم بالمِثْل. لم يكن الفرق بينهما أن أحدهما متشائم والآخر متفائل، بل إن تشاؤم أحدهما قاده إلى عقيدة الخوف، بينما الآخر قاده تشاؤمه إلى احتقارِ صاخب ومشاكسة لكل ما في الوجود. أحدهما انكمش والآخر انتفض. أحدهما

*) Herr Doktor -بالألمانية، وفيها لمسة دُعابة.

مكسه

سار على الخطّ محترسًا لكل خطوة، والآخر تجاوزَ الخطوط ببساطة. كانا في حالة نزاعٍ أغلبَ الوقت، وبما أنَّ ويلي اكتشفَكُم كان يسهلُ عليه أن يصدم أمّه، فنادرًا ما فوّت فرصة مواتية لإثارة شجار. ولو أنها امتلكَتْ فِطنة التراجع أمامه، ولو قليلًا، لما ألحّ وعاند إلى هذا الحدّ لإثبات صحّة مواقفه. كان يجد في خصومتها إلهامًا وحافزاً على اتّخاذ مواقف أكثر تطرّفًا، وإذ أوشكَ وقتُ مغادرته المنزل، والانتقال إلى الكُلّيّة، كان قد ثبّتَ قَدَمَيْه إلى الأبد داخل دوره المنتَقَى: الساخط، المتمرّد، الشاعر الخارج على القوانين يجوسُ في مجارير عالم الخراب.

يعلم اللهُ فقط كمّيّة المخدّرات التي استهلكها ذلك الصبي خلال فترة العامَيْن والنصف التي قضاها في حيّ مورننجسايدهايتس. فلتذكر اسم أيّ نوع من الموادّ الممنوعة، وستجد أن ويلي إمّا قد دخّنها أو شمّها أو حقنها في أوردته. من السهل أن تتجوّل متظاهرًا بأنكَ النسخة الحديثة من فرانسو فيلون(*)، ولكنْ، فلتغذّي شابًا مضطربًا بلذائذ سامّة كافية لأن تملأ موقع تصريف قمامة في إحدى سبخات مدينة جيرسي ميدولاندز، وسيكون محتومًا أن تتبدّل كيمياء جسده. عاجلًا أو آجلًا، كان ويلي سينهار تمامًا بأيّة حال، ولكنْ، أليس منطقيًا الزعم بأن حالة المعمعة المهلوسة للمخدّرات خلال أيّامه الدراسية قد سَرّعتْ من هذه العملية؟ انتهت المسيرة التعليمية للمالك المستقبلي لمستر بونز نهايةً مُبَاغتة، وبلا رَجعة، حينما دخل عليه شريكه في الغرفة ذات أصيلٍ من منتصف عامه الدراسي الثالث، فوجدَ ويلي طريح الأرض عاريًا، يترنّم بأسماء من دليل هاتف مانهاتن، ويأكل من وعاء ممتلئ ببرازه هو نفسه.

تلا ذلك مصحّة المجانين، ثمّ عاد ويلي إلى شقّة أمّه في جادّة جلينوود.

(*) François Villon – شاعر فرنسي من القرن الخامس عشر، عُرِفَ بسُلوكه الإجرامي.

رُبمّا لم يكن المكان المثالي للعيش فيه بالنسبة له، ولكنْ، إلى أيّ مكان آخر كان يمكن للمُحطّم المسكين ويلي أن يتّجه؟ غير أن هذا التدبير لم يُسفِر عن أيّ خير خلال الأشهر السّتّة الأولى. وفيما عدا تحوّل ويلي من المخدّرات إلى الكحول، ظلّت الأمور جوهريًا على ما كانت عليه. التوتّرات والصراعات نفسها، وحالات سوء التفاهم نفسها. وعندئذٍ، ومن دون أيّ إنذار مُسبق، في أواخر ديسمبر ١٩٦٩، انتابتْ ويلي رؤيا غيَّرتْ كل شيء، ذلك اللقاء الصوفي بالغِبطة الذي حوَّله من شيءٍ إلى شيء، ووضع حياته على مسار مختلف كُلّيّةً.

مكتبة

كانت الساعة الثانية والنصف صباحًا. وقد خلدتْ أمّه للنوم منذ عدّة ساعات، وكان ويلي مُستقرًا على أريكة غرفة المعيشة مع علبة سجائر لاكي سترايك وزجاجة بوربون، يشاهد التليفزيون بطرف عينٍ واحدة. كان التليفزيون إحدى عاداته المُستَجدّة، أثر جانبيّ من آثار إقامته الحديثة في المستشفى. لم يكن يُبدي اهتمامًا خاصًا بالصور المعروضة على الشاشة، ولكنه استمتع بالهمهمة والضوء الصادرين عن الصندوق في الخلفية، ووجدَ راحةً في الظلال الرمادية-الزرقاء التي تعكسها الشاشة على الجدران. كان برنامج السهرة المتأخّرLate Late Show يُذاع عند ذاك تحديداً (شيءٌ حول جنادب عملاقة، تلتهم مواطني ساكرامانتو في كاليفورنيا)، ولكن أغلب وقت البثّ كان مخصّصًا لنصائح مُبهرجة وزائفة عن منتجات، تُعدّ اكتشافات إعجازية خارقة: سكاكين لا تثلم أبدًا، ومصابيح كهربائية لا تحترق أبدًا، ومُستحضرات سائلة ذات وصفة سرّيّة قادرة على رفع لعنة الصَّلَع. قرف، قرف، قرف، هكذا راح ويلي يُغمغم لنفسه، الهراء والخراء القديمان نفساهما. وعندما كان يوشك بالضبط أن يقوم ويُغلق التليفزيون، ظهر إعلان تجاري جديد، وكان فيه سانتا كلوز يقفز خارجًا من مدخنة أحدهم

داخل مكانٍ، بدا أنه غرفة معيشة في إحدى ضواحي ماسابيكوا، لونج آيلاند. وبما أنَّ رأس السنة كان على الأبواب كان ويلي بدأ يعتاد الدعاية التجارية التي تقدّم ممثّلين في زيّ وهيئة سانتا كلور. لكنّ هذا الممثّل كان أفضل من غالبيّتهم – رجلاً قصيرًا ممتلئًا بوجنَتَيْن ورديَّتَيْن ولحية بيضاء حقيقية مئة في المئة. تربّث ويلي حتّى يشاهد بداية الكلام المعسول، وهو يتوقّع تمامًا أن يسمعَ شيئًا عن منظّف سجاجيد، أو إنذار ضدّ لصوص المنازل، حينما تفوّه سانتا فجأة بالكلمات التي ستُغيِّر مصيره.

"وليام جرويفيتش"، قال سانتا. "نعم، وليام جرويفيتش القاطن في بروكلين، ولاية نيويورك، إنني أتحدّث إليكَ أنتَ".

لم يكن ويلي قد شرب إلا نصف زجاجة في تلك الليلة، وقد مرّت ثمانية شهور منذ أن تعرّض لآخر هلوسة تامّة النُضج. لن يخدعَه أحد حتّى يبتلع هذه القمامة. كان يعلم الفرق بين الواقع والأخيلة، وإذا كان سانتا كلوز يتحدّث إليه من جهاز تليفزيون أمّه، فلا معنى لهذا إلا أنه كان ثملاً أكثر قليلاً ممّا افترض.

قال ويلي: "خُذ أيري، يا مِستر"، وأغلقَ الجهاز من غير أن يعيد التفكير.

ولسوء الحظّ، لم يكن بوسعه أن يترك الأمور على ما كانت عليه. بسبب فضوله، أو لأنّه أرادَ التأكّد من أنه لم يُصبْ بانهيارٍ جديد، فقرّر ويلي أنْ لا بأس من أن يعيد تشغيل التليفزيون – فقط لاختلاس نظرة، نظرة صغيرة أخيرة. فهل ستؤذي هذه النظرة أيّ شخص؟ والاطّلاع على الحقيقة الآن خيرٌ من المضي قُدُمًا وعلى كاهله كيس خراء مُوسم عيد الميلاد، فيأكل دماغه خلال الأربعين سنة التالية.

ويالللعجب، فقد كان هناك من جديد. كان هناك اللعين سانتا كلوز، بإصبعٍ يهدّد ويلي ورأس يديره يمينًا ويسارًا في أسف، وفي عينيه نظرة حُزن وخيبة أمل. حينما فتح فمه، وبدأ يتحدّث (مستأنفًا بالضبط من حيث قُوطعَ قبل عشر ثوان)، لم يعرف ويلي ما إذا كان عليه الاندفاع ضحكًا أم القفز من النافذة. يا ناس، يا عالَم، كان هذا يحدث، ما هو مُستحيل الحدوث يحدث، هُناك بالضبط وعندئذٍ بالضبط، عرفَ ويلي عن يقين أنّ لا شيء في العالم سوف يبدو له على الصورة نفسها بعد ذلك أبدًا.

"لم يكن هذا لطيفًا، يا وِليام"، قال سانتا، "أنا هُنا لأساعدكَ، ولكننا لن نصلَ إلى شيء إذا لم تعطني فرصة لأتحدّث. هل تتابعني، يا بُني؟".

بدا السؤالُ ينشدُ جوابًا، لكنّ ويلي تردّد. فالاستماعُ إلى هذا المهرّج كان سيّئاً بما يكفي. فهل يريد حقًا أن يزيد الأمر سُوءًا بالرّدّ عليه؟

قالَ سانتا: "وليام!". كان صوته صارمًا ولائمًا، وفيه سُلْطة شخصية، لا يمكن العَبَث معها. وإن كان لويلي أيّ فرصة في التّملّص خارج هذا الكابوس، فإن أمله الوحيد هو مجاراة اللعبة للنهاية.

غمغم: "نعم، يا ربّس، أسمعكَ وأفهمكَ تمام التمام، حَوِّل!".

ابتسم الرجل البدين. وعندئذٍ تحرّكت الكاميرا ببطءٍ شديد، لتأخذ له صورة مقرّبة. ولبضع ثوانٍ تالية، اكتفى سانتا بالوقوف ممسّدًا شَعر لحيته، يبدو تائهًا مع أفكاره.

أخيرًا قال: "أتعرفُ مَنْ أكون؟".

قال ويلي: "أعرف مَن تبدو كأنكَ هو، ولكن ذلك لا يعني أنني أعرف

مَنْ تكون. في البداية حسبتُكَ ممثّلًا من المغفّلين. وبعدها قلتُ رُبّما تكون ذلك الجنيّ الذي يخرج مِن القارورة. والآن ليس عندي أدنى فكرة".

"أنا مَن أبدو كأنني هو".

"أكيد، يا زميل، وأنا نَسيب إمبراطور الحَبشة".

"سانتا كلوز، يا وليام. المعروف أيضًا باسم القدّيس نيك. بابا نويل نفسه. قوّةُ الخير الوحيدة التي لا تزال في هذا العالم".

"سانتا، هه، سانتا؟ وتهجئتها س – ا – ن – ت – ا ، أليس كذلك؟".

"نعم، هكذا تهجئتها تمامًا".

"ذلك ما خمّنتُهُ. والآن أعدْ ترتيب الحروف قليلًا، ماذا يكون لديكَ؟ ساتان [الشيطان]، ذلك هو. أنتَ شيطان معلون، يا "جِدّو"، والمكانُ الوحيد الذي توجد فيه هو عقلي".

لاحِظْ كيف كافح ويلي ضدّ هذا الشَبَح، وكم كان مُصرًا على دَحْض سِحْرِهِ. لم يكن أحد المختلّين طائري العقول، قد يدع الأوهام والأشباح تدفع به هنا وهناك. لم يرغب في حِصّةٍ، ولو قليلة مِن هذا، لكنَّ ما أقنع السيد بونز أنَّ الأمر كان حقيقيًا، وأنّ ويلي قد اختبر رؤيا أصيلة، ولم يكن يختلقُ القصّة، هو ذلك التقزّز الذي شعر به ويلي، والنقمة الخالصة التي أعربَ عنها كُلّما استدعى لحظات اللقاء الأولى. وعند سماعه يروي ذلك، تجد أن الموقف كان فضيحة، إهانة لذكائه، ومُجرّد النظر إلى تلك الكتلة البليدة من (الكليشيهات) كان يجعل دمه يغلي في عروقه. فلنترك الخزعبلات للآخرين. الكريسماس مُجرّد احتيال، موسم لتوريد الدولارات

السهلة، وتشغيل ماكينات الدفع في المتاجر، أمّا سانتا، فهو رمز هذا الموسم، الجوهر الصميم للسيرك الاستهلاكي بكامله، لذلك فقد كان سانتا هو أكبر كذبة في هذا كله على الإطلاق.

لكن سانتا هذا لم يكن كذبة، ولا خدعة، كما لم يكن الشيطان متنكّرًا. كان بابا نويل الحقيقيّ، السّيّد الأوحد والوحيد للعفاريت الصغيرة والأرواح الطّيّبة، والرسالة التي أتى يُبشّر بها كانت رسالة الطّيبة والصلاح، رسالة العطاء السّخي وإنكار الذات. هذه الخرافة الأبعد احتمالًا بين الخرافات جميعها، التي تناقض كل ما آمن به ويلي، وراهن عليه، هذا العرض العَبَثي من الهزر المرتدي سترةً حمراء، وحذاءَيْن طويلَيْن محفوفَيْن بالفراء – نعم، سانتا كلوز بجلال قدره ومجده وبهائه، كما يتجسّد للدعاية في ماديسون آفينو – قد وثب للأمام من داخل أعماق بلاد التليفزيون البعيدة، ليكشف زيف ما عِند ويلي من معتقدات، قامت على الشكّ والريبة، وليضمّ شظايا روحه بعضها إلى بعض مرّةً أخرى. كان الأمر بهذه البساطة. قال سانتا إنْ كان هناك أيّ شخص محتال، فهو ويلي نفسه، وعندئذٍ راحَ يوضح له الأمر بكلماتٍ، لا تدع مجالًا للشكّ، محاضِرًا في الصبي المذعور والحائر لما يشارف الساعة. دَعاه بالدّجّال والمدّعي والكاتب الفاشل عديم الموهبة. ثمّ رفعَ قيمة الرّهان، ودَعاه صِفْرًا، حشرةً، أبلهًا، وخطوةً بعد أخرى، استطاع أن يحطّم حيطان ويلي الدفاعية، وأن يجعله يرى النور. كان ويلي مُنبطحًا على الأرض عندئذٍ، يكاد يُصفّى ماء عينَيْه من البكاء والنحيب، يتوسّل الرحمة، ويُقْسِم لَيُصلحنّ من شأن نفسه. الكريسماس حقّ، لقد أدركَ هذا، وهكذا لن تكون هناك حقيقة أو سعادة بالنسبة له قبل أن يشرع في اعتناق روح الكريسماس. ستكون هذه مهمّته في الحياة من الآن فصاعدًا: أن يُجسّد رسالة الكريسماس، في كل يوم من أيّام العام، ألّا يطلب من العالم شيئًا، ولا يقدّم له في المقابل إلّا الحُب.

بعبارةٍ أخرى، قرّر ويلي أن يتحوّل إلى قدّيسٍ.

وهكذا حدثَ أن أتمّ وليام جوريفيتش عَمَلَه على هذه الأرض، ووُلدَ من تحت جلده رجلٌ جديد، اسمه ويلي جي. كريسماس. ولكي يحتفل بهذه المناسبة، انطلقَ ويلي إلى مانهاتن في الصباح التالي، ووشمَ صورةَ سانتا كلوز على ذراعه اليُمنى. كانت تجربة مؤلمة، ولكن ويلي تحمّل وخز الإبر عن طيب خاطر، شاعرًا بالظفر لمعرفته أنه الآن يحملُ علامةً مَرئية على تحوّله، وأنه سوف يحمل هذه الشّارة معه إلى الأبد.

لكنْ، واأسفاه، فحينما عادَ إلى بروكلين، وعرضَ على أمّه بكل فخر زينته الجديدة، هاجت السّيّدة جوريفيتش، وماجت، واستولتْ عليها نوبةٌ من البكاء وعدم التصديق الغاضب. لم يكن ما أخرجها عن طورها هي فكرة الوشم فقط (رغم أن ذلك كان جزءًا من الأمر، بما أنَ الشّريعة اليهودية تُحرّم دَقّ الأوشام- ونظرًا للدور الذي لعبه وَشم جلود اليهود في تاريخ حياتها)، بل كان ما يمثّله هذا الوشم بالذات، وقد رأت السّيّدة جوريفيتش في سانتا كلوز بألوانه الثلاثة على ذراع ويلي أمارةَ خيانةٍ وجنونٍ، لا شفاء منها، ولهذا فرُبّما كان انفجارها في تلك اللحظة أمرًا مفهومًا. حتّى ذلك الحين، كانت قد نجحتْ في خداع نفسها، لكي تعتقد أن ابنها سوف يتعافى تمامًا. وألقتْ باللوم في حالته على المخدّرات، وما إن يلفظ بقاياها الخبيثة من أجهزة جسمه، ويستعيد دمُهُ حالتَهُ الطبيعية، شعرتْ بأنها ستكون مسألة وقت ليس إلّا قبل أن يغلق جهاز التليفزيون، ويعود إلى كُلّيّته. ولكنْ، بنظرةٍ سريعة إلى الوشم، تبدّدت تلك الأماني الباطلة والآمال الزائفة كلها، وتحطمتْ عند قَدَمَيْها مثل زجاجٍ كثيرٍ جدًا. وعلى الجانب الآخر، كان هناك سانتا كلوز، الذي كان ينتمي إلى أتباع الكنيسة

المشيخية، وإلى أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وإلى مُقدِّسي المسيح وكارهي اليهود، إلى هتلر والآخرين جميعًا. لقد سيطرَ الأغيارُ على عَقل ويلي، وإنَّ الأغيار إذا تسلّلوا إلى داخل إنسانٍ لا يُفلتونه بعد ذلك أبدًا. كان الكريسماس هو الخطوة الأولى فقط، وبعده بأشهرٍ معدودة، سيأتي عيد الفُصح، ومن بعده، سوف يُشهرون صلبانهم تلك، ويشرعون في الحديث عن قَتْل المسيح، وقبل فترة طويلة، سيأتي لاقتحام بابهم أفرادٌ من قوّات الصدمة الألمانية. لقد رأتْ عيناها صورة سانتا كلوز تُزيّن ذراع ابنها، ولكنها رُبّما لم تكن بالنسبة لها ولمخاوفها إلّا صليبًا معقوفًا.

تحيّر ويلي صراحةً. لم يقصد أيّ ضرر، وفي حالته السعيدة الراهنة من الندم على ما فات والتحوّل الروحي، كان آخر ما يريده هو أن يُسيء إلى والدته. ولكنه كُلّما تحدّث وشرح لها كانت ترفض الاستماع له. صرختْ فيه، ودعتْهُ بالنازي، وحين أصرّ أن يجعلها تفهم أن سانتا كلوز كان تناسخًا لروح البوذا، وهو كيان مقدّس، كانت رسالته للعالم هي المحبّة الرحيمة والعطف، هدّدتْه بأن تُعيده إلى المستشفى في أصيل ذلك اليوم نفسه، وجعل هذا ويلي يتذكّر جملةً سمعها من زميل له في مصحّة سانت لوك – "أفضّل أن أضع أمامي زجاجة الشراب دائمًا على أن يفتحوا رأسي لإجراء جراحة الفصّ الجَبهي" – فأدركَ فجأة ما الذي كان مُدّخرًا له إن سمح لأمّه بأن تمضي في سبيلها هذا. لذا فبدلًا من أن يواصل الضرب في حصانٍ ميّت، وضع نفسه في معطفه، وغادر الشقة، متّجهًا مباشرةً إلى حيثُ يعلم الله وحده.

وهكذا بدأ نمطٌ ثابتٌ، واستمرَّ على مدى سنواتٍ تالية لا تُحصَى. كان ويلي يقيمُ مع أمّه بضع أشهر، ثمّ يغادر البيت بضع أشهر، ثمّ يرجع.

لَعلّ المغادرة الأولى كانت الأشدّ درامية، على الأقلّ، لأنَّ ويلي كان لا يزال جاهلاً بكل شيء عن حياة التشرّد والتجوال. ولم يغبْ خلالها عن البيت إلّا لفترةٍ قصيرة، ورغمَ أن السيد بونز لم يكن متأكّدًا أبدًا ممّا عَنَاه ويلي بكلمة قصيرة، فأيًا كان الذي حدثَ لسيّده خلال الأسابيع أو الشهور التي ابتعد فيها، فقد أثبتَ له أنه قد عثرَ على رسالته الحقيقية. "لا تقولي لي إنَّ اثنَيْن زائد اثنَيْن يساوي أربعة"، هكذا قالَ ويلي لأمّه عندما عاد إلى بروكلين. "كيف لنا أن نعرف أن الاثنَيْن هي اثنان حقًا؟ ذلك هو السؤال الحقيقي."

في اليوم التالي، جلسَ وبدأ يكتب من جديد. كانت المرّة الأولى التي رفعَ فيها قلمًا منذ ما قبل المستشفى، وتدفّقتْ منه الكلمات مثل مياهٍ تنبجسُ من ماسورة مكسورة. وأثبت ويلي جي كريسماس أنه شاعر أفضل وأكثر إلهامًا ممّا كان عليه وليام جوريفيتش في أيّ وقت، وما افتقرتْ إليه محاولاته المبكّرة من حيث الأصالة، وجدَ عوضًا عنه في حماسةٍ لا تلين. كانت ثلاث وثلاثون قاعدة للعَيش مثالًا جيّدًا، وتبدأ سطورها الأولى كما يلي:

ارمِ نفسكَ بين ذراعَي العالَم
وسوف يضمُّكَ الهواء.
تراجعْ، وسوف يثبُ العالَم
عليكَ من وراء كتفَيْكَ.
راهِنْ بكل شيء على الطريق السريع للعِظام.
اتبعْ موسيقى خطواتكَ، وعندما تنطفئ الأضواء
لا تُصفِّرْ – بل غَنِّ.
إذا أبقيتَ عينَيْكَ مفتوحَتَيْن، ستظلّ تائهًا على الدوام.

هَبْ للآخرين قميصكَ، هَبْ لهم ذَهَبَكَ،
هَبْ حذاءَكَ لأوّل غريبٍ تراه.
سوف يُثمر الكثير من لا شيء
إذا رقصتَ على موسيقى جيتربَج فالس...

كانت المساعي الأدبية شيئًا، وكيف تُدبِّر حالكَ في العالم شيءٌ آخر تمامًا. رُبّما تكون قصائد ويلي قد تغيّرتْ، لكن ذلك ليس إجابةً على السؤال عمَّا إذا كان ويلي نفسه قد تغيّر، فهل أضحى شخصًا جديدًا بالفعل، أم أنَّ حكاية الانغماس في القداسة ليست أكثر من نزوةٍ عابرة؟ هل خدعَ نفسه وجرَّها إلى موضعٍ غير حصين، أم أن هناك ما يُمكن أن يُقال حقًا عن مولده من جديد أكثر من الوشم على عضلة عضده اليُمنى والاسم المستعار السخيف الذي كان يستمتع باستخدامه؟ ستكون نعم أو لا إجابةً أمينة، ورُبّما قليلًا من الاثنَيْن. أنهكتْهُ أضرارٌ عقلية مؤسفة، وكُلّما تسارعتْ ماكينة الكُرة والدبابيس(*) التي في دماغه، ومَالتْ على جانبها أصبحَ مِن المُستحيل التّكهّن بأيّ شيء. كيف لرجلٍ على شاكلتِهِ أن يتوشَّح بالطّهرانية والنقاء؟ ليت الأمر اقتصر على أنه كان سكّيرًا ناشئًا، أو أنه كان كذّابًا يجري الكذب في دمه مع نزعة بارانويا قوية، بل إنه أيضًا كان خفيف الظلّ ملعونًا، لغير صالحه للأسف، بمُجرّد ما كان ويلي يشرع في إلقاء نكاته حتّى يحترق سانتا كلوز بألسنة اللهب، وتنهار معه أعمال الخير بكلّ عاطفيّتها وشموعها وزهورها.

ورغم ذلك كله، فسيكون من الخطأ القَول بأنه لم يحاولْ، وفي تلك المحاولة يكمن جانبٌ كبيرٌ من القصّة. حتّى لو لم يكنْ ويلي على الدوام

(*) The pinball machine.

بمستوى توقّعاته من نفسه، فقد كان على الأقلّ عنده نموذج لطريقة مَسلكه. وفي تلك اللحظات النادرة حينما كان بوسع ويلي أن يُركِّز أفكاره، وأن يُلجم شَطَطَهُ في قِسم المشروبات، أثبتَ أنّه ما من عملٍ يتّصف بالجسارة أو السّخاء خارج نطاق قدراته. على سبيل المثال، سنة ١٩٧٢، وفي مجازفةٍ لا تُعدّ هيّنة بالنسبة له، أنقذ بنتًا ذات أربعة أعوامٍ من الغرق. وفي سنة ١٩٧٦، تقدّم للدفاع عَن رجلٍ مُسنٍّ في الثمانين من عمره في أثناء محاولة سرقة بالإكراه في الشارع الثالث والأربعين غربًا بنيويورك – وجزاء عمله الطّيّب هذا تلقّى طَعنة سكّين في كتفه، ورصاصة في ساقه. لأكثر من مرّة كان يمنح آخر دولار في جيبه لصديقٍ في ضائقة، وتركَ المحبطين والمحرومين من الحُبّ يبكون على كتفه، وعلى مدار السنوات استطاع بحديثه أن يُثني عن فكرة الانتحار رجلًا وامرأتَيْن. تلك كانت الأشياء الرائعة في روح ويلي، ومتى ما سمح لها بالخروج والظهور ينسى المرء الأشياء الأخرى الموجودة هناك أيضًا. نعم، كان شخصًا مُزعجًا كشوكةٍ في القَدَم، مهلهلًا مهووسًا، ولكنْ، عندما تستتبّ الأمور جميعها في رأسه، فقد كان ويلي جوهرة فريدة، وعرفَ ذلك كُلّ مَن تقاطعتْ طُرُقُهُم معه.

كُلّما تحدّث ويلي إلى السيد بونز عن تلك السنوات المبكّرة، كان يميل للتركيز على الذكريات الجيّدة، ويتجاهل السّيّئة. ولكنْ، مَن يستطيع أن يلومه على إضفاء غلالةٍ عاطفية على الماضي؟ هكذا نفعل جميعًا، الكلاب والبشر على السواء، وفي عام ١٩٧٠ كان ويلي في عِزّ الشباب وعنفوانه. صحّته موفورةٌ متينة، كما لن تكون أبدًا، وأسنانه سليمة كاملة، وفوق هذا كله كان لديه بعض المال في البنك. مبلغٌ صغير وُضعَ جانبًا من بوليصة تأمين حياة أبي، وعندما صار بوسعه التّصرّف في هذا المال في عيد ميلاده الواحد والعشرين، لم تعوزه المصاريف الشخصية البسيطة

لما يقارب العشر سنوات. ولكنْ، من قبل ومن بَعد نِعمة المال والشباب، كانت هناك اللحظة التاريخية، تلك الأزمنة ذاتها، الروح السارية في الأرض عندما انطلقَ ويلي في مساره المهني كمتشرّد. كانت البلاد حافلة بالشباب الذين هجروا دراستهم، وهربوا من بيوت أهلهم، حالمين جُدد بشعورٍ مُرسَلة، فوضويّينْ موتورين، والمنبوذين غير اللائقين الغائبين مع المخدّرات. ورغم كلّ ما أبداه ويلي من غرابةٍ، فنادرًا ما تميّز وبرز من بينهم، كان مُجرّد تُحفة أخرى غريبة بين غرباء المشهد الأمريكي، وأينما ألقتْ به رياح رحلاته – سواء في بيتسبرج أو بلاتسبرج، بوكاتيلو أو بوكا راتون – أفلحَ في التعلّق بأرواحٍ على شاكلته ليرافقها. أو هكذا قال، وعلى المدى البعيد لم يرَ السيد بونز سببًا حتّى لا يُصدِّقه.

ولو امتلك سببًا للشّكّ فيه، لما اختلفَ الحال، لقد عاشَ الكلبُ عُمرًا كافيًا، ليعرفَ أن القصص الجيّدة ليست بالضرورة قصصًا حقيقية، وسواءٌ اختار تصديق ما أخبره به ويلي عن نفسه أم لا، فهذا أقلّ أهمّيّة من حقيقة أن ويلي فعلَ ما قد فعل، وأنَّ السنوات مرّتْ. أليس ذلك هو الأمر الجوهري؟ السنوات، عدد السنوات اللازمة للانتقال من تمتّع المرء بالشباب إلى ابتعاد الشباب عنه، بينما يراقبُ طوال ذلك الوقت كيف العالمَ وهو يتغيّر من حوله. عندما تسلّل السيد بونز خارجًا من رحم أمّه، كانت أيّام ويلي الخضراء – بفتوتها وسذاجتها - قد انقضتْ، وأضحت ذكرى باهتة، كومةً من روث تتحلّل وتتعفّن في بقعةِ خلاء. زحفَ الهاربون من بيوت ذويهم عائدين إلى ماما وبابا؛ خلعَ مدخّنو الماريجوانا عُقود الحُبّ الهِيبية من رقابهم، واستبدلوا بها أربطةَ عُنق بنَقْشة البازيلي؛ وانتهت الحرب. غيرَ أن ويلي كان لا يزال ويلي، شُويعرًا مُذهلاً وحاملاً لرسالة سانتا من تلقاء ذاته، عُذركَ الأساسي المؤسف لارتداء هلاهيل التشرّد القذرة.

لم يكن مرور الزمن رحيمًا بالشاعر، لم يعد يختلط جيّدًا بمحيطه. فاحت منه رائحةٌ نتنة، وسالَ لُعابه، وأصبح يثيرَ أعصاب الآخرين دون قصد، ومع جروح الرصاصة والسّكّين وتدهور حالته الجسدية عمومًا، فَقَدَ سُرعته، وفَقَدَ أيضًا قُدرتَهُ المُدهشة سابقًا في الانزلاق بنعومة بعيدًا عن المتاعب. سَرَقَهُ وضَرَبَهُ غُرباء. ركلوه بينما كان نائمًا، وأضرموا النار في كُتُبه، واستغلّوا أوجاعه وآلامه. بعد مواجهةٍ من هذا النوع، انتهى به الحال في المُستشفى برؤية غائمة وذراعٍ محطّم، وأدركَ أنه لم يعدْ يستطيع المواصلة من دون نوعٍ من الحماية. فكّر في مسدّس، غير أن الأسلحة كانت تُثير اشمئزازه، وهكذا استقرّ رأيه على ثاني أفضل حَلّ عرفه الإنسان: حارس خصوصي من ذَوي الأربع.

لم تُعجَب السّيّدة جوريفيتش بالاقتراح، غير أن ويلي أصرَّ، ومضى في سبيله. وهكذا انتُزِعَ السيد بونز الصغير من أحضان أمّه وأشقّائه الخمسة في ملجأ حيوانات نورث شور، وانتقلَ إلى جادة جلينوود في بروكلين. تحرّيًا للأمانة التامّة، لم يعدْ يذكر شيئًا من تلك الأيّام الأولى. كانت لغة الإنجلوش لا تزال أرضًا غريبة عليه آنذاك، علاوةً على طريقة السّيّدة جوريفيتش في الحديث المُشوَّهة بطريقةٍ غريبة، ووَلَع ويلي بالتحدُّث بأصواتٍ مختلفة (بصوت جابي هاس في دقيقة، ثمّ صوت لويس آرمسترونج في الدقيقة التالية؛ صوت جروشو ماركس في النهار، وصوت موريس شيفالييه في الليل)، وهكذا مضتْ عدّة أشهر حتّى اعتاد حديثهما وفَهمه. وفي هذه الأثناء، كان يقاسي متاعب المرحلة الجَرْوِيّة: معاركه للسيطرة على المثانة والأمعاء، الصحف على أرض المطبخ، ضربات السّيّدة جوريفيتش على خطمه، كُلّما سالتْ منه قطراتُ البَول. كم كانت تلك المرأة عجوزًا مُتذمّرة مُعتلّة المزاج كثيرة الشكوى، ولولا يدا ويلي الرقيقتان وتربيتاته الودودة،

لكانت الحياة في تلك الشّقّة رحلة شاقّة. كان الجوّ شتاءً، وكل شيء في الشوارع بالأسفل جليدًا، ورشّات ملح لاذعة، وهكذا كان يقضي ثمانية وتسعين بالمئة من وقته بداخل الشقّة، إمَّا يكون جالسًا لدى قَدَميّ ويلي بينما يخطّ الشاعر بآليةٍ واستهانة أحدث تُحفه الأصلية، وإمَّا يستكشف الزوايا والشقوق جميعها في بيته الجديد. كانت الشقّة مكوّنة من أربع غرف ونصف، وبحلول الربيع صار السيد بونز مُلِمًّا بكل قضيب خشب في قطع الأثاث، وكل لطخةٍ في السجّاد، وكل شَجّ في مُشمّع الأرضية. عرفَ الفرقَ بين جرس الباب ورنين الهاتف، وصار يُميّز بين صوت خشخشة المفاتيح وقعقعة أقراص الدواء في قارورة بلاستيكية صغيرة، وبعد فترة وجيزة، صار يتعامل بلا كلفة مع كل صرصور يعيش في الخزانة تحت مَجلى المطبخ. كان روتينًا مُضجِرًا ومحدودًا، ولكنْ، كيف كان يمكن لمِستر بونز أن يعلم ذلك؟ فلم يكنْ أكثر من جروٍ كسيح العقل، أبله، مخالب مرنة، ما زال يجري وراء ذيله، ويقضم قطع خرائه، وإذا كانت هذه هي الحياة الوحيدة التي عاشها، فمَن كان هو ليحكم ما إذا كانت ثرية أم فقيرة من حيث الأشياء التي تجعل الحياة جديرةً بأن نعيشها؟

أيّ مفاجأة كانت في انتظار ذلك الغِرّ الصغير! حينما بدأ الطقس يدفأ أخيرًا والأزهار تنشرُ براعمها، اكتشفَ أن ويلي كان أكثر من مُجرّد صبي البيت المملّ أمام أوراقه، أو الفنّان الأخرق المُستمني المحترف. لقد كان سيّده رجلًا له قلب كَلب. كان متسكّعًا، جنديّ الحَظّ المتأهّب الهُمام دومًا، عملة نادرة بين ذوي الساقَيْن، يرتجلُ القواعد لحظةً بلحظة، بينما يمضي قُدُمًا. لقد قاما بكل بساطة، وغادرا ذات صباحٍ في منتصف أبريل، منطلقَيْن نحو العالَم الآخَر، فلا تقع أعينهما على أثرٍ لبروكلين حتّى اليوم السابق على عيد الهالوين مع نهاية أكتوبر. أيمكنُ لكلبٍ أن يطلب أكثر

من ذلك؟ في حدود اهتمام السيد بونز، فقد عَدَّ نفسَهُ المخلوقَ الأسعدَ حَظًا على وجه الأرض.

كانت هناك نوبات السُّبَات الشتوي، بكل تأكيد، والعَوْداتُ إلى منزل الأسلاف، ومعها المثالب الحتمية للحياة داخل البيوت: الشهور الطويلة مِن هسهسة المدافئ البخارية، والضجيج الجهنّمي للمكانس الكهربية وخلّاطات "وارنج"، وضجر الطعام المُعلّب. ورغم ذلك، كان السيد بونز بمُجرّد أن يلتقطَ الإيقاع لا يجد ما يدعوه للشكوى، فالطقسُ باردٌ بالخارج، على كل حال، وداخل الشّقّة يُوجَد ويلي، فأيّ سُوءٍ قد يُلمّ بالحياة ما دام هو وسيّده معًا؟ حتّى السّيّدة جوريفيتش بدا أنها تَقبّلت الأمرَ في النهاية. فما إن حُلّت مسألة السَّطْو على المنزل لاحظَ تَلَطُّفًا باديًا في موقفها نحوه، ورغم أنها واصلتْ تذمُّرها من الشَّعْر الذي يُسقِطُهُ في أنحاء مملكتها، فقد فهمَ أنه أداءٌ شَكْليّ بلا قلب. بل كانت تدعه أحيانًا يجلس في جوارها على أريكة غرفة المعيشة، وتُمسِّد رأسه بإحدى يَدَيْها في رقّة، بينما تتصفّح مجلّتها بيدها الأخرى، وأكثر من مرّة، أفاضت له بمكنون نفسها فعلًا، وأزاحتْ عن كاهلها مخاوفها المتنوّعة فيما يخصّ ابنها العاصي السادر في الظلام. ما أشدّ أسفها بسببه! وما أحزنَ أن يكون هذا الصبيّ الرائع مُبتلىً في دماغه! غير أن نصفَ ابنٍ خيرٌ من لا شيء، "فارشتايست"؟(*)، وأيّ حيلةٍ في يدها إلّا أن تستمرّ في حبّه، وأن تتمنّى انصلاح الأحوال للأفضل؟ لن يسمحوا له أبدًا بأن يُدفَن في مقبرة يهودية – ليس مع وجود ذلك الشيء الغريب على ذراعه، كلّا، لن يسمحوا – ومُجرّد معرفة أنه لن يرقدَ ليستريحَ جانبَ أمّه وأبيه كان حسرةً أخرى تُضَافُ إلى أحزانها، عذابًا آخر ينهشُ عقلها، ولكنْ، أليستْ الحياة للأحياء، والحَيّ أبقى من الميّت؟! والحمد

(*) Farshtaist – باللغة اليديشية في الأصل، ومعناها: أتفهمني؟

لله أنهما ينعمان بصحّة جيّدة – نمسك الخشب – أو على الأقلّ ليسا في حالةٍ سيّئة، في المُحصّلة يعني، وذلك في حدّ ذاته فضل ونعمة، شيء يستحقّ الشُّكر، شيء لا يُمكن شراؤه من متاجر اللوازم المنزلية الرخيصة؟! أليس كذلك؟! لا يُعلنون عن شيءٍ كهذا على التليفزيون، سواء كان مُلوَّنًا أم أبيض في أسود، ولا يهمّ نوع الجهاز الذي لديكَ. الحياة ليست للبيع، وحين تجد نفسَكَ على باب الموت، فلا شيء في الدنيا كلّها، ولا مال قارون، يقدر أن يمنعه من أن يُفتَح.

كما اكتشفَ السيد بونز أن الاختلافات بين السّيّدة جوريفيتش وابنها كانت أصغر ممّا افترضَ في أوّل الأمر. كان صحيحًا أنهما يتجادلان كثيرًا، وكان صحيحًا أنَّ لكلّ منهما رائحة مميّزة تمامًا – فأحدهما قذر جدًا، ويفوح بعَرَقٍ ذُكُوري، والأخرى رائحتها مزيجٌ من صابون الليلك، وكريم وجه بوندز، ولصوق طاقم الأسنان برائحة النعناع –ولكنْ، حينما يتّصل الأمر بالحديث، فإنَّ هذه الأمّ الطّيّبة البالغة ثمانية وستّون عامًا تستطيع أن تباري أيّ إنسان، وما إن تُطلق العنان لأحد مونولوجاتها المُطوَّلة سرعان ما تفهم لماذا حقّق ابنها بطولاتٍ في الثرثرة! قد تختلف الموضوعات التي كانا يتحدّثان عنها، إنما كان لهما الأسلوب نفسه من حيث الجوهر: أشواط مترنّحة وبلا انقطاع من التداعي الحُرّ، والكثير للغاية من مناجاة النفس الجانبية، والملاحظات الاعتراضية، وذخيرة كاملة من التأثيرات غير اللفظية، تحفل بكل شيء من طقطقة الحنك إلى التضاحك الساخر المكتوم إلى الشهقات الحلقية العميقة. من جانب ويلي، تعرَّف السيد بونز على الدّعابة والسخرية اللاذعة وغزارة المجاز. ومن مَاما تلقّى دروسًا، لها أهمّيّتها حول معنى الحياة. علّمتْهُ أمورًا عن القلق والكَرب، وعن حَمل عبء العالم كله على كتفَيْكَ، و – أهمّ من ذلك كله – عن منافع نوبة بكاءٍ جيّدة بين الحين والآخر.

بينما كان السيد بونز يسير مُجهَدًا إلى جانب سيّده في ذلك الأحد الكئيب في بالتيمور، رأى تفكيره في تلك الأمور الآن مُستَغربًا. وتساءلَ لماذا يعود بالذاكرة إلى السّيّدة جوريفيتش؟ لماذا يستحضرُ ضجرَ شتاءات بروكلين، في حين يمكنه أن يتأمّل ذكرياتٍ أخرى كثيرة أغنى وأسعد؟ هناك على سبيل المثال ألباكركي، وإقامتهما الهنيّة في مصنع الأسرّة المهجور ذلك منذ سَنَتَيْن. أو جريتا، كلبة الصيد الشهوانية التي عربدَ معها عشر ليالٍ يركضان في حقل ذرة خارج مدينة آيوا، أو ذلك الأصيل العجيب في بيركلي منذ أربعة أصياف عندما باعَ ويلي ستّاً وثمانين نُسخة مُصوّرة بالماكينة من قصيدةٍ واحدة في شارع تيليجراف مقابل دولار للقطعة. لو أنَّ بمقدوره أن يعيش من جديد بخياله بعضًا من تلك الأمور الآن، لأسعده هذا كثيرًا، أن يرجعَ مع سيّده إلى مكانٍ ما سابق على بداية السُّعال – ولو كان ذلك العام الماضي، ولو منذ تسعة أو عشرة أشهر فقط، نَعم، وربّما حتّى يتسكّعان من جديد مع تلك الفتاة المتحرّرة البدينة القصيرة التي عاشَ ويلي معها فترة – واندا، ويندي، أو أيًا كان اسمها – والتي كانت تحملُ حياتها كلها معها في صندوق سيّارتها الستيشن واجن في دِنفِر وتُطعمه بيضًا مسلوقًا. كانت طلقة طائشة، تلك الفتاة، جوالًا فاحشًا من الشَّحم والكحوليات، دائمًا تضحكُ أكثر من اللازم، ودائمًا تُدغدغه في الجزء الحسّاس من معدته، وكُلّما برزَ قليلاً عضوه الكَلبي القرنفلي من غِمده (وللحَقّ، ذلك ما لم يعترضْ عليه السيد بونز)، فتجأر هي عندئذٍ بضحكٍ أكثر، ضحك كثير للغاية حدَّ أن وجهها يتلوّن بخمس عشرة درجة مختلفة من اللون الأرجواني، وكثيرًا ما كانت تتكرّر هذه الكوميديا الصغيرة في أثناء فترة إقامتهما القصيرة معها، إلى درجة أنه صار بمُجرّد أن يسمع كلمة دِنفِر الآن حتّى تبدأ ضحكات واندا تُدوّي في أذنَيْه من جديد. هكذا

كانت دِنفِر بالنسبة له، تمامًا كما كانت شيكاجو حافلة ركاب تطرطشُ أوحال المطر في شارع ميتشجان. تمامًا كما كانت تامبا جدارَ نورٍ يتلألأ صاعدًا من الأسفلت عصرَ ذات يومٍ من أغسطس. تمامًا كما كانت توسكان ريحًا ساخنة، تهبّ من الصحراء، حاملةً معها شَذَا أوراق العَرعَر والمريمية، ودفقةٌ وفيرةٌ مُفاجِئَة من هواءٍ صافٍ، كأنه من عالمٍ آخر.

حاولَ أن يتشبّث بتلك الذكريات، واحدةً بعد أخرى، أن يسكنَ إليها ولو دقائق معدودةً أخرى بينما تعبره سريعًا، غير أن محاولته كانت بلا طائل. ظلَّ يرجعُ من جديد إلى شقّة بروكلين، وإلى تكاسُل حَبْسات الطقس البارد تلك، والسّتّ مَاما تنتقّل بين الغرف في خُفّها المنزلي الأبيض ذي الوَبَر. أدركَ أنه لا شيء يمكن فعله غير البقاء هناك، فاستسلمَ أخيرًا لقوّة تلك الأيّام والليالي اللانهائية، وفهمَ أنّه عاد إلى شارع جيلنوود، لأنَّ السّيّدة جوريفيتش قد ماتتْ. لقد غادرتْ هذا العالَم تمامًا كما كان ابنها على وشك أن يغادره، وبتدرُّبه على ذلك الموت الأسبق، كان يُعدّ نفسه بلا شكّ للموت التالي، ميتة الميتات جميعها، والمقدّر لها أن تقلب العالَم رأسًا على عقب، بل رُبّما أن تُدمِّره تمامًا.

كان الشتاء على الدوام موسم المخاض الشِّعْري. كان ويلي يصحو طوال الليل عندما يكون في البيت، وغالبًا ما يبدأ عَمل يومه بعد أن تذهب أمّه إلى الفراش. لم تكن حياة التنقّل على الطُّرُقات تُتيح الظروف المواتية للتأليف، فالإيقاع كان أسرع ممّا يلزم، والنَّفْسُ شاردة جوّالة، والمشتّتات تتواصل، بحيث لا تسمح بأيّ شيء إلّا من ملاحظةٍ ظريفة أو عبارة سريعة، يخطُّها سريعًا على منديلٍ ورقيّ. ورغم ذلك، فخلال الشهور التي كان يقضيها في بروكلين، كان ويلي، في أغلب الأوقات، يجلس إلى مائدة

المطبخ ثلاث أو أربع ساعات كل ليلة، مخربشًا أشعاره في دَفاتر ذات سِلْكٍ لولبيّ، بصفحات مقاس ٨,٥ في ١١. على الأقلّ، هذا ما كان يحدث عندما لا يكون بالخارج في حفلة سُكْر في مكانٍ ما، أو لا يكون غارقًا تمامًا في مستنقع الإحباط، أو فاتر الهمّة لانقطاع الوَحي. في بعض الأحيان، كان يُغمغِمُ متحدّثًا إلى نفسه بينما يكتب، ناطقًا الكلمات، إذ يكتبها على الورق، بل ذهب أحيانًا إلى حدّ أن يضحك أو يبرطمَ مُتذمّرًا أو يخبط المائدة بقبضته. في أوّل الأمر، حَسبَ السيد بونز أنّ تلك الضوضاء كانت مُوجَّهةً إليه، لكنه لم يعدْ يكترث منذ أن أدركَ أن ذلك النوع من السخافات كان جزءًا لا يُجتَزأ من العملية الإبداعية، وصار يلتفّ حول نفسه تحت المائدة غافيًا عند قَدَمَيّ سيّده، في انتظار لحظة انتهاء عمل الليل حتّى يُؤخَذ إلى الخارج لإفراغ مثانته.

ومع ذلك، لم يكن الأمر كله رُكودًا وسُباتًا، صحيح؟ حتّى في بروكلين كانت هناك بعض نقاط النور، بضع مرّات من الخروج على الروتين الأدبي اليومي. على سبيل المثال، فلنعد للوراء ثمانية وثلاثين عامًا بالتقويم الكلبي، وسنجد هناك سيمفونية الروائح، ذلك الفصل الفريد والمشرق من سِجلّ حَوليات عالَم ويلي، حيث لم تكن هناك أيّة كلمات بالمرّة على مدى شتاءٍ كامل. حدّث السيد بونز نفسَهُ قائلًا نَعم، كان ذلك بالتأكيد أحلى الأوقات وأشدّها جنونًا على الإطلاق، ومُجرّد استدعائه الآن يبعثُ وهجًا دافئًا من الحنين يسري في دمه. لو كان قادرًا على الابتسام، لابتسم في تلك اللحظة، ولو كان قادرًا على البكاء، لجَرت دموعه. والواقع، إذا كان ذلك ممكنًا من الأساس، ودَّ لو استطاع أن يضحكَ ويبكي في الوقت نفسه – احتفالًا بسيّده الحبيب، وحِدادًا عليه معًا، سيّده الذي سينتهي وجوده عمَّا قريب.

كانت السيمفونية ترجعُ إلى الأيّام المبكّرة من حياتهما معًا. كانا قد غادرا بروكلين مرَّتَيْن، وعادا إلى بروكلين مرَّتَيْن، كان ويلي في ذلك الحين قد أفعمتْهُ أحرُّ العواطف وأبلغها نحو صاحبه ذي الأربع. لم يقتصر الأمر على شعوره بأنه الآن مَحميّ، ولا سعادته بوجود مَنْ يتحدّث إليه، ولا مُجرّد ارتياحه إلى جسمٍ دافئ يتكوّر إلى جانبه في الليل، لكنه فوق ذلك كله وبعد العَيش مع الكلب شِبه متلاصقَيْن شهورًا عدّة، حكمَ ويلي بأنّه بحذافيره كائنٌ صالحٌ لا سبيل لأن ينال منه الشّرّ أبدًا. كان على يقين أن السيد بونز له روحٌ، ليس هذا وحسب، بل إنّه علمَ تمام العلم أن تلك الروح خيرٌ من سائر الأرواح، وكُلّما أنعم فيها النظر عثرَ على المزيد من النقاء ونُبل النَّفْس. هل كان السيد بونز ملاكًا حبيسًا في جسد كلب؟ هكذا فكّر ويلي. بعد ثمانية عشر شهرًا من الملاحظات الأدقّ والأشدّ حميمية، صارَ على يقينٍ مِن ذلك. وإلّا فما تفسير تلك التورية الإلهية التي أخذت تتردّد في عقله بالليل والنهار؟ لكي تفكّ شيفرة رسالة، ليس عليكَ إلّا أن تُمسك بها أمام مرآة. أيمكن أن يكون الأمر أوضح من ذلك؟ ليس عليكَ إلّا أن تقلب حروف كلمة كلب-dog(*)، فماذا ستجد؟ الحقيقة، تلك هي الحقيقة. أدنى المخلوقات يحتوي في اسمه على قوّة الجوهر الأسمى، القدير مُبدع الكائنات كلها. ألهذا السبب بُعثَ الكلب إليه؟ أكان السيد بونز في حقيقة الأمر الحضور الثاني للقوّة نفسها التي أرسلت إليه سانتا كلوز في تلك الليلة من ديسمبر عام ١٩٦٩؟ رُبمّا، ثمّ مرّةً أخرى، رُبمّا لا. بالنسبة لأيّ شخصٍ آخر سيكون هذا السؤال محلّ أَخْذٍ ورَدٍّ، أمّا بالنسبة لويلي – ولأنه كان ويلي على وجه التحديد – فلم يكن الأمر كذلك.

على كل حال، كان السيد بونز كلبًا. من خَطْمِهِ حتّى طرف ذيله، كان

---

*) بالإنجليزية dog عند قراءتها عكسيًا تصير God أي الرّبّ.

مِثالًا نقيًا على الانتماء لفصيلة الكلبيات، وأيًا كان الحضور الربّاني الذي قد يكون مقيمًا تحت جلده، فقد كان أوّلًا وقبل كل شيء الكائن الذي ظهرَ بوصفه مِستر هَوهَو، مُسيو ووف ووف، السّيّد كُلَيب. وكما قال شخص مُهرّج لويلي ذات مرّة في بار في شيكاجو منذ أربعة أو خمسة أصياف: "أتريد، يا صاحبي، أن تعرف ما هي فلسفة الكلب في الحياة؟ سأقول لكَ أنا ما هي. جملة واحدة قصيرة فقط: 'ما لا تستطيع أن تأكله، ولا تنكحه، تَبوَّلْ عليه'."

لم يجدْ ويلي بأسًا في ذلك. فمَن يعلم أيّ ألغازٍ لاهوتية كانت تفعل فِعلها في حالةٍ مثل هذه؟ لو أن الرَّبَّ قد أرسل ابنه إلى الأرض في صورة رجل، فلمَ لا ينزل ملاكٌ إلى الأرض في صورة كلب؟ كان السيد بونز كلبًا، والحقيقة أن ويلي استمتع بتلك الكلبية، ووجدَ مسرّةً بلا نهاية في متابعة عَرض العادات الخاصّة بأبناء نوعه ذوي الأنياب. لم يسبقْ لويلي أن اتّخذ حيوانًا رفيقًا من قبل. رفضَ والداه وهو صبيّ ذلك في كل مرّة طلب فيها حيوانًا أليفًا. الهررة، والسلاحف، والببغاوات، وقوارض الهَمستر، والسمك الذهبي – لم يكن لوالدَيْه أيّ صلة بها جميعًا. كانت الشّقّة أصغر من اللازم، هكذا قالا، أو إن الحيوانات تصدر رائحةً كريهة، أو إنّها تكلّف نقودًا، أو إنّ ويلي لم يكن على قدر المسؤولية بما يكفي. ونتيجة ذلك، وحتّى يوم انضمام السيد بونز إلى حياته، لم تسنحْ له من قبل أبدًا فُرصةَ أن يراقب سلوكَ كلب عن قُرب، ولم يكترث قَطّ بأن يفكّر في الموضوع قليلًا. كانت الكلاب بالنسبة له لا تزيد عن كياناتٍ غامضة، أشكالٍ مُبهمة كالظلال تحوم على حافة وَعيه. يتجنّب المرء الذي ينبحُ عليه منها، ويربّت على الذي يلعقه منها، وكان هذا مبلغ معرفته بها. بعد شهرَيْن من يوم ميلاده الثامن والثلاثين، تبدّل ذلك كله فجأة.

كان هناك الكثير للغاية لاستيعابه، قرائن وشواهد كثيرة للغاية لفَهْمها وفكّ شفيرتها واكتشاف مغزاها، بحيث إنّ ويلي لم يكدْ يعرف مِن أين يبدأ. هَزّ الذيل في مقابل الذيل المتدلّي بين الساقَيْن. الأذنان المرهفتان في مقابل الأذنَيْن المرتخيَتَيْن. التقلّب على الظهر، الركض في دوائر، شمّ فتحة الشرج، وإطلاق الزمجرة والهَرهَرة، وثبات الكانجارو، والالتفافات عاليًا في الهواء، والجثوم في تأهّب، والأسنان المكشوفة، وإمالة الرأس على الجانب، ومائة خاصّيّة دقيقة أخرى، كل منها تعبيرٌ عن فكرة أو شعور أو خطّة أو دافع. وجدَ ويلي الأمر أشبه بتعلّم كيفية التحدّث بلغةٍ جديدة، مثل العثور على قبيلة من بدائيّيْن مفقودة منذ زمنٍ بعيد والاضطرار لفَهْم عاداتهم وسُننهم المستغلقة. بعد أن تجاوز الحواجز الأولى، كان أشدّ ما أثار فضوله تلك الأحجيّة التي أسماها مفارقة العين-الأذن، أو إحصاء الحواسّ. كان ويلي إنسانًا، وبالتالي فقد اعتمد أساسًا على البصر في تكوين فَهْمه للعالم. وكان السيد بونز كلبًا، وبالتالي فقد كان أقرب ما يكون للعَمى. ولم تكن عيناه مفيدَتَيْن له إلّا بقدر ما تُعينه على تمييز الأشكال، لتبيّن الخطوط الخارجية العريضة للكائنات، لتُخبره ما إذا كان ذلك الشيء أو الكيان الذي يلوحُ غامضًا أمامه عدوًا، فيتجنّبه أو حليفًا فيقبّله. أمَّا لكي يحصل على معرفة حقيقية، ومن أجل فَهْمٍ أصيلٍ للواقع في تشكيلاته المتشعّبة جميعها، ليست سوى أنفه ما له قيمة مُعتبَرَة. أيًا كان ما يعرفه السيد بونز عن العالم، وأيًا كان ما اكتشفه في الطريق من بصائر أو انفعالاتٍ أو أفكار، كان ذلك بفضل قيادة حاسّة شمّه. في أوّل الأمر، كان ويلي لا يكاد يُصدِّق عينَيْه. بدا له أنَّ جَشَع الكلب للروائح بلا حدود، وكان ما إن يكتشف شذا يثير اهتمامه، يثبّت أنفه فوقه بكل تصميم عزم وحماسةٍ مُخلصة، بحيث ينتفي وجود كل شيء آخر في العالم. كانت

فتحتا خَطْمِهِ تتحوّلان إلى أنبوبَتَيْن ماصَّتَيْن، مُستنشقًا الروائح كما تشدّ المكنسة الكهربائية إلى داخلها كسرات الزجاج، وأحيانًا – في أحيانٍ كثيرة، للحقّ – كان ويلي يتعجّب كيف لم ينشقّ الرصيف متكسّرًا من شِدّة وحِدّة عَمل خَطْم السيد بونز. في الأحوال المعتادة، يُعدّ الكلب أكثر المخلوقات طاعةً وخضوعًا، لكنه عندئذٍ يصير عنيدًا ومشتّت الانتباه، ويبدو كما لو أنه نسي سيّده كُلّيّةً، ولو صادفَ أن نجحَ ويلي في شدّ الرسن قبل أن يتأهّب السيد بونز للتقدّم، وقبل أن ينهلَ النكهة الكاملة لقطعة الروث أو بركة البول بأقصى درجات العناية والتدقيق، كان يغرسُ أقدامه في الأرض، ليقاومَ الاجتثاث، وهكذا يصير من المُحال زحزحته، راسخًا كأنه مُسَمَّرٌ في موضعه، إلى حدّ أن ويلي كثيرًا ما تساءل إن لم يكن هناك جرابٌ مخفي بموضعٍ في برائنه، يفرزُ صمغًا عندَ الطّلب.

كيف لا يُفتنَ بهذا كله؟ تستطيع الكلاب تمييز مائتَي وعشرين مليون رائحة على وجه التقريب، أمَّا الإنسان، فلديه مُستقبِلات لخمسة ملايين فقط، ومع الاعتبار لهذا القدر من التفاوت العظيم يكون افتراضًا منطقيًا أن العالم الذي يستقبله الكلب مختلف تمام الاختلاف عن ذلك الذي يستقبله الإنسان. لم يكن المنطق أبدًا نقطة قوّة عند ويلي، ولكنه في هذه الحالة كان مدفوعًا بالحُبّ بقَدْر الفضول الفِكري نفسه، وبالتالي عكفَ على السؤال بمثابرةٍ أكثر من المعتاد. ما الذي كان السيد بونز يختبره عندما يشمّ شيئًا ما؟ وبالأهمّيّة ذاتها، لماذا يشمّ ما يشمّه؟ قادت الملاحظة الدقيقة ويلي للتوصّل إلى أنَّ هناك ثلاث فئات بالأساس تثير اهتمام السيد بونز: الطعام، والجنس، والمعلومات الخاصّة بالكلاب الأخرى. يفتح الإنسان جريدة الصباح ليكتشف ما الذي يدور بين بني جنسه؛ والكلب يفعل الأمر ذاته بأنفه، متشمّمًا الأشجار وأعمدة الإنارة

وصناديق إطفاء الحريق، ليطّلع على أفعال سكّان المنطقة من الكلاب. رِكس، الروت وايلر حادّ الأنياب، ترك علامته على تلك الشجيرة؛ ومولي، الكوكر سبانيل الحبّوبة، في موسم شبقها؛ وروجر، الهجين أكل شيئًا غير مناسب لمعدته. كان ذلك القَدر واضحًا لويلي، مسألة لا جدال فيها. لكن الأمور تزداد تعقيدًا عندما يحاول المرء أن يفهم ما الذي كان يشعر به الكلب. هل غاية الأمر أنه يعتني بمصالحه الخاصّة، يمتصّ المعلومات، من أجل أن تكون له القَدَم العليا على الكلاب الأخرى، أم أنّ في تلك المهرجانات الشّمّيّة المسعورة ما هو أكثر من محض تكتيكات عسكرية؟ هل في الأمر متعة ومَسَرّة؟ هل يمكن للكلب الذي يدفن رأسه في قمامةٍ أن يختبرَ شيئًا شبيهًا، فلنقل مثلاً بتجربة رجل يأخذه دوارٌ مُسْكِر عندما يدسّ أنفه في عُنق امرأة، ويتنسّم نفحةً من عطرٍ فِرنسي، يبلغ ثمن الأوقية منه تسعين دولارًا؟

كان مستحيلاً التّوصّل إلى جواب مؤكّد، لكنّ ويلي مالَ للاعتقاد أن الجواب كان نَعَم. وإلّا فلمَ يكون من الصعب للغاية اقتلاع السيد بونز بعيدًا عن مواقع روائح محدّدة؟ كان الكلب يستمتع، ذلك هو السبب. كانَ غائبًا في نَشوة السُّكْر، ضائعًا في فردوسٍ أنفيّ، لا يحتمل مغادرته. وإذا كان ويلي مقتنعًا بأن السيد بونز له روحٌ، وهو ما ترسّخ لديه من قبلُ، ألا يُعدُّ معقولًا أنّ كلبًا بمثل تلك الميول الروحية سوف يصبو إلى أمورٍ أسمى – أمورٍ ليست بالضرورة متّصلةً بمتطلّبات جسمه واضطراراته، لكنْ، أمور روحية، أمور فنّيّة، أشواق غير ماديّة تخصّ الروح؟ وإذا كان الأمر، كما لاحظ الفلاسفة جميعهم في هذا الموضوع، أنَّ الفن نشاطٌ إنساني يرتكز على الحواسّ، للوصول إلى تلك الروح، ألا يُعدّ معقولًا كذلك أن الكلاب – أو على الأقلّ الكلاب من مُستوى السيد بونز – تنطوي على ذلك الطموح،

وتشعر بحافزٍ جماليّ مماثل؟ وبتعبيرٍ آخر، ألن يكون بوسعهم تقدير الفَنّ؟ في حدود معرفة ويلي، لم تراود هذه الفكرة أحدًا من قبل. أَجَعَلَهُ ذلك أوَّلَ رجل في التاريخ المكتوب يعتقد بأن هذا الشيء كان ممكنًا؟ لا يَهمّ. كانت فكرة قد حانَ أوانُ ظهورها. وإذا كانت الكلاب خارج نطاق فتنة الرسوم الزيتية والرباعيات الوترية، فَمَنْ يدّعي أنها لا تستجيب إلى فنٍّ يقوم على حاسّة الشّمّ؟ لمَ لا يكون فنًا شمّيًا؟ لمَ لا يكون فنًا للكلاب يتفاعل مع العالم بصورته التي يعرفها الكلاب؟

وهكذا بدأ الشتاء المخبول لعام ١٩٨٨. لم يَسبقْ لمِستر بونز أن رأى ويلي هكذا، في غاية الحماس والسَّكينة، ومفعمًا بطاقةٍ ثابتة. على مدى شهرَيْن ونصف عملَ على المشروع مُستبعِدًا كلّ شيء آخر، حتّى إنه لم يعدْ يهتمّ بالتدخين والشراب إلّا نادرًا، ولا ينامُ إلّا عند الضرورة القصوى، حتّى كاد أن ينسى الكتابة أو القراءة أو تنظيف أنفه. أخذ يرسم الخطط، ويضع القوائم، ويُجرِّب مع الروائح، ويتتبّع الأشكال البيانية، ويبني مُجسمّات من الخشب والخيش والكرتون والبلاستيك. كان لا بدّ من إجراء الكثير للغاية من الحسابات والتجارب، والإجابة على الكثير للغاية من الأسئلة الرهيبة. ما هو الترتيب المثالي للروائح؟ كم ينبغي أن تكون مدّة السيمفونية؟ وكم عدد الروائح التي يجب أن تحتويها؟ ما هو الشكل الملائم للقاعة السميفونية؟ ألا بدّ أن تُبنَى في صورة متاهة، أم أنّ متوالية من صناديق داخل صناديق ستكون أنسب لحساسية كلب؟ هل يجب على الكلب أن يؤدّي العمل بمفرده، أم أن يجب أن يكون مالكه إلى جانبه، يرشده من مرحلةٍ في الأداء إلى التالية عليها؟ أينبغي أن تدور كل سيمفونية حول موضوعٍ واحد – الطعام، مثلًا، أو رائحة أنثى – أم ينبغي أن تُمزَج عناصر متنوّعة معًا؟ مسألة بعد أخرى، استنفد ويلي الكلام حولها جميعًا مع السيد بونز،

سائلاً إيّاه الرأي ومُلتمِسًا النُّصح ومُتوسّلاً صبره ومسايرته، ليلعب دور فأر التجارب في عددٍ كبير من التجارب والأخطاء التي تلتْها. نادرًا ما أحسّ الكلب بهذا القدر كله من التكريم، ولا هذا القدر من التورّط في القلب النابض لشؤون البشر. كان ويلي بحاجةٍ إليه، ليس هذا فقط، ولكنَّ تلك الحاجة بإلهامٍ من السيد بونز نفسه. مِن أصوله المتواضعة ككلبٍ هجين بلا قيمةٍ أو ميزة خصوصية، تحوَّل إلى كلب الكلاب جميعًا، نموذج لبني جنسه بالكامل. كان سعيدًا بالطبع أن يؤدّي دوره، أن يجاري ويلي في كل ما يطلبه منه. وأيّ فرقٍ هناك إن كان لا يفهم تمام الفَهْم؟ ألم يكن كلبًا؟ ولمَ قد يعترض على تشمّم كومة خِرَقٍ مُشرّبة بالبول، أو أن يحشر جسمه خلال بويبٍ ضيّق، أو أن يزحف عبر نفقٍ، قد لُطّختْ جدرانه بآثار عشاءٍ من الإسباجيتي وكُرات اللحم؟ لعلَّ ذلك كله لم يخدم أيّ غرضٍ، لكنّ الحقيقة أنه كان مُمتِعًا.

كان ذلك ما عاوده الآن: متعة الأمر، الفورة المتجدّدة لحماس ويلي. فلينسَ ماما وتعليقاتها المُتهكِّمة. ولينسَ حقيقة أن معمل تجاربهما لم يكن إلّا قبواً ثانوياً للمبنى، بجوار التّنّور وأنابيب الصرف الصّحّي، وأنّهما كانا يعملان على أرضية باردة وقذرة. فقد كان هناك التعاون على أمرٍ له أهمّيّة، تحمُّل المشقّة معًا باسم التّقدُّم العلمي. وإن كان هناك أيّ شيء قد يندم عليه أحيانًا، فقد كان ببساطة عمق التزام ويلي بما كانا يفعلان. لقد استهلكَه الأمر تمامًا، ابتلعتْه تفاصيل المشروع وسفاسفه، حتّى صار عسيرًا عليه باطرّاد الاحتفاظ بمنظورٍ صحيح لرؤية الأمور. في أحد الأيّام، قد يتحدّث عن اختراعه، كما لو أنه اكتشاف مهول، ابتكار غير مسبوق، لا يقلّ عن المصباح الكهربائي أو الطائرة أو رقائق الكمبيوتر. قال إنه سيجلبُ شولات من النقود، وسيحوّلهما إلى أصحاب ملايين مرّات عديدة، ولن

يضطرّا للقلق بشأن أيّ شيء بعد ذلك. ورغم ذلك، ففي أيّامٍ أخرى كان تملؤه فجأة الحيرة والشكوك، فيطرح على السيد بونز نقاشاتٍ مطوّلة على درجةٍ بالغة من رهافة الصياغة ودقّة الإحكام، بحيث بدأ الكلب يعتريه الخوف على صحّة سيّده. تساءل ويلي ذات مساء أليسَ مِن الجائز أنه يبالغ في الأمر حين يضمّن عطورًا أنثوية في توليف السيمفونيات؟ ألا تُوقِظُ تلك الروائح الشهوةَ في الكلب الذي يتنشّقها؟ وألا ينتقص ذلك من الطموح الجمالي للسيمفونيات، مُحوّلًا القطعة إلى عملٍ إباحيّ، نوع من الحكايات البذيئة الخاصّة بالنسبة للكلاب؟ وبعد ذلك التصريح مباشرةً، شرعَ ويلي يُدبِّج الكلمات المتماثلة مُجدّدًا، وهو ما كان يحدث كُلّما كان عقله يعمل بأقصى سرعته. "عالج البذاءة بالبراءة"(*)، هكذا غمغمَ لنفسه، مُتحرّكًا بهمَّة للأمام والوراء على الأرضية القذرة، "نقاء البراءة دواء للبذاءة". وما إن أفلحَ السيد بونز في فكّ عُقَد اللعب اللفظي، فَهِمَ مقصد ويلي، وأنه يرى العاطفة مُفضّلة على الجنس، أو على الأقلّ عندما يتعلّق الأمر بالسيمفونيات، وأنه لكي يظلّ مُخلصًا لهدف تحقيق متعةً جمالية للكلاب، فلا بدّ من تقديم الأشواق الروحية على الماديّة. وهكذا، وبعد أسبوعَيْن متتاليَيْن من فرك أنفه في مناشف وقطع إسفنج مشبّعة بأريج إناث الكلاب في مواسم شبقها، قُدِّمَ لمِستر بونز مجموعة جديدة تمامًا من التجهيزات: ويلي نفسه، بأشكاله المُتبخّرة جميعها. جوارب متّسخة وفانلات داخلية وأحذية ومناديل وسراويل وكوفيّات وقبّعات – أيّ شيء وكل شيء حملَ رائحة سيّده. وقد استمتعَ السيد بونز بتلك الأشياء بقدر متعته نفسها بالأشياء الأخرى. فالواقع أنّ السيد بونز كان كلبًا، والكلاب تستمتع بشَمّ

---

*) في الأصل: "Cure porn with corn"، بمعنى تخفيف الإباحية بالعاطفة، وإن كانت ساذجة ومبتذلة.

أيّ شيء، يمكنهم شمّه. تلك كانت طبيعتها؛ وهذا ما وُلدَتْ لتفعله؛ تلك كانت رسالة حياتها، كما علّق ويلي صَائبًا. ولمرّةٍ وحيدة فقط، كان السيد بونز سعيدًا، لأنه لم يُمنَح القدرة على الحديث الإنساني. فلو كانت لديه لاضطرَّ أن يُطلعَ ويلي على الحقيقة، وتلك كانت ستُؤلمه أشدّ الألم. بالنسبة لكلب، كان سيقول له، بالنسبة لكلبٍ، يا سيّدي العزيز، فإن العالَم كله سيمفونية من الروائح. كل ساعة، وكل دقيقة، وكل ثانية من أيّام حياته هي تجربة ماديّة وروحية في الوقت نفسه. فما من فارقٍ بين الداخل والخارج، لا شيء يفصل الأعلى عن الأدنى. كما لو أنَّ...، كما لو...

بمُجرّد أن شرعَ السيد بونز في بَسط حديثه المتخيّل هذا في رأسه، قُوطعَ بصوت حديث ويلي. لعنة، سمعه يقول. لعنة، لعنة، ولعنة مزدوجة. نترَ السيد بونز رأسه لأعلى، ليرى ما المشكلة. كان مطرٌ خفيف قد بدأ يتساقط، رذاذ خافت، لدرجة أن السيد بونز لم يحسّ به يسقط على معطفه الأزغب. لكن حبّاتٍ صغيرة من البَلَل كانت تلتمع في لحية ويلي، وامتصّ التي شيرت الأسود لسيّده ما يكفي من الرطوبة، ليظهر عليه تشكيلٌ من نقاطٍ في خطوط متقاطعة. لم يكن هذا جيّدًا. آخر ما كان يحتاجه ويلي أن ينتقع بالماء، ولكنْ، إذا جلبت السماء ما يبدو أنّها تعدُ به، فذلك ما سيحدث بالضبط. طالعَ السيد بونز السحاب فوق رأسه باعتناء. ما لم يطرأ تغيّرٌ مفاجئ للريح، ففي أقلّ من ساعة، سوف تتحوّل هذه القطرات الواهنة إلى وابلٍ غزير عَتيّ. لعنة، قال في نفسه. كم عليهما أن يمضيا في السير، ليعثرا على شارع كالفرت؟ لقد كانا يدوران في الأرجاء على مدى العشرين أو الثلاثين دقيقة الماضية، وما زال منزل بيا سوانسون خَفيًا عن الأنظار. إن لم يصلا إلى هناك قريبًا، فلن ينجزا المهمّة. لن ينجزا المهمّة، لأن ويلي لن يجد القدرة على المواصلة.

مع المحنة التي يواجهانها، كان آخر ما يتوقّع السيد بونز عندئذٍ أن يشرع سيّده في الضحك. لكنّ هذا ما حدث، من أعماق معدته قرقعت صاعدة، واندفعت للوجود في سكون يوم الأحد: تلك الـ هههه القديمة المألوفة. فكّر للحظة أن ويلي رُبّما كان يحاول أن يصفّي حلقه، ولكنْ، بعد الـ هههه الأولى تبعتْها أخرى ثانية، ثمّ ثالثة، ورابعة بعدها، فلم يعد يساوره شكّ فيما أنبأتْهُ به أذناه.

"انظرْ هنا، يا صاحبي العجوز"، قال ويلي، منطلقًا في أفضل ما لديه من خُنّة أنفية لرعاة البقر. كان صوته هذا في التحدّث محجوزًا للمناسبات الخاصّة، لكنة كان ويلي يستدعيها فقط كُلّما وجد نفسه إزاء أكبر المفارقات المدوّخة في الحياة. تحيّر السيد بونز لما يسمعه الآن، وحاول أن يستبشر خيرًا بهذا التّغيّر المباغت في حالة الجوّ الوجدانية. كانت المنطقة المحيطة بهما تتعفّن كلها في الفقر والقمامة المتناثرة، ومع ذلك، ففي الموضع الذي كان يقفان فيه أتى قبالة أجمل منزل صغير رآه السيد بونز على الإطلاق، مبنى بحجم لعب الأطفال من قرميدٍ أحمر، نوافذه مُزيَّنة بقضبان خشبية خضراء، وله ثلاث سُلّمات خضراء، وباب مَطليّ بأبيض برّاق. وثمّة لافتة مثبتة على الجدار، ضيّق ويلي عينَيْه مُتطلّعًا، ليقرأ ما كُتب عليها، ومع مرور كلّ ثانية، كان يتّخذ كلامه أكثر فأكثر نبرة عامل يدويّ في مزرعة أبقار في تكساس.

أخذ يتلو المكتوب: "٢٠٣، شارع نورث آميتي. مسكن إدجار آلان بو، من ١٨٣٢ إلى ١٨٣٥. مفتوح للزوّار من شهر أبريل إلى ديسمبر، أيّام الأربعاء وحتّى الأحد، من منتصف النهار وحتّى ٣,٤٥ بعد الظهر."

بدت كلها أشياء مملّة جدًا بالنسبة لمِستر بونز، ولكنْ، مَن هو ليتذمّر

بشأن ما يُثير حماس سيّده؟ بدا ويلي أشدّ امتلاء بالإلهام ممّا كان عليه في أيّ لحظة خلال الأسبوعَيْن الماضيَيْن، حتّى لو تبعتْ قراءَتَهُ للافتة نوبةٌ قاسيةٌ أخرى من السُّعال (المزيد من البلغم، المزيد من الشهقات، المزيد من الخطوات المتعثّرة في مكانه، بينما يُمسك بماسورة الصرف، وكأنه يتشبّث بحياته العزيزة)، فسرعان ما استعاد نفسه ما إن مرّ تشنُّج النوبة.

"بعد التعب وقعنا على لَقية ثمينة، يا نمري الصغير"، قال ويلي، وهو يبصق آخر نتفٍ من النخام والنسيج الرئوي. "ليس منزل آنسة بيا، ذلك مُؤكّد، ولكنه عندي أعزّ وأغلى، وما من مكان على وجه الأرض أفضّل أن أكون فيه أكثر من هذا المكان. صاحبنا بو هذا كان جدّي، السَّلَف البعيد والأب الأكبر لنا نحن الأدباء الأمريكيين جميعًا. لولاه، لما كنتُ أنا، ولا هُم، ولا أيّ واحد. لقد ألقتْ بنا الريح إلى بو- لاند [أرض بو][*]، وإذا نطقتَهَا بسرعة كافية ستجدها البلد نفسه التي وُلدَ فيها أبي الراحل. قادنا ملاكٌ إلى هذه البقعة، وأنوي أن أجلس ها هنا قليلًا، وأبدي احتراماتي. وكما يبدو، فأنا غير قادر على السير خطوة واحدة أخرى في الأحوال كلها، وسوف يسرّني كثيرًا إذا انضممتَ إليّ، يا السيد بونز. هذا صحيح، اتَّخِذْ مقعدًا إلى جانبي، بينما أريح عظامي. لا تكترثْ بالمطر. ليست إلّا بضع قطرات، ولا تضمرُ لنا سوءًا."

أطلقَ ويلي نخرة طويلة مُجهَدَة، ثمّ استراح على الأرض. كان من المؤلم لمِستر بونز أن يشاهد هذا –ذلك المجهود المبذول كله فقط ليتحرّك بوصات معدودة – وفاض فؤاد الكلب بالإشفاق لرؤية سيّده على هذا الوضع المؤسف. لن يعلم أبدًا مِن أين أتاه ذلك اليقين، ولكنه بينما يتابع

---

*) Poe-land– أي بلاد بو أو أرض بو – وفي نطقها أقرب ما يكون إلى Poland.

ويلي يحطّ بجسمه على الرصيف، ويميلُ بظهره على الجدار، علمَ أنه لن ينهض مرّة أخرى. كانت هذه نهاية حياتَيْهما معًا. بين أيديهما الآن اللحظات الأخيرة، ولم يعد بالوسع عمل أيّ شيء سوى الجلوس هناك حتّى يخبو النور في عينَيّ صاحبه.

ورغم ذلك، فلم تنتهِ رحلتهما نهاية شديدة السوء. لقد أتيا إلى هنا بحثًا عن شيء، فوجدا شيئًا آخر، وفي النهاية، كان السيد بونز يفضّل الشيء الذي وجداه على ما لم يجداه. لم يكونا في بالتيمور، بل كانا في بولندا. بفضل إحدى معجزات الحَظّ أو القَدر أو العدالة الإلهية. نجح ويلي في العودة إلى دياره. رجع إلى موطن أسلافه، ويمكنه الآن أن يموتَ في سلام.

رفعَ السيد بونز قَدَمَهُ اليسرى الخلفية، وأخذ يحكُّ ما وراء أذنه. رأى من مسافةٍ رجلًا وفتاة صغيرة يسيران ببطء في الاتّجاه المقابل، ولكنه لم يكترث لأمرهما. سوف يأتيان، وسوف يذهبان، ولا أهمّيّة لمَنْ يكونان. أخذت الأمطار تسقط الآن أشدّ، وهبّة ريح صغيرة شرعت تركل أمامها أغلفة الحلوى والأكياس الورقية المبعثرة في الشارع. تشمَّمَ الهواء مرّة، مرَّتَيْن، ثمّ تثاءب لغير ما سبب محدّد. وبعد لحظة، لفّ جسمه على الأرض إلى جوار ويلي، وأطلقَ زفيرًا عميقًا، ولبث ينتظر ما سيحدث بعد ذلك أيًا كان.

٢

لم يحدث شيء. لوقتٍ طويلٍ للغاية، بدا كما لو أنَّ الحَي كله قد توقّف عن التّنفّس. لا أحد يمشي، ولا سيّارات تمرّ، وما من شخصٍ واحد دخل بيتًا أو خرج منه. راحَ المطر ينهمر، كما توقّع السيد بونز تمامًا، لكنها أخذت تتراخى عندئذٍ، وتتحوَّل تدريجيًا إلى رذاذٍ مرّةً أخرى، وأخيرًا غادرت المشهد في هدوء. لم يُحرِّك ويلي عضلةً واحدة في أثناء قلاقل السماء تلك. رقدَ ممدّدًا بحذاء المبنى القرميدي كما كان من قبل، وعيناه مغمضتان وفمه مُنفَرِج قليلًا، ولولا الصرير الصدئ الذي ينبعث متقطّعًا من رئَتَيْه، لكان من الطبيعي أن يفترض السيد بونز أن سيّده قد تسلّل إلى العالم الآخَر.

كان ذلك هو المكان الذي يذهب إليه الناس بعد أن يموتوا. ما إن تنفصل روح المرء عن جسمه، يُدفَن جسمه في الأرض، وتنتقل روحه في لمح البصر إلى العالَم الآخر. كان ويلي يُكرّر العزف على هذه النغمة ذاتها على مدى الأسابيع العديدة الماضية، والآن لم يعد هناك أيّ شكّ في عقل الكلب بأن العالم الآخر كان مكانًا حقيقيًا. كان يُدعى تمبُكْتُو، ومن كل ما استطاع مِستر بون أن يستجمعه، فقد كان يقع في موضعٍ ما وسط الصحراء، بعيد للغاية عن نيويورك أو بالتيمور، بعيد عن بولندا أو أيّ مدينة أخرى مرّا بها في رحلاتهما. في لحظةٍ ما، وصفها ويلي بأنها "واحة الأرواح". وفي لحظةٍ أخرى، قال: "حيث تنتهي خريطة هذا العالَم تبدأ خريطة تمبُكْتُو." ومن أجل الوصول إلى هناك، يبدو أن على المرء أن يسيرَ

عبر مملكة هائلة من الرمال والحرارة، ملكوت العَدَم الأبدي. صُدمَ السيد بونز إذ شعرَ أنها الرحلة الأشدّ مشقّةً وألماً، لكن ويلي طَمْأَنَهُ بأن الأمر ليس كذلك، وأن عبور تلك المساحة كلها لا يقتضي أكثر من طرفة عين. وما إن يصبح المرءُ هناك، قالَ، ما إن يعبر حدود ذلك الملاذ، تنتهي عند ذلك حاجته للقلق بشأن ما يأكل من طعام أو النوم ليلاً أو إفراغ مثانته. يصير واحدًا مع الكَون، شَذرة من اللامادّة مُودَعة في عقل الله. وجدَ السيد بونز صعوبة في تخيُّل كيف تكون الحياة في مكانٍ مثل ذلك، لكن ويلي تحدّث عنه بكثيرٍ من الاشتياق، وكثيرٍ من وخزات الرّقّة، يتردّد رنينها في صوته، حتّى تخلّى الكلب في نهاية الأمر عن هواجسه. تِمْ-بُكْ-تُو. الآن، كان مُجرّد صوت الكلمة كافيًا ليجعله سعيدًا. هذا التوليف الفظّ من الحروف المتحرّكة والساكنة نادرًا ما أخفقَ في إثارة أعمق جوانب روحه، وكُلّما تدحرجت تلك المقاطع الصوتية الثلاثة على لسان سيّده، غسلتْ جسده كله موجةٌ من السَّكينة والغبطة – كما لو أن الكلمة وحدها كانت وعدًا، عهدًا مُبرمًا بأيّامٍ أفضل آتية.

لم يكن مهمًا مقدار الحرارة هناك، ولم يكن مهمًا أنه من شيء يُؤكَل أو يُشرَب أو يُشَمّ. فإذا كان ذلك المكان الذي سيذهب إليه ويلي، فهو المكان الذي أرادَ أن يذهب إليه هو أيضًا. عندما تحينُ لحظة افتراقه عن هذا العالَم، بدا له أن الصواب الوحيد أنه يجب أن يُسمَح له بالسَّكَن في العالم اللاحق بصحبة الشخص نفسه الذي أحبّه في العالم السابق. لا شكّ أن الحيوانات المفترسة لها تِمْبُكْتُو الخاصّة بها، غابات عملاقة حيث تكون حُرّة في التجوال دون تهديدٍ من الصائدين ذوي القَدَمَيْن وفخاخهم، لكنّ الأسود والنمور مختلفة عن الكلاب، وليس من المعقول أن يُلقى المُروَّض جنبًا إلى جنب غير المُروَّض في الحياة الأخرى. سوف يلتهمُ

القويُّ الضعيفَ، وفي غضونِ فترة وجيزة، سيهلك كل كلب في المكان، وينتقلون بالتالي إلى حياةٍ أخرى تالية، وراء وراء الما وراء، وماذا سيكون المغزى من ترتيب الأمور هكذا؟ إذا كان في العالم أيّ قدرٍ من العدل، وإذا كان لربّ الكلاب أيّ سُلطانٍ على ما يحدث لمخلوقاته، فإن أقرب صديقٍ للإنسان سيبقى إلى جانب الإنسان بعد أن ينتهي أمر كلّ من الإنسان المشار إليه وأقرب أصدقائه المشار إليه. بل الأمر أكثر من ذلك، ففي تِمْبُكْتُو سيكون بمقدور الكلاب أن تتحدّث لغة الإنسان، وأن تتحدّث إليه ندًا لندّ. ذلك ما أملاه المنطق، ولكنْ، من يدري إن كان للعدل أو المنطق أيّ تأثيرٍ على العالم الآخر أكثر ممّا كان لهما في هذا العالم؟! بطريقةٍ ما نسي ويلي أن يذكر هذه المسألة، ولأنّ اسم السيد بونز لم يُذكَر ولو مرّة، ولا مرّة واحدة في أحاديثهما جميعها عن تِمْبُكْتُو، فما زال الكلب في ريبةٍ وجهل بالمكان الذي سيتوجّه إليه بعد أن يقضي أجله. ماذا لو تبيّن أن تِمْبُكْتُو أحد تلك الأماكن ذات السجاجيد الفاخرة والتحف الثمينة؟ ماذا لو كانت محظورة على الحيوانات الأليفة؟ لم يبدُ هذا ممكنًا، ومع ذلك، فقد عاشَ السيد بونز حياة طويلة بما يكفي ليعرف أن أيّ شيء كان ممكنًا، وأن الأمور المستحيلة تحدث طيلة الوقت. فرُبّما كان هذا واحدًا منها، ووراء رُبّما تلك تكمن آلاف المخاوف والكروب، وكُلّما فكّر في هذا الاحتمال استولي عليه ذُعرٌ يفوق الخيال.

عندئذٍ، وبخلاف الاحتمالات كلها، عندما أوشك أن يسقطَ مجدّدًا بين يَدَي إحدى مخاوفه، بدأت السماء تسطع. توقّف المطر، ليس هذا وحسب، بل إن السحب المتراكمة بالأعلى أخذت تتفتّت، وتنزاح، وحيث كان كل شيءٍ منذ ساعةٍ واحدة فقط رماديًا كئيبًا، تلوّنت الآن السماء بخليطٍ متنافر من شرائط قرنفلية وصفراء، شَقّتْ سبيلها للأسفل، من جهة الغرب، وتقدّمتْ بثبات عبر امتداد المدينة.

telegram @ktabpdf

رفع السيد بونز رأسَهُ. وما هي إلّا لحظة واحدة، وكأنما الحدثان تربطهما معًا صلةٌ خَفيّة، وجدَ قناةً من نور، تنصبّ نحوه مائلةً خلال السُّحُب. ضربتْ أرض الرصيف غير بعيدةٍ إلا بوصة أو اثنَتَيْن من قَدَم الكلب اليُسرى، وعند ذاك، في الحال تقريبًا، حطَّ شعاعٌ آخر على يمينه تمامًا. صليبٌ من الضوء، والظلّ بدأ يرتسم أمامه على الطوار، وكم كان هذا يسرّ النظر، شعرَ بأنه عَطيّة صغيرة وغير مُنتظرة، أتتْ في أعقاب ذلك الأسى والألم كلَيْهما. ثمّ نظر للخلف نحو ويلي، وإذ كان يدير رأسَهُ بالضبط، انسكبَ ملءُ دلوٍ كبيرٍ من النور على وجه الشاعر، وكان الضوء حادًا للغاية في انكساره على جفنَي الرجل النائم، بحيث انفتحتْ عيناه رغمًا عنه – وها هو ويلي، الذي كان بين الفانين منذ لحظة، يقومُ عائدًا إلى أرض الأحياء، ينفضُ خيوطَ الموت، ويحاولُ أن يصحو.

سعلَ مرّة، ثمّ مرّةً أخرى، وثالثة قبل أن ينزلقَ في قبضة نوبةٍ طويلة. وقف السيد بونز جانبًا بلا حيلة، بينما كريات من البلغم تتطاير من فم سيّده. بعضها حطَّ على قميص ويلي، وأخرى على الطوار، وأخرى وهي الأضعف والأشدّ لزوجة، تقاطرتْ بضعفٍ من ذقنه. وبقيتْ هناك، تتدلّى من لحيته، كأنها شرائط "نودلز"، وإذا تواصلت النوبة، يقطعُها هزّات عنيفة وترنّحات وانحناءات حتّى مستوى الخصر، ظلَّتْ خيوط المخاط تتأرجح للوراء والأمام في رقصةٍ مقتضبة مجنونة. كان السيد بونز مصعوقًا إزاء شدّة الهجمة. مؤكّد أن هذه هي النهاية، حدّث نفسه، مؤكّد أن هذا هو أقصى ما يمكن لإنسانٍ احتماله. لكنَّ بعضًا من الجَلَد كان لا يزال مُتبقٍّ في ويلي، فما إن مَسَحَ وجهه بكُمّ سترته، ونجح في استعاده أنفاسه، فاجأ السيد بونز بابتسامةٍ عريضة وتكاد تشعّ بالسعادة. بمشقّةٍ بالغة، استطاع أن يُعدِّل نفسه، ليجلس في وضعٍ أكثر راحة، ساندًا ظهره على جدار المنزل، وفاردًا

ساقَيْه أمامه. وإذ استعاد سيِّدُه سكونَهُ مرّة أخرى، أحنى السيد بونز رأسَهُ، ودسَّها في فخذه اليمنى. وعندما مدَّ ويلي يده، وأخذ يربت فوق ذلك الرأس، عادتْ جرعة من الطمأنينة إلى القلب المفطور لهذا الكلب. كان شيئًا مؤقّتًا بلا شكّ، مُجرّد وَهْم، لكن هذا لم ينفِ أنه كان دواءً ناجعًا.

"أعرني أذنكَ، أيّها المواطن الهجين،" قال ويلي. "إنه يبدأ. الأشياء تنهار الآن. شيءٌ بعد الآخر ينهار ويتبدّد، ولا تتبقى إلّا الأشياء الغريبة، أشياء صغيرة مضتْ منذ زمنٍ بعيد، ليست الأشياء التي توقَّعتُها بالمرّة. ومع ذلك، لا أستطيع أن أقول إنني خائف. رُبمّا آسف قليلًا، مُستاء قليلًا، لأن عليَّ أن أمضي مبكّرًا هكذا، لكني لستُ مرعوبًا كما ظننتُ أنني قد أشعر. احزمْ أمتعتَكَ، يا صاحبي. لقد اقتربْنا من مفترق الطُّرُق، ولا يوجد خطٌ رجعة. هل تتابعُني، يا مِستر بون؟ هل أنتَ معي حتّى الآن؟

وكان السيد بونز يتابعه، وكان السيد بونز معه.

"وددتُ لو استطعتُ أن أُجْمِلَ لكَ الأمر في بضع كلماتٍ مُختارة،" واصل الرجل المحتضر، "لكنني لا أستطيع. عباراتٍ شِعرية حيوية، لآلئ حكمة موجزة، بولونيوس(*) يُلقي دُرَر وصاياه قبل الفراق. لا طاقةَ عندي لأفعلَ ذلك. لا تقترضِ المال، ولا تُقرضْهُ أبدًا؛ واطرقِ الحديدَ وهو ساخن. هناك فوضى عارمة في السندرة، يا بونزي، وسيكون عليكَ أن تتحمّلني بينما أثرثر وأستطرد. كأنَّ طبيعة الأمور عندي هي الارتباك والفوضى. حتّى في هذه اللحظة، بينما أدخل وادي ظلال الموت، تخوضُ أفكاري في أوحال ما مرَّ وما مَضى. وإليكَ المُعضلة، يا سنيور. هذه البلبلة كلها في رأسي،

(*) Polonius : اسم الوزير في مسرحية هاملت لشكسبير، وله نصائح شهيرة، وجّهها لابنه لايرتس قبل سَفره، وهي المُشار إليها غالبًا في النّصّ.

هذا الغبار والخردوات القديمة، وتلك الأشياء القديمة التي لا نفع فيها تفيض وتندلق من على الأرفف. والواقع، يا سيّدي، أن الحقيقة المحزنة أنني مِثل دُبٍّ، لكني لستُ صغيرَ العقل.

"وللتدليل على كلامي، أقدِّم لكَ عودة أوديلز، مُثبِّتِ الشَّعْر ماركة أوديلز. لقد اختفى ذلك الشيء من حياتي منذ أربعين سنة، والآن، وفي اليوم الأخير من حياتي، يعود فجأة. إنني أتوقُ للغوص في الأعماق، فأحصل على هذه السفاسف عديمة القيمة، هذه الومضة الدقيقة على شاشة الذاكرة. اعتادتْ أمّي أن تفرك شَعْري به عندما كنتُ محضَ شيءٍ ضئيل، مُجرّد مشروع صبي. كانوا يبيعونه في صالونات الحلاقة في الأنحاء، وكان يأتي في قارورة زجاجية شفّافة بهذا الحجم تقريبًا. كانت الفوّهة سوداء، على ما أظنّ، وعلى المُلصق صورة ولدٍ أحمق بابتسامة واسعة. مغفّل مثالي رزين ومعافى، بشَعْرٍ مُرتّب كأفضل ما يكون. لا خصلات نافرة عند ذلك الأبله، ولا تموّجات في مفرق شَعْر ذلك الغلام الجميل. كنتُ في الخامسة، أو السادسة من عمري، وفي كل صباح كانت أمّي تقوم بهذه المعالجة لشَعْري، على أملٍ منها أن أُشبه أخًا توأمًا لذلك الصبي. ما زلتُ أستطيع أن أسمع صوت بقبقة وقرقرة تلك المادّة اللزجة وهي تخرج من القارورة. كان سائلًا شفّافًا، مائلًا للبياض، ودَبِقَ الملمس. كأنه مَنيّ مُخفَّفٌ بالماء، رُبّما، ولكنْ، مَن يمكنه أن يتأكّد بخصوص تلك الأمور عندئذٍ؟ فلعلّهم كانوا يُصنِّعونه باستئجار مجموعة من الصبيان المراهقين، ليَقذفوا مَنيّهم في أحواض كبيرة. هكذا تُصنَع الثروات في بلدنا العظيم. أنْتِجْ ببنس، وبِعْ بدولار، واكتشفْ ما تبقّى بنفسكَ. وهكذا كانت أمّي البولندية تفرك مثبّت الشَّعْر أوديلز في فروة رأسي، وتُصفِّف خصلاتي العاصية بالمشط، ثمّ ترسلني إلى المدرسة وأنا أبدو مثل ذلك الصغير

المقرف على القارورة. كان عليَّ أن أصبحَ أميركيًا، ولو بقوّة الصَّمْغ، وهذا الشَّعْر كان يؤكّد انتمائي، وأن والديَّ مُطّلعان على أحدث الخراء.

"قبل أن تنهار وتبكي، يا صديقي، دعني أضيفَ أن ذلك الأوديلز كان تركيبة وَهْمية، احتيالًا. لم يكن يثبِّتُ الشَّعر إلا بقدر ما يلصقه لكي يخضع ويستكين. خلال الساعة الأولى، كان يبدو كما لو كان يؤدّي مهمّته، ولكنْ، بعد ذلك، وبينما يتقدّم النهار، كان اللصق يشتدّ صلابة، وشيئًا فشيئًا يتحوّل شَعْري إلى كتلة من الأسلاك اليابسة، المعالَجة بصَمغ الإيبوكسيد – كما لو أن هناك قلنسوة معدنية مُبتلّة، وقد أُحكمَ تثبيتها على رأسي. كان لَمسها يترك إحساسًا شديد الغَرابة، ولم أستطعْ أن أدعَهَا لحالها. حتّى عندما كانت يدي اليمنى تقبضُ على القلم الرصاص، مُحاولًا أن أتبيّن حاصل جمع اثنَيْن إلى ثلاثة، وحاصل طرح خمسة من ستّة، كانت يدي اليسرى تتجوّل بالأعلى، باتّجاه الشّمَال، تدوسُ وتجوسُ في أنحاء السّطح الدخيل لرأسي. وبمنتصف وقت الأصيل، يكون ذلك الأوديلز قد جفّ تمامًا، وخلا تمامًا من أيّ رطوبة، بحيث إن كل خُصلة رفيعة مُغلَّفة تصير أقربَ إلى سِلْكٍ من السهل تهشيمه. وقد كانت تلك هي اللحظة التي أنتظرها، إشارة بدء المشهد الأخير للمسرحية الهزلية. كنتُ أمدّ يدي إلى أصل كل خصلة رفيعة من شَعْري، واحدة بعد أخرى، لأصل إلى جذورها في فروة رأسي، ثمّ أقبضُ عليها بين إصبعَي الإبهام والأوسط، وأشدّ. ببطء. ببطء شديد، أُمرّر أظافيري بكامل طول الشَّعْر. آه. كانت مشاعر الرضا والإشباع هائلةً، لا يمكن حصرها. ذلك المسحوق كله يتطاير مِنّي! الرياح العاصفة، والعواصف الثلجية، ودوّامات البياض! لم تكن مهمّة سهلة، فلتعرف هذا، ولكنْ، قليلًا قليلًا كان كل أثر للأوديلز يختفي. ما كان مغزولًا يُنقَض وينحلّ، وإذ يحين موعد قَرْع الجرس الأخير، ويرسلنا المعلّم لبيوتنا،

كانت فروة رأسي تحتشد بوخزات السّعَادة. كان أمرًا جميلًا مثل الجِنس، يا صاحبي العجوز(*)، جميلاً مثل المخدّرات والمشروبات كلها التي صببتُها في أجهزة جسدي. في سنّ الخامسة، وكل يوم كان حفلة عربدة أخرى من إصلاح الذات. لا عَجَب أنني لم أُولِ انتباهًا في المدرسة، فقد كنتُ مستغرقًا بإمتاع نفسي بنفسي، منشغلًا تمامًا بهَدم خدعة الأوديلز.

"ولكنْ، كَفى. كفانا من هذا المَلَل. كفانا من هذا اللَّمَم(**). مُثبّت الشَّعْر ليس إلَّا رأس كتلة الجليد الغاطسة، وما إن أبدأ في نبش زبالة الطفولة هذه، فسوف نظلّ هُنا خلال السّتّة عشرة ساعة التالية. لا وقت لدينا لذلك، صحيح؟ لا لزيت الخروع، ولا لجُبن الإناء، ولا للعصيدة ذات الكُتل، ولا لعلكة بلاك جاك. كلنا كبرنا مع تلك النفايات، لكنها الآن اختفتْ، ألم تختفِ؟ ومَنْ يهتمّ بها على كل حال؟ ورق حائط، ذلك ما كانت. موسيقى في الخلفية. غبار رُوح العَصر(***) على أثاث العقل. بوسعي أن أستعيدَ إحدى وخمسين ألف جُزئية صغيرة، ولكنْ، ماذا بعد؟ فلن يقدّم هذا لكَ أو لي أقية فائدة واحدة. فاهم. هذا ما أسعى إليه، يا زميل. مفتاح حلّ اللغز، الوَصفة السّرّيّة بعد أربعة عقود وأكثر من التلمُّس في الظلام. ومع ذلك، تواصل هذه الأشياء كلها اعتراض طريقي. حتّى وأنا أتنفّس آخر أنفاسي، أجدني أختنقُ. فتات المعرفة التي بلا جدوى، الذكريات غير المرغوبة، زَغَب الهندباء المتطاير سُدىً. ذلك كله هَباءٌ وبُخار، يا بُنيَّ، نَفخة ريح. حياة وزمن آر. مَت. إليانور رجبي.

---

*) بالفرنسية في الأصل.

**) يلعب الكاتب بتشابه الحروف بين كلمَتَي tedium (المَلَل والضجر) وبين عبارة Te Deum وهي أغنيّة دينية، هذه هي عبارتها الأولى. وسوف يتواصل اللعب على التشابه والتقابل بين حروف ونطق الكلمات والأسماء على مدى الفقرة كاملة.

***) Zeitgeist – بالألمانية في الأصل.

رامبلستيلسكن(*) ومَن يريدُ أن يعرفهم؟ بيب بويز للإطارات وقطع الغيار، فريق الإخوة ريتز الكوميدي، روري كالهون. كابتن فيديو والفور توبس. الأخوات آندروز. ولايف ولوك، والفتاتان التوأم بوبسي. ولا نهاية لذلك، صحيح؟ هنري جيمس وجيسي جيمس وفرانك جيمس ووليام جيمس. جيمس جويس. جويس كاري. كاري جرانت. وأعطني عودًا لمزج المشروب، وخيطًا لتنظيف الأسنان، وعلكة دينتاين، وكعك دونتس مغموس بالعسل. إلغِ دانا آندروز وديكسي دوغان، ثمّ أضف دامون رينيون وشراب الدامون رُم، وصُبّ المزيد. انسَ بال مولز والشوبينج مولز، ملتون بيرل وبيرل آيفز، وصابون آيفوري وخلطة فطائر الخالة جيميما. لستُ بحاجةٍ لهم، صحيح؟ لا، لا أحتاجهم في المكان الذي سأذهب إليه، ومع ذلك، فها هُم، يزحفون في مسيرتهم عَبرَ عقلي مثل أشقّاء مفقودين منذ زمن بعيد. تلك هي المعرفة العملية الأمريكية من أجلكَ. إنها تواصل مهاجمتكَ، وفي كل دقيقة هناك قمامة جديدة لتطرد القمامة القديمة. يحسب المرء أننا سنكون فَهِمْنَا اللعبة الآن، وما عادت حِيَلُهُم تنطلي علينا، لكن الناس لا يمكنهم الاكتفاء منها. إنهم يهتفون طَربًا، يُلوّحون بالأعلام، يستأجرون الفِرَق الموسيقية السَّيَّارة. نعم، نعم، أشياء عجائبية، أشياء إعجازية، ماكينات تُدوِّخ الخيال، ولكنْ، دعنا لا ننسى، لا، دعنا لا ننسى أننا لسنا وحدنا في هذا العالم. فتلك المعرفة العملية لا تعرف حدودًا، وعندما تفكّر في السخاء الذي يتدفّق من وراء البحار، تهبط من فوق صهوة حصانكَ، وتعرف

(*) R. Mutt هو الاسم الذي وقّع به الفنّان مارسيل دو شامب على قطعة فنّيّة، هي نافورة صغيرة عامّة للشُّرب، وقد تعدّدت التأويلات بخصوص هذا الاسم، فمنها أنه يعني الفقر بالألمانية، لكنْ، لا شيء مؤكّد فيه. وإليانور رجبي أغنيّة لفريق البيتلز ورامبلستيلسكن شخصية في حكاية خرافية للأطفال، أمّا الأسماء الواردة بعد ذلك، فبعضها أسماء شركات أو فِرَق موسيقية، أو ماركات تجارية، أو شخصيات عامّة حقيقية، أو شخصيات مُتخيّلة في أعمالٍ فنّيّة، ولا يجمع بينها أيّ رابط سوى أنها شكّلت وجدان الراوي، وهو طفل، ويستدعي بعضها بعضًا بناءً على التداعي الحُرّ والتلاعب والتشابه الصوتي بالخصوص، كما يتّضح.

مكانكَ الحقيقي. ولا أقصد الأشياء الواضحة مثل الديك الرومي من تركيا أو الفلفل الحامي من تشيلي(*). أقصدُ أيضًا السراويل من فرنسا. أقصد الألم من إسبانيا، والأسَف من إيطاليا، والشيكات من تشيكوسلوفاكيا، وصوف الأغنام من اليونان. للوطنية دورها، لكنها عاطفة من الأفضل على المدى البعيد أن تبقى طَيّ الكتمان. نعم، نحن اليانكي قدَّمنا للعالم السّحَّاب "الزيبر" والقدّاحة "الزيبو"، فضلًا عن أغنية (زيب-آ-دي دو-داه) والممثّل زيبو ماركس، غير أننا مسؤولون أيضًا عن القنبلة الهيدورجينية وطوق الهولا هوب. وكل شيء متوازن تمامًا في نهاية الأمر، صحيح؟ فما أن تعتقد أنكَ السّيّد الأقوى تنتهي لأن تكون كلبًا تابعًا. ولا أقصدكَ أنتَ، يا السيد بونز. الكلب هُنا استعارة، إذا كنتَ تلتقط فحوى شرودي مع التيَّار، الكلب رمزٌ للمُضْطَهَد المظلوم، وأنتَ لستَ مجازًا، يا بُنيّ، أنتَ حقيقي بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

"لكنْ، لا تُسِئ فَهمي. ففي هذا العالم يوجد الكثير للغاية ممّا لا يسع المرء مقاومة ندائه. جاذبية التفاصيل، أقصد، إغراءات الشيء-في-حدّ-ذاته. لا بدَّ أن تكون أعمى حتّى لا تستسلم للغواية ولو مرَّة بين الحين والآخر. لا يهمّني ماذا قد يكون ذلك الشيء، فقط انتقِ شيئًا، وغالبًا ستكون الأدلّة لصالحه. خُذْ مثلًا ما في عَجَلَتَي درّاجةٍ هوائية من روعة. ما لهما من خفّة، وأناقةٍ عنكبوتية، وحوافّ الإطار المتلألئة والأسلاك الرقيقة كالخيوط. أو صوت غطاء بالوعة في الشارع يُجلجل تحت شاحنة في الثالثة صباحًا. هذا كله، ولم نقل شيئًا عن السبنادِكس(**)، والذي رُبّما يكون

---

*) ثمة تقابل لفظي وصوتي بين الأشياء وبلادها هنا وفي الأمثلة التالية مثل (chili from Chile أو fleece from Greece).

**) Spandex : هو الاسم التجاري الشائع لنسيج من ألياف صناعية شديدة المرونة وقابل للمطّ، يلتصق بجسم الإنسان، فيُبدي أدقّ تفاصيله.

قد ساهمَ في تجميل المناظر الطبيعية العامّة أكثر ممّا فعل أيّ اختراع منذ سِلْك الهاتف الممدود تحت الأرض. إنني أشيرُ إلى مشهد سروال السباندكس وهو ملتصق بمؤخّرة فتاةٍ شابّة، بينما تمرّ بكَ في الشارع وهي تسير بخطوات واسعة. هل عليَّ أن أذكر المزيد؟ لا بدَّ أن تكون ميتًا حتّى لا تشعر بالضعف أمام تلك الأشياء. إنها تندفع وتنقضّ عليكَ، وتواصل مَخض دماغكَ حتّى تذوب كلها، فتصير عُصارة زبدية كبيرة. فاسكو دا جاما في سرواله المنتفخ. فرانكلين روزفلت ومبسم سجائره. فولتير وشَعْره المستعار المكْسوّ بالبودرة. كيونيجوند! كيونيجوند![*] فكِّرْ فيما يحدث عندما تقوله. انظرْ ماذا تقول عندما تفكّر فيه. كارتوجرافي. بورنوجرافي. ستينوجرافي.[**] تأتأة بصوتٍ جهوري، مومسات أسقفيات، مصَّاصات شوكولات ورقائق مجمّدة. أعترفُ أنني قد أذعنتُ وخضعتُ لمفاتن تلك الأشياء كلها شأني شأن أيّ إنسانٍ عادي، لستُ أكثر حكمة من الغوغاء الذين احتكّ كتفي بأكتافهم طوال تلك السنين كلها. أنا إنسان، ألستُ كذلك؟ وإن جعلَ هذا منّي منافقًا، فليكن.

"أحيانًا، ليس عليكَ إلّا الانحناء في إجلال. يتوصَّل شخصٌ إلى فكرة لم تخطرْ ببال أحد من قبل، فكرة في غاية البساطة والكمال، بحيث تتعجَّب كيف استطاع العالَم أن يستمرّ من دونها. الحقيبة ذات العجلات، على سبيل المثال. كيف أمكن أن اقتضى ظهورها هذا الزمن كله؟ لثلاثين ألف عام، ظَلَلْنَا نحملُ أثقالنا معنا هنا وهناك، نشقى ونتصبّب عَرَقًا ونحن ننتقلُ من مكانٍ إلى آخر، ولا ننال شيئًا من هذا إلا التهاب العضلات،

---

*) Cunegonde: اسم شخصية نسائية رئيسة في مسرحية فولتير كانديد، وقد يكون الاسم مأخوذًا من إمبراطورة وقدّيسة رومانية قديمة.

**) على الترتيب: فنّ وعلم رسم الخرائط، الفنون الإباحية، الكتابة بالاختزال. (من جديد يلعب الراوي على صوت الكلمات، بصرف النظر عن معناها أو علاقاتها)

ومتاعب الظهر، والإنهاك. أقصد، أنّ الأمر لم يكن وكأننا لم تكن لدينا عجلات بعد، صحيح؟ ذلك ما يُحيِّرني. لماذا كان علينا أن ننتظر حتّى نهاية القرن العشرين لكي تخرج هذه الأداة إلى نور النهار؟ فإن لم يكن شيء آخر، يفكّر المرء بأن أحذية التزلّج ذات العجلات كان يمكن أن تُلهِمَ شخصًا ما بعقد الصلة، بأن يجمع اثنَيْنِ إلى اثنَيْن. ولكنْ، كلّا. تمرّ خمسون عامًا، تمرّ خمسة وسبعون عامًا، وما زال الناس يُجرجرون بمشقّة حقائبهم عبر المطارات ومحطّات القطار في كل مرّة يغادرون البيت لزيارة العمّة ريتا في مدينة بوكيبسي. أقول لكَ، يا صاحبي، إنَّ الأشياء ليست بسيطة كما تبدو. الروح الإنسانية أداةٌ بليدة، وكثيرًا ما لا نكون أفضل في رعاية أنفسنا من أحقر ديدان الأرض.

"مهما بلغَ بي الأمر في السابق، لم أسمح لنفسي قَطّ بأن أكون تلك الدودة. لقد وثبتُ، لقد ركضتُ، لقد ارتفعتُ مُحلّقًا، ومهما كان عدد المرّات التي سقطتُ فيها على الأرض محطّمًا، كنتُ دائمًا أنهضُ مُستجمِعًا نفسي لأحاول مرّةً أخرى. حتّى في هذه اللحظة، والظلام يزحف مخيّمًا عليَّ، ما زال عقلي صامدًا، ولن يرفع الراية البيضاء. التوستر(*)، يا رفيق. نزلتْ عليَّ في رؤيا منذ ليلَتَيْن أو ثلاث، ومنذ ذلك ورأسي صار ممتلئًا بالفكرة. لمَ لا يكون ما يحدث مكشوفًا للنَظَر، أن نكون قادرين على مراقبة الخبز وهو يتحوّل من اللون الأبيض إلى البنّيّ المذهَّب، أن نرى التحوّلات بأعيننا؟ أيّ جدوى نجنيها من أن نحبس الخبز، ونخفيه وراء ذلك الستانليس ستيل القبيح؟ إنني أتحدَّث عن زجاج شفّاف، واللفيفيات البرتقالية للتسخين تتوهَّج بالداخل. لهذا أن يكون آيةً من آيات الجمال، عملًا فنّيًا في كل مطبخ، نحتًا ضوئيًا ساطعًا، لنتأمّله، بينما نؤدّي العمل

*) التوستر: محمصة الخبز.

المتواضع لإعداد الفطور، وتقوية أنفسنا استعدادًا لليوم الذي ينتظرنا. زجاج شفّاف ومقاوم للحرارة. يمكننا أن نصبغه بالأزرق، نصبغه بالأخضر، نصبغه بأيّ لونٍ يروق لنا، وعندئذٍ، ومع اللون البرتقالي الذي يشعّ من الداخل، تخيّل التوليفات، فكِّرْ فقط في العجائب البصرية التي ستكون ممكنة. سوف يتحوّل تحميص الخبز إلى طقسٍ ديني، فيضٍ منبعث من عوالم أخرى، شكلاً من الصلاة. يا يسوع. كم أتمنّى لو أن أجد القوّة للعمل عليه الآن، أن أجلسَ وأرسم بعض التصميمات، أن أُحكمَ إبداع الشيء، وأنظر إى أين وصلنا به. ذلك ما حلمتُ به كله على الإطلاق، يا السيد بونز. أن أجعل العالَم مكانًا أفضل. أن أضفي بعض الجمال على الأركان الباهتة والرتيبة للروح. يمكن للمرء أن يفعل هذا بتوستر، يمكنه أن يفعل هذا بقصيدة، يمكنه أن يفعل هذا بمَدّ يد العون إلى غريب. لا يهمّ الشكل الذي يتّخذه الفعل. أن يتركَ العالم أفضل قليلاً ممّا وجده عليه. ذلك أفضل ما يمكن لإنسان فعله أبدًا.

"أوكي، اضحكْ منّي لو أردتَ. إن أتدفّق، فإنني أتدفّق، وذلك ما في الأمر كله. شعورٌ جيّد أن تترك شراب الصودا يفيض ويفور أحيانًا. أيجعلني هذا أحمق؟ رُبمّا. ولكن هذا أفضل لي من المرارة، أقول، أفضل لي أن أتبع دروس سانتا كلوز من أقضي حياتي بين مخالب الخديعة. طبعًا، أعرف فيمَ تفكّر. ليس عليكَ أن تنطق به. أستطيع أن أسمع الكلمات في رأسكَ، يا سيّدي(*)، ولن تجدَ عندي جدالاً. علامَ هذا التّخبّط؟، تسأل نفسكَ. علامَ هذا التّشتّت بين الوراء والأمام، هذا التّقلّب في التراب، هذا الزّحف طوال العمر نحو الفَنَاء؟ أحسنتَ بطرح تلك الأسئلة. لقد طرحتُها أنا نفسي مرّاتٍ عديدة، والإجابة الوحيدة التي توصّلتُ إليها هي

*) بالألمانية في الأصل.

التي لا تجيبُ عن شيء. لأنني أردتُ الأمر على هذا النحو. لأنني لم أكنْ أملك خيارًا آخر. لأنه لا توجد إجابات على مثل تلك الأسئلة.

"لا اعتذارات، إذنْ. لطالما كنتُ مخلوقًا له عيوبه، يا السيد بونز، رجلًا مفعمًا بالتناقضات والتنافرات، والانجذاب لدوافع أكثر من اللازم. من ناحية، نقاء القلب، الصلاح، مُعاوِن سانتا الوفي. ومن ناحيةٍ أخرى، مَهووسٌ ثرثار، عَدَمي، مُهرِّج ثمل. والشاعر؟ إنه يقع في موضعٍ ما بينهما، على ما أفترض، في الفاصل بين أفضلِ ما فيَّ وأسْوَئِه. ليس القدّيس، وليس السّكّير ذكي النكتة. إنه الرجل ذو الأصوات في رأسه، الذي يستطيعُ أحيانًا أن يُنصتَ إلى أحاديث الأحجار والأشجار، الذي يمكنه بين الحين والآخر أن يُحوِّل موسيقى السُّحب إلى كلمات. من المؤسف أنني ما عدتُ قادرًا على أن أكونه بعد ذلك. لكنني لم أذهبْ إلى إيطاليا قَطّ، وهي المكان الذي يُنتَج فيه الأسف، ومَنْ لا يستطيع دَفْع أجرة السفر، فما عليه إلا البقاء في بيته.

"ومع ذلك، فأنتَ لم ترني أبدًا، وأنا في أفضل حالاتي، يا سِير أوسو(*)، وكم أندم على ذلك. أندم على أنكَ عرفتَني فقط كرجل ينهار. كانت القصّة مختلفة آنذاك في الأيّام الخوالي، قبل أن تتبدّد جسارتي، وأواجه مشكلة... مشكلة المحرِّك هذه. لم أرغب قطّ أن أكون متشرّدًا. لم يكن هذا ما أنتويه لنفسي، لم يكن هذا ما حلمتُ به لمستقبلي. اختلاس الزجاجات الفارغة من صناديق إعادة التدوير لم يكن جزءًا من الخطّة. رَشّ المياه على زجاج واجهات السّيّارة لم يكن جزءًا من الخطّة. الركوع على ركبَتَيَّ أمام الكنائس، وإغماض عينيَّ، لكي أبدو مثل أحد شهداء المسيحية الأوائل، فيشفق

---

*) أوسو العظام بالإيطالية.

عليّ بعض العابرين، ويُسقط عملة بعشرة سنتات أو ربع دولار في راحة يدي – لا، يا سنيور بوتشيني، لا، لا، لا، لم يكن ذلك ما وُضعتُ على هذه الأرض لأفعله. لكن الإنسان لا يعيش بالكلمات وحدها. إنه يحتاج للخبز، وليس رغيفًا واحدًا، بل اثنَيْن. خبز للجيب، وخبز للفم(*). خبز لنشتري به الخبز، إن كنتَ تفهم مقصدي، وإن لم يكن لديكَ النوع الأوَّل، فما مِن شكّ أنكَ لن تنالَ النوع الثاني.

"كانت صدمة قاسية حينما تركتْنا السّتّ ماما. لن أُنكر ذلك، يا جروي الظريف، ولن أُنكر أنني جعلتُ الأزمة أشدّ سوءًا بالتنازل عن ذلك المال كله. قلتُ لا اعتذارات، لكنني أسحب كلمتي الآن، وأعتذر لكَ. لقد فعلتُ أمرًا متسرِّعًا وغبيًا، ولقد دفع كلانا الثمن. عشرة آلاف دولار ليست مُجرّد وجبة حبوب للإفطار على كل حال. تركتُها تتسلّل من بين أصابعي، وأنا أراقب المبلغ كله يتبدّد مع الرياح، والغريب أنني لم أكترثْ. لقد أسعدني أن أتصرّف مثل رجلٍ خطير الشأن، أن أتباهى بغنيمتي مثل مقامرٍ سخيف يجازف بكل ما لديه. السّيّد إيثار. السّيّد إي. ثار، هذا أنا، ألبرتو فيرسيو الأوحد والوحيد، الرجل الذي أخذ مال وثيقة تأمين الحياة الخاصّة بأمّه، وأفرغ كل نيكل منه. مائة دولار لبيني شابيرو. ثمانمائة دولار لديزي براكيت. أربعة آلاف دولار لصندوق دعم الهواء النظيف. ألفا دولار لمنظّمة هنري ستريت للأعمال الاجتماعية الخيرية. ألف وخمسمائة دولار لبرنامج شُعراء في المدارس. اختفت النقود سريعًا، صحيح؟ أسبوع، عشرة أيّام، وحينما رفعتُ نظري من جديد، كنتُ قد جرّدتُ نفسي من ميراثي كاملًا. آه، طبعًا. ما يأتي بسهولة يذهب بسهولة، كما يقول المثل القديم، ومَن أكون أنا لأظنَّ أنه كان بوسعي أن أخالفَ ذلك؟ في دمائي أن أكون جريئًا،

---

*) من معاني كلمة bread في الإنجليزية النقود.

أن أفعل ما لا يُقدِم عليه أيّ شخصٍ آخر. أنفقتُ المال، هذا ما فعلتُ. كانت فرصتي الوحيدة لأن أفعل أو أن أخرس، أن أُثبتَ لنفسي أنني كنتُ أعني ما ظَلَلْتُ أقوله طوال تلك السنوات كلها، وأنه عندما أتت الدراهم لم أتردّد. ركلتُ النقود. رُبّما أكون فشختُ نفسي في أثناء ذلك، ولكن ذلك لا يعني أنّ ما فعلته ذهب سُدى. الفخر يستحقّ التضحية، على كل حال، وعندما دقّتْ ساعة الحقيقة يسرّني أنني لم أتراجع. صعدتُ إلى طرف السفينة، قطعتُ الشوطَ لآخره، قفزتُ دون تفكير في وحوش البحر بالأسفل. أعرفُ مَن أكون، كما لم يقل البحّار الطيّب باباي، ولمرّةٍ واحدة في حياتي عرفتُ بالضبط ما كنتُ أفعل.

"من المؤسف للغاية أنه كان عليكَ أن تُعاني، بالطبع. من المؤسف للغاية أننا وصلنا إلى الحضيض. من المؤسف للغاية أننا فَقَدْنا مخبأنا الشتوي، وكان علينا أن نعولَ أنفسنا بسبلٍ لم نألفها من قبل. دفعنا ضريبةً فاحشة للمحنة، ألم ندفع؟ الأكل السيّئ، افتقار المأوى، قسوة العِيش. صرتُ أنا رجلًا مريضًا، وأنتَ على وشك أن تصير يتيمًا. بُنيّ، السيد بونز. لقد فعلتُ ما بوسعي، ولكنْ، أحيانًا يكون كل ما بوسع المرء غير كافٍ. لو أستطيع فقط أن أنهض على قَدَمَيَّ من جديد لبضع دقائق أخرى، رُبّما أكون قادرًا على الوصول لحلّ. أودعكَ في مكانٍ ما، وأُنهي المسائل المعلّقة. لكنّ هِمّتي تضمحلّ، والأشياء تتفكّك وتتداعى واحدًا بعد آخر. تحمّلْ معي، يا كلبي. سأستردّ نفسي مرّة أخرى. ما إن تمرّ حالة الانهيار هذه، سأجمع طاقتي كلها في محاولةٍ أخرى أخيرة. فقط لو مرّت. وإن لم تمرّ، فإنه أنا الذي سوف يمرّ، أليس كذلك(*)؟ لا أحتاجُ إلاّ وقتًا إضافيًا

---

*) بالفرنسية في الأصل.

قليلاً. بضع دقائق أخرى لألتقطَ أنفاسي. ثمّ سوف نرى. أو لا نرى. وإن لم نرَ، فلن يكونَ هناك شيء سوى الظلام. ظلام في كل موضع، بقدر ما يمكن للعين ألّا ترى. حتّى تحت البحر، في الأعماق شديدة الملوحة للّا شيء، حيث لا شيء موجود، ولن يوجد أبدًا. إلّا إيّاي. إلّا ما ليس-إيّاي. إلّا الأبدية."

سَكَتَ ويلي عن الحديث عندئذٍ، واليدُ التي كانت تفركُ أعلى رأس السيد بونز خلال الخمس وعشرين دقيقة السابقة تراختْ تدريجيًا، ثمّ توقّفتْ عن الحركة تمامًا. بالنسبة لحياته، افترضَ السيد بونز أن هذه كانت هي النهاية. كيف لا يعتقد ذلك بعد خاتمة كلماته المنطوقة للتّوّ؟ كيف لا يعتقد أنّ سيّده قد رحل واليدُ التي كانت تُمسّد جمجمته انزلقتْ عنه فجأة، وسقطتْ خامدة على الأرض؟ لم يجرؤ السيد بونز على أن يرفعَ بَصَرَهُ مُتطلّعًا. أبقى رأسه مزروعًا في فخذ ويلي اليُمنى، وانتظر، على أملٍ واهٍ، بأن يكون مخطئًا. كان الهواء أقلّ سكونًا ممّا ينبغي له، وكانت هناك أصواتٌ تنبعثُ من موضعٍ ما، وإذ راح يصارعُ ضباب أحزانه المتراكم ليُنصتَ بمزيد من الانتباه، أدركَ أن الأصوات تنبعثُ من سيّده. أكان هذا ممكنًا؟ تفقّد الكلبُ الأمرَ من جديد، دون استعدادٍ تامّ لأن يُصدِّق أذنَيْه، متأهّبًا للتعامل مع خيبة الأمل حتّى مع ازدياد يقينه. نعم، كان ويلي يتنفّس. كان الهواء لا يزال يدخل إلى رئَتَيْه، ويخرج منهما، لا يزال يدخل ويخرج من فمه، لا يزال يمضي متثاقلاً عبر الرقصة القديمة للشهيق والزفير، كان التّنفُّس أشدّ ضحالةً ممّا كان عليه منذ يوم أو اثنَيْن فقط، ولم يعد الآن أكثر من مُجرّد اختلاجٍ واهن، أو صفير خفيف كريشة يقتصر على الحَلق وأعلى الرئَتَيْن، فقد كان، على الرغم من ذلك، تنفّسًا، وحيثما كان تنفُّس كانت الحياة. سيّده لم يمتْ. لقد نامَ فجأة.

بعد ثانيَتَيْن فقط، كما لو كان ذلك لتأكيد دقّة ملاحظات السيد بونز، شرعَ ويلي يُصدرُ شَخيرًا.

كان الكلب مُحطّم الأعصاب عندئذٍ. ظلَّ قلبه يثبُ عَبرَ مائة طَوقٍ من الفزع واليأس، وعندما فهمَ أنه تمَّ إرجاء تنفيذ الحُكم، وأنّ ساعة الحساب قد تراجعتْ للوراء قليلًا، كادَ أن ينهار من فرط الإنهاك. كان ذلك كله أكثر ممّا يحتمل. عندما رأى سيّده يجلس على الأرض، ويسند ظهره على جدران البولاند، تعهّد لنفسه أن يبقى صاحيًا، أن يواصل الاعتناء به حتّى النهاية الأليمة. كان ذلك هو واجبه، مسؤوليّته الأساسية ككلب. الآن، بعد أن أنصتَ إلى الرثاء الأليف لشخير ويلي، لم يستطع أن يقاومَ إغراء إغماض عينَيْه. كان لهذا الصوت تأثير مهدّئ طاغٍ عليه. ففي كل ليلة على مدى سبع سنوات، لا ينجرف السيد بونز في النوم إلّا على أمواج تلك الموسيقى، والآن كانت تلك علامة أنَّ كل شيء في العالم كان على ما يرام، وأنه مهما كان مقدار ما يعانيه من جوعٍ أو بؤس في هذه اللحظة، فقد حان الوقت لأن يضع همومه جانبًا، وينزلق إلى أرض الأحلام. وكان هذا على وجه التحديد ما فعله السيد بونز، بعد بعض تعديلاتٍ طفيفة لوضع جسمه. أراح رأسه على بطن ويلي، وبحركةٍ لا إرادية، ارتفع ذراع ويلي في الهواء، ثمّ حَطّ ليستريح على ظهر الكلب، وراحَ الكلبُ في النوم.

كان ذلك حينما زاره المنام الذي رأى فيه ويلي وهو يموت. بدأ بهما، وهما الاثنان يسيران، بأعين مفتوحة، وقد نهضا من النوم الذي استسلما به توًا – أي النوم الذي كانا فيه الآن، النوم نفسه الذي كان يحلم فيه السيد بونز بمنامه هذا. لم تكن حالة ويلي أسوأ ممّا كانت عليه قبيل الإغفاءة. وإن كان ثمّة أيّ تغيير طرأ عليها، فقد بدا حاله أفضل قليلًا للغاية، بسبب

غفوته. وللمرّة الأولى منذ شهور عديدة، لم يسعلْ عندما نهضَ من النوم، ولم ينزلق في نوبةٍ أخرى، لم تستول عليه حالةٌ مروّعة من اللهاث، والاختناق، وطرد قطع البلغم التي يخالطها الدم. لقد تنحنح ببساطة، ليصفّي حنجرته، وبدأ يتكلّم من جديد، ملتقطًا طرف الخيط من الموضع نفسه تقريبًا الذي سَكَتَ عنده قبل قليل.

واصل حديثه لما بدا أنه ثلاثين أو أربعين دقيقة أخرى، مندفعًا في هذيان من جُملٍ نصف مكتملة وأفكارٍ مفكّكة. سَبَحَ صاعدًا مِن قاع البحر، وأخذ نَفَسًا عميقًا، وشرعَ يتكلّم عن أمّه. وضعَ قائمةً بفضائل السّتّ ماما، ووازنها بقائمةٍ بنقائصها، ثمّ التمسَ غفرانها له على أي معاناة رُبّما يكون سببًا فيها. قبل أن ينتقل إلى الموضوع التالي، تذكّر موهبتها في إفساد النكات التي تُلقيها، وراح يزوِّد السيد بونز في وَلع بأمثلة على براعتها التي لا تُخطئ في نسيان المفارقة اللاذعة للنكتة في اللحظة الأخيرة. ثمّ راح يتلو قائمةً أخرى – هذه المرّة للنساء جميعهنّ اللاتي نام معهنّ ذات مرّة (مزوّدة بأوصاف ماديّة) – وأتبعَ ذلك بهجاءٍ مطوّل لمخاطر النزعة الاستهلاكية. ثمّ، فجأة، راح يُلقي أطروحةً حول المزايا الأخلاقية لحياة التّشرّد، والتي انتهت بتقديم اعتذار مُخلص لمِستر بونز، لأنه جرجره وراءه إلى بالتيمور، حيث اتّضح أنهما يتطاردان شبحًا لا وجود له. قال: "نسيتُ أن أضيف حرف "G"، لم آتِ من أجل بيا سوانسون؛ بل أتيتُ لأغنّي أغنيّة البجعة الأخيرة"(*) وبعد ذلك فورًا أخذ يتلو قصيدةً جديدة، مناجاة لذلك الخالق الجبّار الخفي الذي كان على وشك أن يطالب بروحه. وكان من الواضح أنه يطرحها ارتجالًا من أعلى رأسه، وكان المقطع الافتتاحي لها شيئًا من قبيل هذا:

---

*) عند إضافة حرف g إلى اسم Swanson تصير Swansong أي أغنيّة البجعة، وتعني أجمل وآخر صيحات البجعة التي تُطلقها عند موتها.

يا سيّد العشرة آلاف تنّورٍ متّقد وزنزانة مظلمة،
يا سيّد المطرقة الساحقة والنظرة الصلبة كالزّرَد،
أيّها السّيّد القاتم لمناجم الملح والأهرامات،
يا مايسترو كثبان الرمل والأسماك الطائرة،
استمعْ إلى ثرثرة خادمكَ الفقير،
الذي يموت على شواطئ بالتيمور
متوجّهًا صوب الماوراء العظيم...

بعد أن تقاطرتْ سطور القصيدة حتّى النهاية، حلَّ محلّها المزيد من المراثي والنغمات السريعة المتعاقبة، المزيد من الرّشّاش اللغوي غير المتوقَّع حول أيّ عددٍ من الموضوعات: سيمفونية الروائح، ولماذا أخفقت التجربة، هابي فيلتون ونوتهول جانج(*) (مَن كان هذا بحقّ الجحيم؟)، وحقيقة أنَّ اليابانيّيْن أكلوا أرزًا زُرِعَ في أمريكا أكثر ممّا زُرِعَ في اليابان. ومِن هناك انجرفَ إلى محطّات ازدهار مسيرته الأدبية وانهيارها، متمرّغًا لعدّة دقائق في مُستنقع الأحزان المكبوحة، والإشفاق السقيم على الذات، ثمّ رفعَ من معنويات نفسه لوهلةٍ بحديثه عن شريكه في السَّكَن أيّام الكُلّيّة (الشخص نفسه الذي أخذه إلى المستشفى في عام ١٩٦٨) – رجل يُدعى آنستر، أومستر، شيء من هذا القبيل – والذي واصل الكتابة ونشر بضعة كُتُب متوسّطة القيمة، وقد وعدَ ويلي ذات مرّة بأن يجد له ناشرًا لقصائده، ولكنْ، بالتأكيد لم يرسل له ويلي المخطوط أبدًا، وانتهى الأمر على ذلك، ولكنه أثبتَ أنه كان بوسعه أن ينشر أعماله لو أراد – لم يرغبْ وحسب، وذلك كل ما في الأمر، ومَن يهتمّ بذلك الخراء والهراء المتغطرس

*) هابي فيلتون Happy Felton، اسم مُقدِّم برنامج تيلفزيوني أمريكي قديم بعنوان "Knothole Gang" عن رياضة البايسبول.

على أيّ حال؟ كان الفِعل في ذاته هو ما يهمّ، وليس ما تفعله به بعد أن يكون قد تمّ، وبقدر ما كان يكترث الآن، فحتّى تلك الدفاتر المودَعة في خزانة بمحطّة جرايهوند لم تكن قيمتها تتجاوز ضَرطة أو عُلبة فاصوليا نفدت محتوياتها. فلتحترق، هذا أقصى انشغاله بها، فلتُلقَ في القمامة، فلتُطرَح في حمّامات الرجال، لكي يمسح بها المسافرون المُجهَدُون مؤخّراتهم. ما كان عليه أبدًا أن يحملها معه إلى بالتيمور في المقام الأوّل. لحظة ضَعف، هكذا كان الأمر، تحرّك الانتفاضة الأخيرة في اللعبة الخسيسة للأنا – اللعبة الوحيدة التي يخرج منها الكل خاسرًا، ولا أحد يستطيع الفوز فيها أبدًا. توقّف لبضع لحظات بعد ذلك، متعجّبًا من عمق مرارته، ثمّ أطلق ضحكةً طويلةً ذات صفير، ساخرًا في شجاعةٍ من نفسه، ومن العالم الذي أحبّه كثيرًا. ومِن هناك عادَ مجدّدًا إلى أومستر، واندفع في سرد قصّة رواها له صديقه منذ سنواتٍ عديدة عن لقائه بكلب من نوع ساتر إنجليزي في إيطاليا، كان يمكنه أن يكتب جملًا على آلة كاتبة مُصمّمة خصيصًا للكلاب. ودون أسبابٍ معقولة، أجهشَ ويلي بالدموع بعد ذلك، ثمّ بدأ يوبّخ نفسه لأنه لم يعلّم السيد بونز أبدًا القراءة. كيف أمكنه أن يُهمِل الاهتمام بأمرٍ جوهري مثل ذلك؟ والآن والكلب على وشك أن يمضي معتمدًا على نفسه، سيكون بحاجة إلى كل ميزة متاحة له، ولقد خذلَهُ ويلي، ولم يفعل شيئًا ليُسلِّحه به في وضعه الجديد، تاركًا إيّاه بلا نقود، ولا طعام، ولا وسائل ليستطيع النجاة من المخاطر التي تتهدّده. كان لسانُ الشّاعر عندئذٍ ينطلق بسرعة ميل في الدقيقة الواحدة، لكنّ السيد بونز لم يضيّع الفرصة، ولم يفته شيء، كان بوسعه أن يسمع كلمات ويلي بقدر الوضوح نفسه الذي كان يسمعها به في الحياة. ذلك ما كان غريبًا للغاية بشأن الحُلم. لم يكن هناك أيّ تشوّش، لا تداخل في الموجات، لا انتقال

مفاجئ بين القنوات. كان مثل الحياة تمامًا، ورغم أنه كان نائمًا، ورغم أنه كان يسمع الكلمات في الحُلم، فقد كان يقظًا في الحُلم، وهكذا فكُلّما واصل النوم شعرَ بأنه أشدّ يقظة.

في منتصف تأمّلات ويلي حول مهارات القراءة لدى الكلاب، توقّفت سيّارة شرطة أمام منزل بُو، وترجّل منها رجلان ضخمان بلباسهما الموحّد. أحدهما كان أبيض والآخر أسود، وكلاهما كانا يتعرّقان في حرارة أغسطس، شُرطيّان عريضا الأفخاذ في دورية يوم الأحد، يحملان أدوات القانون حول خصرَيْهما: المسدّسات وأصفاد الأيدي، الهراوات وجراب السلاح، كشّافات اليد والرصاص. لم يكن هناك متّسع من الوقت لإجراء جرد شامل، فما إن خرج الرجلان من السّيّارة حتّى شرعَ أحدهما يسير متّجهًا نحو ويلي ("لا يمكنكَ البقاء هناك، يا رجل. هل ستتحرّك أم ماذا؟")، وفي اللحظة ذاتها، استدار ويلي، ونظرَ مباشرةً في عينَي صديقه، وقال، "اركضْ، يا بونزي. لا تدعْهما يمسكان بكَ"، ولأن السيد بونز كان يعلم أن الأمر جادّ، وأن اللحظة المرهوبة قد داهمتْهما فجأة، لعقَ وجه ويلي، وتأوّه بوداعٍ مُوجز، بينما ربّت سيّده على رأسه لآخر مرّة، ثمّ انطلق، راكضًا على طول شارع نورث أميتي بأقصى سُرعة، سمحتْ بها أقدامه. سمعَ الصوتَ المنذر لأحد الشرطيَّيْن يصيح من خلفه ("فرانك، الحقْ بالكلب! هاتِ ذلك الكلب المنيوك، يا فرانك!")، لكنه لم يتوقّف حتّى بلغ الناصية، على مسافة ثمانين أو تسعين قَدَمًا من المنزل. وعندئذٍ، كان فرانك قد تخلّى بالفعل عن فكرة ملاحقته. وإذ التفت السيد بونز ليرى ماذا يحدث لويلي، رأى الشرطي الأبيض يعود متوانيًا نحو المنزل. وبعد لحظة، بتحريضٍ من الشرطي الآخر، الذي كان منحنيًا فوق ويلي وهو يشير بيده في حدّة، سارَ بهمّة، لينضمّ إلى شريكه. لم يعد الكلب يشغل اهتمام أحد. كان

هناك رجلٌ محتضر يجب الاهتمام به، وطالما احتفظ السيد بونز بمسافةٍ آمنة منهما، فلن يصيبه أيّ مكروه.

وهكذا توقّف لدى المنعطف وراقبَ، وهو يلهث لهاثًا ثقيلًا بعد نوبة ركضه القصيرة، والريح تقرع كل جزءٍ منه. شعرَ بحافزٍ حارق أن يفتح فمه وينبح، أن يُطلقَ إحدى نوبات عوائه المظلمة المجمّدة للدماء في العروق، لكنه كبح رغبته، وهو مدركٌ تمامًا أن هذا ليس وقت التنفيس عن أحزانه. في البعيد، رأى الشرطي الأسود يقف بجانب السّيّارة، ويتحدّث في جهاز إرسال واستقبال لاسلكي. ملأ الشارعَ الخاوي جوابٌ مكتوم، يكتنفه التّشوّش. تحدّث الشرطي من جديد، وتلا ذلك هَبَّاتٌ من كلمات، لا سبيل لفَهْمها، دفعة أخرى من الجلبة واللغو الملغز. انفتح باب على الناحية الأخرى من الشارع، وخرج شخصٌ ما ليرى ماذا كان يحدث. امرأة في ثوب منزلي واسع أصفر ورأسها مكتظٌ بالبَكَر الزهري. وبزغَ طفلان من منزلٍ آخر. صبي يبدو في التاسعة من عمره تقريبًا، وبنت تبدو في السادسة، كان كلاهما يلبسان السراويل القصيرة وحافيان. في أثناء ذلك، كان ويلي غير مَرئي، ما زال راقدًا حيث تركه السيد بونز، محجوبًا عن الرؤية بجسد الشرطي الأبيض الضخم العريض. مرّت دقيقة أو اثنتان، ثمّ دقيقة أخرى أو اثنتان، وعندئذٍ سمعَ السيد بونز صوتًا خافتًا من بعيد، لصفّارة إنذار تقترب شيئًا فشيئًا. وعندما بلغت سيّارة الإسعاف البيضاء شارع نورث أميتي، وتوقفّت قبالة المنزل، كان حشدٌ من حفنة أشخاصٍ قد تجمّع، ووقفوا هنا وهناك وأيديهم في جيوبهم أو بأذرعٍ معقودة على صدورهم. قفز مُسعفان من مؤخّرة سيّارة الإسعاف، وجرّا نقّالة على عجلات نحو المنزل، وعادا بعد لحظة وقد تمدّد ويلي على متنها. كان من العسير رؤية الكثير، كان من العسير أن يعرف ما إذا كان سيّده حيًا أم لا. فكّر السيد بونز

في الرجوع سريعًا مِن أجل نظرة أخيرة، ولكنه تردّد باتّخاذ هذه المجازفة، وعندما استقرّ عزمه على أن يفعل ذلك، كان المُسعفان قد انتهيا من رَفع ويلي على النقّالة إلى داخل سيّارة الإسعاف، ثمّ أغلقا بابها بشدّة.

حتّى تلك اللحظة، كان الحلم لا يختلف بالمرّة عن الواقع. كلمةً بكلمة، إيماءةً بإيماءة، كل حدث كان نقلًا دقيقًا وأمينًا للأحداث كما جرت في العالَم. الآن، بينما تبتعد سيّارة الإسعاف، ويعود الناس إلى منازلهم، شَعَرَ السيد بونز بنفسه ينقسم اثنَيْن. نصفه بقي لدى المنعطف، كلبًا يتأمّل مستقبله البائس المُبهَم، ونصفه الآخر تحوّل إلى ذُبابة. وأخذًا بالاعتبار الطبيعة الخاصّة بالأحلام، رُبّما لم يكن هناك شيءٌ مُستغرَب في ذلك. كلنا نتحوّل إلى كائناتٍ أخرى في أثناء نومنا، ومِستر بونز ليس استثناءً في هذا. في وقتٍ أو آخر، كان قد دخلَ تحت جلد حصان، وبقرة، وخنزير، فضلًا عن كلابٍ مختلفة كثيرة، ولكنْ، حتّى راوده هذا المنام في ذلك اليوم، لم يسبق له قَطّ أن كان كائنَيْن في الوقت نفسه.

كان ثمّة مهمّة عاجلة لا بدّ من الاعتناء بها، وكان النصف الذبابة فقط هو ما يمكنه ذلك. وهكذا، بينما ظلَّ النصف الكلب منه منتظرًا عند المنعطف، حلّقت الذبابة في الهواء، وطارت على مدى كُتلة المباني، في مطاردة لسيّارة الإسعاف بأسرع ما استطاع جناحاها أن يحملاها. لأنه كان حُلمًا، ولأن الذبابة يمكنها أن تطير أسرع من أيّ ذبابة حقيقية، لم تكن بحاجةٍ إلى وقتٍ طويل حتّى تبلغ هدفَها. فحينما انعطفت سيّارة الإسعاف عند ناصية الشارع التالي، كانت قد ثبّتتْ نفسها في مقبض الباب الخلفي، وبهذه الطريقة، رافقت ويلي في رحلته إلى المستشفى، وأقدامه الستّ متشبّثة بالسطح الصدئ قليلًا للمقبض على الجانب المَحمي من الريح،

متوسّلةً لله ألّا تنتزعَها الرياح، وتُطيّرها بعيدًا. تبيّن أنها رحلة عنيفة، بكل ما فيها من ارتطاماتٍ، بسبب نُقر الطريق والميلان جانبًا، والتّوقّف فجأة، ثمّ الانطلاق فجأة والهواء يتدفّق عليها من الاتّجاهات كلها، ولكنها نجحتْ في أن تظلّ صامدة، وعندما توقّفتْ سيّارة الإسعاف قبالة مدخل طوارئ المستشفى بعد ثماني أو تسع دقائق، كانت لا تزال رابطة الجأش. وثبت بعيدًا عن المقبض في اللحظة ذاتها التي مَدّ فيها أحد المُسعفين يده، ليُمسك به، وعندئذٍ، بينما فتحَ الباب، وتمّ سحب ويلي على النقّالة، أخذت تحوم فوق المشهد على مسافة ياردة أو نحوها، نُقطة دقيقة غير مَرئية، تطلّ للأسفل نحو وجه سيّدها. في البداية، لم تستطع أن تعرف إن كان ويلي حيًا أم ميّتًا، ولكنْ، ما إن تم إخراج المحفّة، واستقرّت عجلاتها على الأرض، فتح ابنُ السّيّدة جيوروفيتش عينَيْه. ليس بقدرٍ كبير، رُبّما، فقط شِقّ، يسمح بمرور بعض الضوء، وبأن يرى ما كان يحدث. ولكنْ، حتّى نصف الإغماضة تلك كانت كافية لأن يفوّت قلب الذبابة إحدى نبضاته. غمغم ويلي: "بيا سوانسُن. ثلاثة – ستّة عشر كالفيرت. لا بدّ تتّصلوا بها. حالًا. لا بدّ تعطونها المفتاح. مفتاح بيا. حياة أو موت. مسألة."

قال أحد المسعفيْن: "لا تقلقْ، سنهتمّ بذلك. ولكنْ، لا تتحدّث الآن، ادَّخِرْ قواكَ، يا ويلي."

ويلي. معنى ذلك أنه تحدّث إليهم بما يكفي ليعرفوا اسمه، وإذا كان قد تحدّث في سيّارة الإسعاف، فرُبّما لم تكن حالته بالسوء الذي بدت عليه، وهو ما كان يعني بدوره أنه رُبّما إذا تلقّى الأدوية الصحيحة والرعاية اللائقة، فسوف يستردّ قواه في نهاية الأمر. أو هكذا توهّمت الذبابة في حُلم السيد بونز، الذبابة التي كانت في الحقيقة هي السيد بونز نفسه، ولأن

كان شاهدًا منحازًا على الوقائع، فلا بدَّ ألَّا نضنّ عليه بسلوى آمال اللحظة الأخيرة، حتّى ولو يتبقّ أدنى أثر للأمل. ولكنْ، ماذا عسى أن يعلم الذباب؟ وماذا عسى أن يعلم الكلاب؟ وبهذا الخصوص، ماذا عسى الإنسان أيضًا أن يعلم؟ كان الأمر كله بين يَدَي الله في هذه اللحظة، والحقيقة أن الأمور قد بلغتْ نقطة اللاعودة.

ورغم ذلك، ففي خلال السبع عشرة ساعة التي تبقّتْ، جرى عددٌ من الأمور الخارقة. وقد رأت الذبابة كلّ أمرٍ منها، وهي تنظر للأسفل من موقعها في السقف أعلى الفراش رَقْم ٢٤ في عنبر المعوزين بمستشفى سيّدتنا سيّدة الأحزان، وإن لم تكن الذبابة هناك بنفسها في ذلك اليوم من شهر أغسطس عام ١٩٩٣ لتراها بعينَيْها، فرُبّما ما كانت تُصدِّق أن مثل تلك الأمور ممكنة. بادئ ذي بدء، تمّ العثور على السّيّدة سوانسُن. وفي غضون ثلاث ساعات من دخول ويلي المستشفى، كانت معلّمته القديمة تقطع ممرّ العنبر بين الغرف، وقدّمت لها الأخت ماري تيريزا مقعدًا، وهي مشرفة فريق العمل في الدوام الممتدّ من الرابعة بعد الظهر وحتّى انتصاف الليل، ومنذ تلك اللحظة وحتّى فارقَ ويلي هذا العالم، لم تبتعدْ ولو مرّة واحدة عن جوار تلميذها. ثانيًا، وبعد ساعاتٍ عديدة من الحقن الوريدي والجرعات الكبيرة المتواصلة بالمضادّات الحيوية والأدرينالين، بدا عقلُ ويلي صافيًا على نحوٍ ما، وأمضى صباحه الأخير من الحياة في حالةٍ عاديةٍ من الانتباه والسكينة مثل أيّ وقتٍ سابق له، يستطيع مِستر ويلي أن يتذكّره. وثالث تلك الأمور أنّه مات من دون ألم. لا تشنّجات، ولا اضطرابات، ولا نيران جائحة في صدره. انزلقَ بعيدًا ببطء، منسحبًا من هذ العالم بمقادير صغيرة حدّ أنها لا تكاد تُلحَظ، وفي النهاية بدا كما لو كان قطرةً من ماء تتبخّر في الشمس، ينكمش وينكمش، إلى أن لم يعدْ موجودًا في النهاية.

لم ترَ الذبابة فعليًا المفتاح بينما ينتقل من يدٍ إلى يد. لعلَّ هذا حدث في لحظةِ شردَ فيها انتباهها لبرهةٍ وجيزة، ولكنْ، من ناحية أخرى، قد يكون ويلي قد نسي أن يذكر الأمر. ففي ذلك الحين، بدا الأمر ليس بالغَ الأهمّيّة. ما إن دخلتْ بيا سوانسُن الغرفة حتّى كان هناك الكثير للغاية من الأشياء للتفكير فيها، الكثير للغاية من الكلمات لتتبّع المشاعر واستيعابها، بحيث صار بالكاد يتذكّر ما اسمه، هذا كله إلى جانب خطّة ويلي غير المحكمة لإنقاذ أرشيفه الأدبي.

لقد ابيضَّ شَعْرها، وزاد وزنها ثلاثين رطلًا، ولكنْ، ما إن وقعتْ عينا الذبابة عليها حتّى أدركتْ مَن كانت. من الناحية الجسمانية، لم يكن هناك أيّ شيء قد يُميّزها عن مليون امرأة أخرى في سنّها نفسه. كانت مُرتدية سروالاً قصيراً بخطوط متقاطعة زرقاء وصفراء، وبلوزة بيضاء منتفخة، وقد انتعلتْ صندلًا جلديًا، بدتْ كأنها قد توقّفتْ عن الانشغال بمظهرها منذ زمنٍ طويل. ازدادتْ بدانة ذراعَيْها وساقَيْها، وصارتْ أشدّ وضوحًا مع مرور السنوات، وإذا أضفتَ الدمامل في ركبَتَيْها المنتفخَتَيْن والدوالي المتورّمة في باطن ساقَيْها، واللحم المتدلّي من ساعدَيْها، يمكنكَ بسهولة أن تظنَّها إحدى السّيّدات لاعبات الجولف في منتجعٍ فاخر مخصّص لكبار السّنّ، امرأة عجوز لا يشغلها شيءٌ أفضل من التجوّل في الجزء الخلفي من ملعب الجولف بالعربة الكهربائية الصغيرة، والقلق يساورها إن كانت سوف تتمكّن من أن تغادر على عجل، في الموعد الملائم للّحاق بوجبة العَشَاء المبكّرة. لكنّ بشرة هذه المرأة كانت بيضاء، لم تُسفعها الشمس بالسُّمرة، وبدلًا من نظّارات الشمس كانت تضع نظّارات ذات إطارٍ معدنيّ، وتوحي بالجدّيّة التّامّة. علاوةً على ذلك، ما إن تطلّ عبرَ هاتَيْن العَدَسَتَيْن الطّبّيّتَيْن، سوف تكتشف عينَيْن، لهما أروع درجة زُرقة على الإطلاق. فلتنظر إلى هاتَيْن

العينَيْن، وستجد نفسكَ حبيسًا في شَرَكها. سوف يُثبّتانكَ بما فيهما من دفء وحيوية، وبذكائهما ويقظتهما، وبأعماق صمتهما الاسكندنافي. كانت هاتان هما العينَيْن اللتَيْن أُغرمَ بهما ويلي وهو صبيّ، والآن فهمتِ الذبابةُ السّرَّ وراء تلك الجلبة كلها. انسَ الشَّعْر المقصوص والساقَيْن الممتلئَتَيْن والثياب الرتيبة. لم تكن السّيّدة سوانسُن مُجرّد أرملة ومدرّسة. كانت ربّة الحكمة، وما إن تُغرَم بها، فسوف تظلّ عالقًا في حبها حتّى توافيكَ المَنيّة.

كما لم تكن تلك اللقمة السائغة التي توقَّع السيد بونز أن تكون. فبعد أن استمعَ إلى ويلي يتحدَّث عن طِيبة السّيّدة سوانسُن وكَرمها طوال الطريق إلى بالتيمور، تخيَّلها امرأة جيَّاشة العاطفة رقيقة القلب، واحدة مِن تلك النساء اللاتي يَسهُل أن ينخرطنَ في نوبات حماسة مفاجئة وغامرة، اللاتي ينهرنَ وينخرطنَ في البكاء على أهون سَبَب، ويُهرعنَ في همّة لترتيب الأشياء، وإعادتها لمواضعها، بمُجرّد أن يغادرَ الزّوّار مقاعدهم. لم تكن السّيّدة سوانسُن الحقيقية أيّ شيءٍ مِن هذا. أو لنقل، إن السّيّدة سوانسُن التي كانت في حلمه لم تكن أيّ شيءٍ مِن هذا. عندما اقتربتْ مِن فِراش ويلي، ونظرتْ نحو وجه تلميذها السابق لأوّل مرّة خلال ثلاثين عامًا تقريبًا، اندهشتِ الذبابة من مِقدار صلابتها ووضوح ردّ فعلها. "يا يسوع المسيح،"، قالت. "وليام، لا شكّ أنكَ خرَّبتَ أمورَكَ كلها، أليس كذلك؟".

"أخشى أنّه كذلك،" قال ويلي. "أنا ما يُطلَق عليه فاشل من الدرجة الأولى، ملك ملوك اللا-أدرية."

"على الأقلّ، كنتَ تدري بما يكفي لكي تتواصلَ معي،" قالت السّيّدة سوانسُن، وهي تجلس في مقعدٍ، قدّمتْهُ لها الأخت ماري تريزا، ثمّ تناولتْ

يد وليان. "رُبّما لم يكن التوقيت جيّدًا جدًا، ولكنْ، أن تصل متأخّرًا خير من ألا تصل أبدًا، هه؟".

بدأتِ الدموع تترقرق في عينَيْ ويلي، ولمرّة واحدة في حياته لم يكن قادرًا على التّحدّث.

"لطالما كانت أحوالكَ غير مستقرّة، يا وليام،"، واصلت السّيّدة سوانسُن، "لذلك لا أستطيع حقًا أن أزعم أنني فُوجئتُ. أنا واثقة أنكَ فعلتَ أقصى ما استطعتَ. ولكننا نتحدّث عن موادّ سريعة الاشتعال هَا هُنا، صحيح؟ كنتَ تتحرّك هنا وهناك مُحمَّلًا بمادّة النيتروغليسرين في مخّكَ، وعاجلًا أو آجلًا كنتَ ستصطدم بشيءٍ ما. وفي الواقع، من العجيب أنكَ لم تفجِّرْ نفسكَ منذ فترة طويلة."

أجابَ ويلي، بما لا يتّفق مع أيّ سياقٍ لحديثها: "لقد أتيتُ سائرًا طوال الطريق من نيويورك، أميال أكثر ممّا يجب، ووقودٌ في المعدة أقلّ ممّا يجب. أوشك هذا أن يقضي عليَّ. ولكنْ، بما أني الآن هُنا، يسرّني أن أتيتُ."

"لا بدَّ أنكَ مُجهَد."

"أشعرُ كأني جوربٌ قديم. ولكنْ، على الأقلّ، يمكنني أن أموتَ الآن راضيًا."

"لا تقلْ ذلك الكلام. سوف يُصلحون أعطابكَ، ويجعلونكَ أحسن. وسوف ترى، يا وليام. في غضون أسبوعَيْن تقريبًا ستكون في حالة طيّبة، وكأنكَ عدتَ جديدًا بلا شائبة."

مكتبة

"أكيد طبعًا، وفي العام التالي، سأترشّح للرئاسة."

"لا يمكنكَ هذا، لأنَّ عندكَ وظيفة بالفعل."

"ليس بالمعنى الفعلي. أنا تقريبًا عاطل في الوقت الراهن. في الحقيقة، أنا غير قابل للعَمل والوظيفة."

"طيّب، وشُغْل سانتا كلوز؟"

"آه، صحيح. ذلك."

"هل استقلتَ منه؟ عندما كتبتَ لي تلك الرسالة، بدت المهمّة مثلَ التزامٍ مدى الحياة."

"لا أزالُ على ذمّة هذه الوظيفة. وهكذا كنتُ لأكثر من عشرين عامًا حتّى الآن."

"لا بدّ أنَّه عملٌ شاقّ."

"صحيح، إنه كذلك. لكني لا أشكو، فلم يُرغمني أحدٌ عليه. لقد وقَّعتُ العقدَ بكامل إرادتي الحُرّة، ولم أراجعْ نفسي أو أندم بالمرّة. ساعات عمل طويلة، مع ذلك، ولا إجازات ولو يوم واحد طوال تلك الفترة كلها، ولكنْ، ماذا نتوقّع؟ أعمالُ الخير ليست بالمهمّة اليسيرة. فلا أرباح فيها. وعندما لا يجني المرء مالًا من وراء شيءٍ ما، يميلُ الناس للحيرة والارتباك، يظنّون أنه يسعى وراء هدفٍ ما، حتّى ولو لم يكن هذا صحيحًا."

"هل ما زال الوشم في موضعه؟ لقد ذكرتَهُ لي في رسالة، ولكني لم أرَهُ قَط."

"طبعًا، ما زال في موضعه. تعالي انظري لو تحبّين."

مالتِ السّيّدة سوانسُن للأمام في مقعدها، وشمّرتِ الكُمّ اليمين لمئزر المستشفى الخاصّ بويلي، فوجدتَهُ هناك. قالت: "ظريفٌ جدًا، ذلك ما أسمّيه سانتا كلوز كَما يجب أن يكون."

"خمسون دولارًا،" قالَ ويلي. "ويستحقّ كل بنس دُفعَ فيه."

على ذلك النحو، بدأت المحادثة. واستمرّت الليل بطوله، وخلال النهار التالي، لا يقاطعها سوى الزيارات المتواترة للممرّضات، اللاتي يأتينَ لتجديد الجرعات التي تُضَخّ في أوردة ويلي، وقياس درجة حرارته، وإفراغ وعاء البول. في بعض الأوقات، كانت قوى ويلي تذوي وتتراخى، ويغرقُ في حالة نعاس فجأة وهو في منتصف الكلام، فينام لعشر أو عشرين دقيقة متواصلة، ولكنه كان يرجع على الدوام، طالعًا من أعماق اللاوعي لينضمّ إلى السّيّدة سوانسُن مرّةً أخرى، التي لولاها هناك، كما أدركتْ ذلك الذبابة، لكان صموده ذلك الوقت كله موضعَ شكّ، ولكنْ، كم كان سروره عظيمًا إذا التمّ شمله بها من جديد، فواصل بذل كل جهده – بقدر ما كان بذل الجهد شيئًا ممكنًا. لكنه، رغم ذلك، لم يصارع ضدّ ما كان وشيكًا، وحتّى بينما كان يسردُ قائمةً بالأشياء التي لم يجرِّبها في الحياة قَطّ – لم يتعلّم أن يقودَ سيّارة، لم يسافر مستقلاً طائرة، لم يزرْ بلدًا أجنبيًا، لم يتعلّم أن يُصفِّر – أشياء لم يفعلها قَطّ، وبالتالي لن يفعلَها أبدًا – لم يكن يسردُها بنبرة الندم، بل بشيءٍ من اللامبالاة، كمحاولة لأن يُثبت لها أن لا شيء من ذلك له أهمّيّة. "الموت ليس مسألة خطيرة،" قالَ، وكان يعني بذلك أنه كان مستعدًا للذهاب، وأنه كان ممتنًا لها، لأنها اعتنتْ بالأمر، بحيث لا يقضي ساعاته الأخيرة بين أشخاص غُرباء.

كما قد يتوقّع المرء، كانت كلماته الأخيرة بشأن السيد بونز. عاد ويلي لموضوع مستقبل كلبه، والذي كان أتى على ذِكره مرّاتٍ عديدة من قبل، وكان يؤكّد للسيّدة سوانسُن كم كان من المهمّ أنَّ تُمشّط المدينة وتعثرَ عليه، وأن تفعل ما بوسعها لكي يحصل على بيتٍ جديد. "لم أُحسن علاج الأمر،" قال. "لقد خذلتُ كلبي الحبيب." انتبهتِ السّيّدة سوانسُن، إذ رأتْ كيف داهمَهُ الوَهَنُ فجأة، فحاولتْ أن تُخفِّف عليه ببضعِ كلمات، لا معنى لها، "لا تشغلْ بالكَ، يا وليام، كل شيء سيكون على ما يُرام، هذه مسألة ليست مهمّة،"، وويلي، الذي نهضَ قليلًا بآخر جهدٍ تبقّى لديه، نجح في أن يرفع رأسه، ويقول: "بل مُهمّة. في منتهى الأهمّيّة – " وعندئذٍ، وبمنتهى البساطة، توقّفتْ حياته.

الأخت مارجريت، الممرّضة المناوبة في تلك الساعة، اقتربتْ من الفراش، وتفقّدتِ النبضَ، وإذ لم تعثرْ على نبضةٍ واحدة، أخرجتْ مرآة صغيرة مِن جيبها، ووضعتها أمام فم ويلي. بعد لحظاتٍ معدودة، أدارتِ المرآة ناحيتَها، وتطلّعت فيها، لكن الشيء الوحيد الذي أبصرتْهُ هُناك كان صورتها هي نفسها. عندئذٍ أعادت المرآة لجيبها، مدَّتْ يدها اليُمنى، وأغمضتْ عينَي ويلي.

قالت: "كان موتًا جميلًا".

لم تُحرِ السّيّدة سوانسُن جَوابًا سوى أنها غطّتْ وجهها بكفَّيْها، وأخذت تبكي.

نظرَ السيد بونز للأسفل نحوها عبر عينَي الذبابة، مُنصتًا إلى شهقات بكائها المغتّمة وهي تملأ العنبر، متسائلًا إن كان قد مَرّ بالوجود حلم

أشدّ غرابةً وإثارة للحيرة من هذا الحلم. ثُم طرفتْ عيناه، فما عادَ في المستشفى، وما عادَ ذبابة، ولكنه عاد مرّة أخرى إلى ناصية شارع نورث أميتي، كما كان في صورته الكلبية القديمة، يراقب سيّارة الإسعاف وهي تختفي في البعيد. انتهى الحُلم، لكنه كان لا يزال بداخل الحُلم، ما يعني أنه حلُمَ بحلمٍ في داخل الحُلم، طيفُ خيالٍ في جملةٍ اعتراضية عن الذباب والمستشفيات والسّيّدة سوانسُن، والآن وقد ماتَ سيّده، عاد مرّة أخرى إلى حُلمه الأوّل. ذلك ما تخيّله، على كل حال، ولكنه ما إن جالتْ هذه الفكرة بخاطره حتّى طرفتْ عيناه لمرّةٍ ثانية، واستيقظ، وها هو من جديد، يُعسكر خاجر البولاند مع ويلي المستلقي، والذي كان قد استيقظ هو نفسه للتّوّ، وكم أصيبَ السيد بونز بالاضطراب والبلبلة في غضون البرهة التالية، بحيث لم يكن يعرف إن كان قد عاد حقًا إلى العالم مرّة أخرى أم أنه قد استيقظ داخل حلمٍ آخر.

ليت الأمر اقتصر على ذلك. فحتّى بعد أن تشمّمَ الهواء، وحكَّ أنفه في ساق ويلي، وتأكّد يقينًا مِن أن هذه هي حياته الحقيقية والواقعية، كان لا يزال هناك المزيد من الألغاز لمُغالبتها. تنحنح ويلي مصفيًا حَلقه، وبينما انتظر السيد بونز نوبة السُعال المحتومة، تذكّر أنّ ويلي لم يسعلْ في الحُلم، أنّ صديقه أُعفي من هذا الكرب ولو مرّة واحدة. الآن، وعكس كل توقّع، حدث الأمر مرّة أخرى. تنحنحَ سيّده، وشرعَ يتحدّث من جديد على الفور. في البداية، صرف السيد بونز الأمر عن ذهنه كمصادفة ميمونة، ولكنْ، إذ استمرّ ويلي يتحدّث، مندفعًا في تهوّر وطيش من أحد أركان عقله إلى الركن الآخر، لم يستطعِ الكلب أن يمنعَ نفسه من ملاحظة مقدار التماثل بين الكلمات التي كان يسمعها والكلمات التي سمعها لتوّه في الحلم. لم تكن المطابقة تامّة بينهما – على الأقلّ، هو لا يعتقد ذلك –

لكنها كانت متقاربة بما فيه الكفاية، متقاربة بما فيه الكفاية. واحدًا بعد آخر، تعرّض ويلي لكل موضوع كان قد تطرّق إليه في الحلم، وعندما أدرك السيد بونز أن ذلك كان يحدث بالترتيب الدقيق ذاته، كما سبق له أن رآه، شعر بقشعريرة باردة تضربُ عموده الفقري. أوّلًا الستّ ماما ونكاتها غير المُتقَنَة، ثمّ كاتالوج المغامرات الجنسية، ثمّ هجاء الذات والاعتذارات، والقصيدة، والمعارك الأدبية، كل شيء بالتمام والكمال. وعندما وصل إلى قصّة شريك الغرفة حول الكلب الذي يمكنه النَّقْرُ على الآلة الكاتبة، تساءل السيد بونز إن كان قد جُنَّ. هل انسلَّ عائدًا إلى الحلم من جديد، أم أنَّ الحُلم لم يكن سوى نُسخة أسبق لما كان يحدث الآن؟ طرف بعينَيْه، على أمل أن يصحوَ. ثمّ طرف ثانيةً، ثمّ مرّة أخرى، ولم يحدثْ شيء. لم يستطعْ أن يصحوَ، لأنه كان صاحياً بالفعل. كانت هذه هي حياته الحقيقية والواقعية، ولأنَّ على المرء أن يعيش تلك الحياة مرّة واحدة فقط، أدركَ أنهما قد بلغا نقطة النهاية هذه المرّة. أدركَ أن الكلمات المتساقطة من فم سيّده كانت آخر كلمات سوف يسمع ويلي ينطق بها على الإطلاق.

"لم أكن حَاضرًا بنفسي،"، كان الشاعر يقول، "ولكني أثقُ بمَن شهدَ وأخبرني. خلال السنوات جميعها التي كُنّا فيها صَديقَيْن، لم أعرف عنه أبدًا أنه يُلفِّق الحكايات. وتلك إحدى مشكلاته، رُبمّا – ككاتب، أقصد – خيالٌ غير كافٍ – ولكنه كصديق كان دائمًا ما ينقل لي الحقيقة مِن فَم الحصان مباشرةً(*). عبارةٌ بديعةٌ تلك، ولكنْ، يلعنني اللهُ إن كنتُ أعرف ما المقصود بها. الحصان المتكلّم الوحيد الذي رأيتُه أبدًا هو الذي في

(* straight from the horse's mouth – تعبير اصطلاحيّ، يُقصَد به الحصول على معلومات من مصادر رسمية مَحلّ ثقة.

تلك الأفلام. دونالد أوكونور(*)، الجيش، ثلاث أو أربع أفلام بلهاء تحمّلتُها للنهاية وأنا صبيّ. ورغم ذلك، إذ أفكّر الآن في الأمر، رُبّما كان بغلًا. بغلٌ في الأفلام السينمائية، وحصان في الأعمال التليفزيونية. ماذا كان اسم ذلك العَمل؟ مِستر إِد. يا يسوع، هأنذا من جديد. لا يُمكنني التّخلّص من هذه القمامة. مِستر إِد، مِستر موتو، مِستر ماجو، لا تزال ماثلة في أماكنها، حتّى آخر واحدٍ منها. مِستر اذهبْ-وانكحْ-نفسكَ. لكني أتحدّث عن الكلاب، أليس كذلك؟ ليس الخيول، بل الكلاب. وليس الكلاب المتكلّمة كذلك. ليس تلك الكلاب في الحكايات عن ذلك الرجل الذي يذهب إلى البَار ويراهن بكل ما يملك، لأن كلبه كان قادرًا على الكلام، ولا أحد يُصدِّقه، وعندئذٍ لا يفتحُ الكلب فمه مُطلقًا، وعندما يسأله الرجل عن ذلك فيما بَعد، يقول الكلب إنه فقط لم يخطرْ له أيّ شيءٍ يقوله. كلّا، ليس الكلب المتكلّم في تلك النكات الغبية، لكنْ، الكلب الكاتب على الآلة الكاتبة الذي رآه صديقي في إيطاليا عندما كان في سِنّ السابعة عشرة. ذلك صحيح، إيطاليا. إيطاليا نيتي جريتي، بلدُ الويتي ديتي، والإتي-بيتي-تيتي(**) – وها هو مكانٌ آخر، لم أذهب إليه قَطّ.

"كانت خالته قد انتقلتْ إلى هناك قبل بضع سنوات، الأسباب غير معروفة، وذات صيف ذهبَ في زيارةٍ لها لأسبوعَيْن أو نحوهما. تلك حقيقة، وما يجعل مسألة الكلب تبدو صادقة أن الكلب لم يكن حتّى محور القصّة. كنتُ أقرأ كتابًا. كان كتاب الجبل السِّحْرِيّ، كتبه رجل اسمه

(*) Donald O'Connor (١٩٢٥-٢٠٠٣)، فنّان سينمائي أمريكي معروف، كان يُمثّل ويغنّي ويرقص، من أشهر أعماله مشاركته في فيلم الغناء تحت المطر.

(**) على الترتيب: (بكل دقّةٍ وتحديد)- (الأغنيّة البسيطة البارعة) – (البنات ذوات النهود الصغيرة).

توماس مان – لا يجب الخلط بينه وبين توم ماكان، صانع الأحذية المعروف للجماهير. لم أُنهِ ذلك الكتاب اللعين بالمرّة، بالمناسبة، كان مملاً جدًا، ولكنْ، قِيل إن هِر مان ذلك كان له شَنّة ورَنّة، يعني (نار على عَلَم) في وادي الكتّاب المشاهير، وهكذا قلتُ لا بدّ أن ألقي نظرة. وهكذا هأنذا أقرأ ذلك المجلّد الهائل الحجم جالسًا في المطبخ، مُنحني الظهر على رقائق شوفان الشيريوز، فيدخل شريكي في السَّكَن بول، ويرى العنوان، فيقول، أنا لم أستطع إنهاء ذلك الشيء بالمرّة. بدأتُهُ أربع مرّات، ولم أتجاوز أبدًا الصفحة رَقْم ٢٧٤." قلتُ، "طيّب، أنا في صفحة ٢٧١. يعني على ما أظنّ أن وقتي قد أزف تقريبًا،"، وعندئذٍ راح يحكي لي، وهو واقف هُناك في مدخل الباب، وينفخ دخان سيجارته من فمه، أنه ذات مرّة التقى بأرملة توماس مان. لم يكن يتباهى بذلك، بل فقط يقرّ أمرًا واقعًا. هكذا وصلَ إلى حكاية سَفَره لإيطاليا لزيارة خالته، التي تبيّن أنها صديقة لإحدى بنات مَان. كان قد أنجب أبناء كثيرين، ذلك العجوز توم، وهذه الابنة انتهى بها المطاف متزوّجة من فتى إيطالي ميسور الحال، وعاشا في منزل لطيف فوق التلال في مكانٍ ما على طرف بلدة صغيرة، يعلم الله ما اسمها. وذات يوم دُعي بول وخالته لتناوُل الغداء في منزلها، ووالدة المضيفة كانت هناك، أرملة توماس مَان، سيّدة عجوز بشَعْرٍ أبيض، تجلس في مقعد هزّاز، وتُحدِّق في الفراغ. هزّ بول رأسه، لم تقلْ شيئًا مهمًا، ثمّ جلسوا جميعًا لتناوُل الغداء. ثرثرة، لَغْو، لَغْو، لَغْو، من فضلكَ، ناولني الملحَ. فقط عندما تبدأ الظنّ بأنَّ شيئًا لن يحدث، وأن هذه هي نهاية قصّة لا مغزى لها، عندئذٍ فقط يعلم بول أنّ ابنة مان متخصّصة في شيءٍ يُسمّى علم نَفْس الحيوان. وقد تتساءل ما هو عالم نَفْس الحيوان ذلك؟ وما المسؤول بأعلم من السائل، يا السيد بونز. بعد الغداء، تأخذه السّيّدة

بول، وتصعد به للطابق العلوي، وتقدّم له كلبًا من نوع الساتر الإنجليزي، يُدعى أُولي، كلبًا لم يبدُ أنه يملك أيّ ذكاء من نوعٍ خاصّ، على الأقلّ في نَظر صاحبنا، ثمّ أرتْهُ آلة كاتبة ضخمة، والتي لا شكّ أنها كانت أضخم آلة كاتبة في تاريخ الخَلْق. كانت مُزوَّدة بمجموعة من الحروف المُصمَّمة خصيصًا، مُكعّبات كبيرة مجوَّفة لكي تلائم خَطْم الكلب. ثمّ تلتقط عُلبة بسكويت، وتدعو أُولي للجلوس إلى الآلة الكاتبة، وتُقدِّم لبول عَرْضًا لإثبات ما يستطيع هذا الكلب السلوقي أن يفعله.

"كان عملاً بطيئًا ومُضنيًا، شيء مختلف تمامًا عمّا قد توقّعه. كانت الجملة التي يُفترَض به أن ينقرَها هي "أُولي كلبٌ صالح." وبدلًا من أن تقول الكلمات له وكَفَى – أو بدلًا من أن تتهجّى الكلمات، وتنتظر منه أن يضرب الحروف الصحيحة – كانت تتوقّف مع كل صوت في كل كلمة، وقد جزَّأت المفردات إلى عناصرها الأولى من وحدّات صوتية، وأخذت تنطقها ببطءٍ بالغ، بتلك الالتواءات الغريبة والنبرات الحلقية كلها، بحيث بدتْ وكأنها شخص أبكم، يجاهدُ كي يلفظ شيئًا. "أوههههه"، هكذا بدأت، "أوههههه"، وعندما ضغطَ الكلب أنفه فوق حرف O، كافأتْهُ بقطعة بسكويت، وبعض الحديث المُغمغم المُنغَّم، والكثير من التمسيد على رأسه، ثُمّ انتقلتْ إلى الصوت التالي. "ل-ل-ل-ل". "ل-ل-ل-ل"، مُتحدِّثة بالبطء والمثابرة نفسَيْهما كما في السابق، وعندما نقره الكلب بصورة صحيحة، منحتْهُ قطعة بسكويت أخرى، والمزيد من التمسيد على الرأس، وهكذا مضى الأمر، حرفًا مُمضًا بعد حرفٍ أليم، حتّى توصلاً في النهاية إلى الجملة: "أُولي كلبٌ صالح."

"روى لي صديقي تلك القصّة منذ خمسة وعشرين عامًا، وما زلتُ

لا أدري إن كان لها أيّ مغزى. لكني أعلمُ هذا: لقد كنتُ مغفّلًا. لقد ضيَّعتُ الكثير للغاية من وقتنا على توافه المتَع والمزَح، بدّدتُ سنواتٍ على مهازل وحماقات، وسفاسف شَاعرية، ومشاجراتٍ لا تلين. كان ينبغي علينا أن نجتهد وندرس، يا سيّدي، وأن نتمكّن من حروف الأبجدية، كان ينبغي أن نفعلَ شيئًا مفيدًا في الوقت القصير الممنوح لنا. هذا خطئي، الأمر كله خطئي أنا. لا أعرف شيئًا عن شخصية أُولي ذلك، لكنكَ كان بوسعكَ أن تُحقِّق أمورًا أعظم كثيرًا منه، يا السيد بونز. كان عندكَ العقل اللازم، كان عندكَ الإرادة، كان عندكَ الشجاعة. لكني لم أرَ في عينَيْكَ الاستعداد الكافي، لذلك لم أهتمّ. الكسل، كان ذلك هو السّرّ. خمولٌ عقليّ. كان عليَّ أن أجرِّب، رافضًا أن يقابَل اقتراحي بالرفض. لا تُولَد الأمور العظيمة إلّا بالعناد. ولكنْ، ماذا فعلتُ، بدلًا من ذلك؟ جررتُكَ معي إلى متجر العمّ آل للطرائف وأدوات المقالب في كوني آيلاند، هذا ما فعلتُ. أخذتُكَ معي، لنستقلّ قطار أنفاق نيويورك، متظاهرًا بأنني كفيف البصر، مُتلمّسًا طريقي على السلالم بتلك العصا البيضاء، وهأنتذا إلى جانبي، مُستريحًا وهادئًا في مزاولة عملكَ، وبارعًا مثل أيّ كلب مرشد للعميان وُجدَ على الإطلاق، لستَ أدنى بقيد أنملة من تلك اللابرادو والشيبرد ممّنْ أُرسلوا إلى المدارس للتّدرّب على تلك الوظيفة. شكرًا لكَ على ذلك، يا صاحبي. شكرًا لكَ على مجاراتي في اللعب بهذا النُّبل كله، وعلى إرضاء نزواتي وتجاربي المُرتجلة جميعها. لكنْ، كان عليَّ أن أقدّم لكَ أفضل من ذلك. كان عليَّ أن أمنحكَ فرصة لتبلغَ النجوم. ذلك ممكن، صدِّقني. كل ما هنالك أنني لم أملك الشجاعة الكافية للعمل بما أؤمن به. لكن الحقيقة، يا صديقي، أن الكلاب تستطيع القراءة. وإلّا فلماذا يضعون تلك اللافتات على أبواب مكاتب البريد؟ غير مسموح بالكلاب إلّا المرافقة

للمكفوفين. هل التقطتَ مقصدي؟ الرجل الذي مع الكلب لا يستطيع أن يرى، فكيف، إذنْ، يمكنه قراءة اللافتة؟ وإن كان لا يستطيع قراءتها، فمَنْ تبقّى سواه؟ ذلك ما يفعلونه في تلك المدارس لتدريب الكلاب على مرافقة المكفوفين وإرشادهم. هُم فقط لا يُخبروننا. يُبقون الأمر سِرًا، وحاليًا فهو أحد مِن ثلاثة أو أربعة أسرار فقط أُحسنَ إخفاؤها في أمريكا. ولهذا سببٌ وجيه، أيضًا. لو تسرّبتْ عن الأمر كلمةٌ، فلتتصوّر فقط ما يُمكن أن يحدثَ. هل الكلاب في ذكاء البَشر؟ زَعْمٌ يتّصف بالكفر والتجديف. سوف تنتشر أعمال الشغب في الشوارع، سيحرقون البيتَ الأبيضَ حتّى يصيرَ رمادًا، سيعمّ الذعرُ والاضطراب. وفي غضون ثلاثة أشهر، سوف تطالب الكلاب باستقلالها. سوف تجتمع الوفود، وتبدأ المفاوضات، وفي النهاية سوف يُحَلّ الوضع بإعطائهم نبراسكا، وساوث داكوتا، ونصف كانساس. سوف يطردون السّكّان البشر منها، ليسمحوا للكلاب بالانتقال إليها، ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا، سينقسم البلد اثنَيْن. الولايات المتّحدة البَشَرية والجمهورية الكَلبية المستقلّة. يا يسوع، كم أحبّ أن أرى ذلك بعينَيَّ. كنتُ لأنتقل إلى هناك، وأشتغل عندكَ، يا السيد بونز. سأجلب لكَ خفَّيْكَ، وأُشعل لكَ غليونكَ. كنتُ سأجعلكَ تُنتخَب رئيسًا للوزراء. أيّ شيء تريد، يا ريّس، وسأكون رجلكَ ومحسوبكَ."

بتلك الجُملة، توقفّتْ فجأة الأنشودة التي كان يتلوها ويلي. شتّت انتباهَهُ ضجّةٌ، وعندما أدار رأسه ليرى سببَ الإزعاج، أطلق آهةً صغيرة. كانت سيّارة شُرطة تشقّ سبيلها في الشارع على مهلٍ، وتتحرّك صوبَ المنزل. لم يكن السيد بونز مضطرًا لأن ينظرَ ليعرف ماذا كانت، لكنه نظر على أيّ حال. توقّفتِ السّيّارة بجانب أحجار حافّة الرصيف، وترجّل منها الشرطيان، وهمّا يُمسِّدان عل الجرابَيْن، ويضبطان الحزامَيْن، الأسود

والأبيض، المُهرّجان نفساهما، كما في المرّة السابقة. التفتَ السيد بونز نحو ويلي عندئذٍ، تمامًا في اللحظة ذاتها التي كان ويلي يلتفت فيها نحوه، وإذ تناهتْ فجأة من الإشارة إليهما كلمات الشرطي (″لايمكنكَ البقاء هناك، يا رجل. هل ستتحرّكُ أم ماذا؟″)، نظر ويلي في عينَيْه، وقال: ″اركضْ، يا بونزي. لا تدعْهما يُمسكان بكَ″، فَلَعَقَ وجهَ سيّده، ولبثَ جامدًا للحظة، بينما مسَّد ويلي رأسه، ثمّ انطلق يعدو فجأة، طائرًا على طول الشارع، مُشتبّثًا بفرصته الأخيرة.

٣

لم يتوقّفْ عند المنعطف هذه المرّة، ولم يقفْ قريبًا في انتظار ظهور سيَّارة الإسعاف. فماذا قد تكون الجدوى من ذلك؟ كان يعلم أنها آتية، وما إن تصل إلى هُناك، كان يعلم إلى أين سيتّجه سيّده. الراهبات والأطبّاء سوف يفعلون ما في وسعهم، والسّيّدة سوانسُن سوف تُمسك يده وتثرثر معه حتّى وقتٍ متأخّر من الليل، وقبل مرور وقتٍ طويل مِن بزوغ فجر النهار التالي، سيكون ويلي في طريقه إلى تِمبُكْتُو.

وهكذا واصلَ السيد بونز ركضه، دون أن يتساءل بالمرّة إن كان الحُلم سوف يُحقِّق وعودَهُ جميعها، وحينما بلغ المنعطف، وبدأ يتّجه نحو كُتلة البنايات التالية، كان قد أدركَ فجأةً أنَّ العالم لم يكنْ على وشك أن ينتهي. وكادَ يشعر بالأسف لذلك الآن. لقد تركَ سيَّده خلفه، ومع ذلك، فالأرض لم تنشقّ وتبلعه. المدينة لم تختفِ. السماء لم تتفجّر نيرانًا لاهبة. كان كل شيء على حالته السابقة، وكما سوف يستمرّ على حالته، وما وقع قد وقع. لا تزال المنازل قائمة، ولا تزال الريح تهب، وكان سيّده يحتضر. هذا ما أنبأه به الحُلم، ولأنَّ الحُلم لم يكن حُلمًا، بل رؤيا، تكشف ما سيكون، فلا مجال للشّكّ. لقد حُسمَ مصير ويلي. وبينما كان السيد بونز يخبّ على طول الرصيف، مُنصتًا إلى سرينة الإسعاف تقترب من البُقعة التي غادرها للتوّ، فَهِمَ أنَّ الجزء الأخير من القصّة كان على وشك أن يبدأ. لكنها لم تعد

قصّته، وأيًا ما كان سيحدث لويلي من هذه النقطة فما بعدها لن يكون له أيّ صلةٍ به. كان قد أصبح بمفرده، ومسؤولًا عن نفسه، وسواءٌ شاء أو أبى، سيكون عليه أن يواصل الحركة، ولو لم يعرفْ أيّ مكانٍ يذهب إليه.

كم بلغتْ تلك الساعات الأخيرة من الارتباك، قالَ مُحدّثًا نفسه، يا لخليط الذكريات والأفكار المبتورة – غيرَ أنَّ ويلي كان محقًا تمامًا بشأن أمرٍ واحد، وذلك رغم أنه قد أخذتْهُ الحماسة، ومالَ للمبالغة قليلًا عند النهاية، فلا سبيل لمخالفة الفكرة الأساسية. لو أن السيد بونز تعلَّم كيف يقرأ، لما كان في حالة الضّياع التي هو عليها الآن. حتّى مع أضأل وأبسط معرفة بالأبجدية، لكان بمقدوره العثور على رَقْم ٣١٦ شارع كالفيرت، وما إن يصل إلى هناك، فسوف ينتظر لدى الباب لحين ظهور السّيّدة سوانسُن. كانت هي الشخص الذي يعرفه في بالتيمور، ولكنْ، بعد أن قضى معها تلك الساعات كلها في الحلم، كان مقتنعًا أنها سوف يسرّها أن تسمح له بالدخول – ولاضطلعتْ إضافةً إلى ذلك بمهمّة رعايته على أفضل وجه. يمكن للمرء أن يكون على ثقةٍ مِن هذا بمُجرّد النظر إليها، وبمُجرّد الاستماع إلى حديثها. ولكنْ، كيف عساه أن يجد العنوان، إن لم يكن بوسعه قراءة لافتات الشوارع؟ إذا كان ويلي يعتقد بأن القراءة مهمّة للغاية، فلمَ لم يفعلْ شيئًا بخصوص هذا؟ فبدلًا من الأنين والشكوى مِن إخفاقاته وقلّة حيلته، كان يمكنه أن يوفّر دموعه، ويعطيه بضعة دروس سريعة. ولَكان مِستر ويلي أكثر من مستعدّ لأن يجتهد في المحاولة. ليس معنى هذا أنه كان سينجح، ولكنْ، كيف لنا أن نعرف شيئًا دون أن نُجرِّب؟

انعطفَ إلى شارعٍ آخر، وتوقّف ليشربَ مِن بِركة وَحل صغيرة، تشكّلتْ خلال الأمطار التي سقطتْ حديثًا. وإذ أخذَ لسانه يلعقَ الماء الدافئ

رماديّ اللون، خطرتْ له فجأة فكرة جديدة. وما إن تأمّلها لوهلةٍ حتّى كادَ أن يبكي ندمًا. انسَ القراءة، قالَ لنفسه. وانسَ المجادلات حول ذكاء الكلاب. كان من الممكن حَلّ المشكلة كلّها بحركةٍ بارعة واحدة: بتعليق إشارةٍ حول رقبته. اسمي السيد بونز. رجاءً، خُذني إلى مَنزل بيا سوانسُن في ٣١٦ شارع كالفيرت. وعلى الجانب الخلفي منها، كان يمكن لويلي أن يكتب ملاحظة قصيرة مُوجَّهة للسّيّدة سوانسُن، مُفسِّرًا ما جرى له، ولماذا ينبغي عليها أن تأوي كلبه. وبعد أن يهيم السيد بونز على وجهه في الشوارع، فثمّة فرصة ممتازة في أن شخصًا غريبًا طيّب القلب سيقرأ الإشارة، ويُنفّذ المطلوب، وفي غضون ساعات، سيكون السيد بونز ملتفًا حول نفسه في سكينة على سجّادة غرفة المعيشة بمنزل مالكته الجديدة. بينما أشاحَ عن بركة الوَحل، وواصل المضي قُدُمًا، تساءلَ السيد بونز كيف أمكنَ أن تخطرَ له هذه الفكرة، وهو مُجرّد كلب، ولم تخطرْ على عقل ويلي على الإطلاق، الذي كان قادرًا على تلك الشقلبات المُبهرة والالتفافات المُدوِّخة. لأن ويلي لم يكن يمتلكُ حِسًا عَمليًا، ذلك هو السبب، ولأن عقله كان في حالة اضطراب، ولأنه كان مريضًا يحتضر، وغير قادر على التوصّل لحكم سليم حول أيّ شيء. على الأقلّ، فقد تحدَّث إلى السّيّدة سوانسُن بهذا الشأن – أو على الأقلّ، سيتحدّث إليها، ما إن تصل السّيّدة سوانسُن إلى المستشفى. "مَشِّطي المدينة بحثًا عنه"، هكذا سيقول، وبعد أن يُقدِّم لها وصفًا كاملًا لشكل السيد بونز، سوف يُمسكُ يدها، ويتوسّل إليها بأن تفعل الصواب. "إنه بحاجة إلى بيت. إن لم تأويه، سوف يطبخونه." لكنَ ويلي لن يموتَ حتّى الغد، وبعد أن تكون السّيّدة سوانسُن قد غادرت المستشفى، وعادتْ لبيتها، سيكون السيد بونز قد ظلَّ شاردًا في الشوارع طوال النهار، وطوال الليل، وجزءاً كبيراً من اليوم التالي. ورُبمّا

telegram @ktabpdf

لا تشعر بأنها مستعدّة للبحث عنه إلّا في وقتٍ تالٍ، رُبمّا ليس قبل مرور يومٍ آخر، وإنَّ بالتيمور هذه مكانٌ كبير، مدينة ذات عشرة آلاف شارع وزُقاق، ومَن يدري أين سيكون عندئذٍ؟ ولكي يجد كلّ منهما الآخر سيكونان بحاجةٍ إلى الحظّ، إلى مقادير هائلة من الحظّ، حظٍّ بمقياس معجزة. ومِستر بونز، الذي ما عادَ يؤمن بالمعجزات، قال لنفسه ألّا يتّكل على حدوث هذا.

كانت هناك برك وحل كافية ليروي ظمأه، كُلّما شعر بجفاف حلقه، ولكن الأكل مسألة أخرى، وبعد يومَيْن تقريبًا، لم يبتلع فيهما كسرةً واحدة، كانت معدته تصرخ طلبًا لأن تُملأ. وهكذا كان جسده هو مَن انتصرَ تدريجيًا على عقله، وتبدّد تأمّله المتذمّر للفرص الضائعة، ليحلّ محلّه بحثٌ ضارٍ عمَّا يسدّ به رَمقه. تقدّم النهار الآن، رُبمّا حتّى بلغ أوّل الأصيل، وقد شرعَ الناس في الحركة أخيرًا، ناهضين من سُبات يوم الأحد، ومخرفشين في مطابخهم لإعداد فطورٍ متأخّر، أو غداءٍ مبكّر. مِن كلّ منزل تقريبًا مرَّ به هاجمتْه روائح لحم يُطهَى على الموقد، أو بيضٍ في مقلاة، وخبز دافئ يفرقع طالعًا مِن التوستر. كانت حيلة خسيسة، هكذا شعر، شيء قاسٍ للغاية يقع عليه في حالته الراهنة من الارتياع والتضوّر جوعًا، لكنه قاوم الحافز لأن يذهب ويستجدي الفُتات على الأبواب، وواصل سيره. لقد تشرَّب دروس ويلي تمامًا. لا أصدقاء للكلب الضّالّ، وإذا ما عرَّض نفسه للخزي والحرج أمامَ الشخص الخطأ، فسوف يُؤخذ ويُحمَل محبوسًا إلى الزريبة – المكان الذي لم يعد منه أيّ كلب قَطّ.

لو أنه كان قد اكتسب عادة الصيد والبحث عن طعامه بنفسه، لما شعرَ الآن بهذا العَجز كله. لكنه قضى سنوات عديدة للغاية إلى جانب ويلي، مُتسكّعَيْن في العالَم بغير هدف، لاعبًا دوره كمُؤتمَن على الأسرار

و"كلب مرافق كما يجب أن يكون"(*) وأيًا كانت غرائز الافتراس الذئبية التي وُلِدَ بها، فقد ضمرتْ، وتبدّدتْ منذ زمن طويل. لقد أضحى مخلوقًا ناعمًا مُتحضِّرًا، كلبًا مُفكّرًا بدلًا من كلبٍ رياضيّ، وبقدر ما يستطيع العودة بالذاكرة للوراء، فقد كان هناك على الدوام شخصٌ آخر، يلبّي احتياجاته الجسدية. ولكنْ، ألم تكن تلك هي الصفقة؟ الإنسان يمنحكَ الطعام ومأوى لتنام فيه، وفي المقابل، تُقدِّم له الحبّ وولاءً لا يفنى. الآن وقد رحلَ ويلي، سيكون عليه أن يطرح عنه كل ما تعلّمه، وأن يبدأ كل شيءٍ من جديد. فهل كان تغييرًا بهذه الضخامة أمرًا مُمكنًا؟ قد صادفَ السيد بونز في الماضي بكلابٍ شريدة، ولكنه لم يشعر نحوها بأيّ شيء خلا الشفقة – الشفقة، ولمسة من الاحتقار. الوحدة التي تُخيّم على حياتهم كانت أشدّ قسوة من أن يتصوّرها، وقد احتفظَ على الدوام بمسافةٍ آمنة منهم، مُحترسًا ممّا يختبئ في فرائهم من قرّاد وبراغيث، ومتردّدًا من الاقتراب منهم للغاية خشية أن تنتقلَ إليه بالتلامس أمراضهم ويأسهم. رُبّما تحوّل إلى مُتغطرس يحتقر مَنْ هم دونه في المكانة، لكنه كان على الدوام يستطيع التعرّف على تلك المخلوقات الوضيعة من مسافة مئات الياردات. إنهم يتحرّكون بطريقةٍ مختلفة عن الكلاب الأخرى، ينزلقون للأمام بتلك الخطوات المستجدية العابسة الخاصّة بهم، وذيولهم منفوشة ومرفوعة من بين أرجلها، كأنها رايات ترفرف منخفضة، يخبّون على طول الطُّرُقات، كما لو كانوا متأخّرين عن موعدٍ في مكانٍ ما – وهُم في حقيقة الأمر غير ذاهبين إلى أيّ مكان، هُم فقط ينتقلون من هُنا إلى هُناك في دوائر، تائهين على الأعراف الفاصلة ما بين لا-مكان واللا-مكان التالي. الآن، وإذا انعطف مع ناصيةٍ أخرى، وقطعَ الشارع، اكتشفَ السيد بونز أنه هو نفسه يتحرّك مثلهم تمامًا. لقد

---

*) بالفرنسية في الأصل.

قبّل سيّده مُودّعًا منذ أقلّ من نصف ساعة، وها هو منذ الآن قد صارَ واحدًا منهم.

بعد وهلةٍ، بلغَ دوّاراً مرورياً، تتوسّطه جزيرة، ينتصب في قلبها تمثالٌ كبير، وإذ راح السيد بونز يدرس العَمل الفنّيّ من بعيد، استنتجَ أنه يُفترَض به أن يكون جنديًا على متن جواد وقد أشهر سيفه، كما لو أنه على وشك خوض معركة. ما أثارَ اهتمامه أكثر من هذا، أنَّ سربًا من الحمام قد جثمَ على مواضع متفرّقة من جسد الجندي، فضلاً عن أماكن عديدة من الحصان الحجريّ الضخم، إلى جانب أنواع أخرى عديدة من الطيور متجمّعة بالأسفل – طيور النمنمة، وعصافير الدوريّ، وما شئتَ غيرها – تساءلَ السيد بونز إن لم تكن هذه لحظة مواتية لاختصار قدراته كقاتل. إن لم يكن بوسعه الاعتماد على البشر في قوّته أكثر من هذا، فأيّ خيارٍ آخر يملكه سوى الاعتماد على نفسه؟

كانت حركة المرور قد زادتْ عندئذٍ، وقد احتاج السيد بونز إلى بعض التحرّر الرشيق السريع بأقدامه، لكي يعبر إلى الجانب الآخر: تفادي السّيّارات، التوقّف، الاندفاع إلى الأمام، الانتظار من جديد، ضبْط توقيت حركاته تجنّبًا لأيّ اصطدام. في نقطةٍ ما، مرَّ به هادرًا رجلٌ على درّاجة نارية، صاعقة خاطفة من معدن أسود لامع، بدتْ وكأنها ظهرتْ في الهواء من العَدَم، وكان على السيد بونز أن يقفز جانبًا لتفاديه، ممّا وَضَعَهُ مباشرةً أمام سيّارة آتية، شيء أصفر ضخم بشوّاية أمامية، كأنها فرن إعداد فطائر الوافل، وإن لم يثبْ السيد بونز راجعًا مرّة أخرى إلى حيث كان منذ ثانية واحدة (أي عائدًا إلى البقعة ذاتها التي خلت للتّوّ من الدرّاجة النارية)، لكانت تلك هي نهايته. انطلقت أبواق سيّارَتَيْن أو ثلاث، أخرج رجلٌ رأسه

من نافذة سيّارة، وصاحَ بشيءٍ ما بدا مثل "فاندرفلو" أو "شك آند تشو"، فأحسَّ السيد بونز بوخزة الإهانة. شعرَ بالخجل من نفسه، وبالمهانة من أدائه المؤسف. لم يكن بوسعه حتّى أن يصل إلى الجانب الآخر من الطريق بلا وقوع في مشكلات، وإن كانت أمورٌ هيّنة مثل تلك ستكون عسيرة عليه، فماذا سيحدث عندما يواجه أمورًا صعبة حقًا؟ في نهاية الأمر، وصلَ إلى حيث كان يريد، ولكنْ، حينما صارَ بعيدًا عن الخطر، واعتلى حافة رصيف الجزيرة، شعرَ بأنه مُزَعْزَع الأعصاب للغاية، وبالاشمئزاز من نفسه، وتمنّى لو لم يحاول العبور من الأصل.

من حسن الحظّ، أن حركة المرور أرغمتْهُ على أن يسلك الطريق البعيد حول الجزيرة، واستقرّ على الجانب الشمالي منها. وجدَ نفسه من تلك الزاوية يتطلّع نحو الجزء الخلفي من التمثال، ذلك الذي يُظهر كَفل الحصان وأسنّة مهمازي الجندي، ولمّا أن أغلب الحَمام قد تجمّع في الجزء الأمامي، فقد أُتيحَ لمِستر بونز قليلًا من الوقت ليلتقط أنفاسه، ويخطّط حركته التالية. لم يسبق له قَطّ أن طاردَ طيورًا لافتراسها، لكنه قد شاهد كيف تفعل الكلاب الأخرى ذلك، وتعلّم ما يكفي منهم لتكوين فكرة، لا بأس بها عمّا يتجنّبه. عليكَ ألّا تتقدّم كيفما اتّفق متمنّيًا أفضل النتائج، على سبيل المثال، ولا يمكنكَ أن تُحدِث ضجّة كبيرة، ولا يمكنكَ أن تركض، مهما كان الإغراء قويًا. فعلى كل حال، ليس هدفكَ إخافة الحَمام. كان الهدف أن تمسكَ إحداها في فمكَ، وفي اللحظة نفسها التي تشرع فيها في الركض، سيُرتفع الحمام في الهواء، ويطير بعيدًا. تلك كانت نقطة أخرى عليها أن يتذكّرها، قال لنفسه. الحمام يستطيع أن يطير، والكلاب لا تستطيع. رُبّما يكون الحمام أغبى من الكلاب، لكن ذلك لأنّ الله قد وهبه أجنحة بدلًا من الأمخاخ، وحتّى يتغلّب الكلب على تلك الأجنحة،

كان لزامًا عليه أن يغوص عميقًا في داخل نفسه، وأن يستحضر كل حيلة ممكنة علّمتْهُ إيّاها الحياة.

التّسلّل خِفية هو الحَلّ. هجوم مُختلَس من وراء خطوط العدوّ. مشى السيد بونز حتّى الواجهة الغربية لقاعدة الثمثال، ودقّق النَظر ناحية الزاوية. كان لا يزالُ هناك نحو ثمانية عشرة أو عشرين حمامة، يتبخترنَ للوراء والأمام في ضوء الشمس. جثمَ في موضعه، وركّز انتباهه كله على أقرب الطيور منه، بينما لامست بطنُهُ الأرضَ، وعندئذٍ شرع يزحف إلى الأمام، متقدّمًا بأقصى ما أمكنه من بُطء وكتمان. في اللحظة التي ظهر فيها في المشهد، ارتفع عصفوران دوري أو ثلاث من على الرصيف، وأعادوا اتّخاذ مواقعهم على رأس الجندي، ولكنْ، بدا أن الحمامات لم تنتبه إليه. فقد واصلَتِ الانهماك في شؤونها، وهي تهدل وتتمايل بطريقتها الحمقاء تلك، وإذ تحرّك نحو ضحيته المختارة، استطاع أن يرى كم كانت عيّنة فاخرة وريّانة الجسم، صيد من الدرجة الأولى فعلاً. سوف يستهدف رقبتها، واثبًا عليها من الخلف وفكّاه مفتوحان، وإذا قفز في اللحظة المناسبة، لن تتاحَ لها أيّ فرصة. كانت مسألة صبر لا أكثر، أن يعرف متى يضرب ضربته. لبث ساكنًا، غير راغبٍ في أن يثير الشكوك والشبهات، محاولًا أن يمتزج بالبيئة المحيطة، أن يجعل نفسه ثابتًا وجامدًا مثل الحصان الحجري. كان فقط بحاجةٍ لأن يقتربَ أكثر، أن يُضيِّق الفجوة بمسافة قَدَمٍ أو اثنَيْن قبل أن يتدفّق بالحركة من أجل الاندفاعة الأخيرة. ورغم أنه كان لا يكاد يتنفّس عندئذٍ، ولا يكاد يُحرِّك عضلة واحدة، فقد شرع فجأة نحو نصف دزّينةٍ من الحمام، عن يمينه وعلى الحافّة الخارجية للسرب، في الرفرفة بأجنحته، والإقلاع في الهواء، مرتفعًا نحو التمثال مثل أسطول من طائرات الهليكوبتر. بدا هذا غير ممكن تقريبًا. لقد كان يؤدّي كلَّ شيءٍ كما قال الكتاب بالحرف الواحد،

ولم ينحرف ولو مرّة واحدة عن الخطّة التي بدأ في تنفيذها، ومع ذلك، فقد انتبهت الحمامات له الآن، وأخذت حذرها، وإن لم يتحرّك سريعًا، فإن العملية بكاملها سوف تنفجر في وجهه. الجائزة الصغيرة في مواجهته أخذت تتهادى يمينًا ويسارًا متقدّمة بسلسلةٍ من الخطوات السريعة الرشيقة، وبسرعة تراجعتْ خارج نطاقه. طارتْ حمامة أخرى مبتعدة، ثمّ أخرى، وبعدها واحدة أخرى. سوف تفتح أبواب الفوضى على مصاريعها، ومِستر بونز، الذي مارسَ حتّى حينه أقصى قدر ممكن من ضبط النَّفْس بدرجةٍ جديرة بالإعجاب، لم يستطع أن يجدَ شيئًا يفعله أفضل من القيام بسرعة على أقدامه، والانقضاض على ضحيّته. كانت حركة يائسة بلا تفكير، لكنها كادت أن تُفلح. شعرَ بأن جناحًا لامس خَطْمه خفيفًا بالضبط عندما كان يفتح فكَّيْه، لكنّ هذا كان أقصى اقترابٍ حقّقه. حلّقَتْ وجبته في الهواء، هاربةً بصحبة كل طائرٍ آخر على الجزيرة، وانظر بعينَيْكَ، ها هو السيد بونز، وحده فجأة، يخبّ للخلف والأمام في نوبة إحباطٍ، واثبًا في الهواء ونابحًا، نابحًا عليهم جميعًا، نابحًا من فرط الغضب والفشل، حتّى بعد أن مضى وقت طويلٍ منذ أن اختفى آخر طائرٍ عند برج الكنيسة على الناحية الأخرى من الطريق، واصل هو نباحه – نابحًا على نفسه، وعلى العالَم، وعلى لا شيء مُطلقًا.

بعد مرور ساعَتَيْن، اكتشف قمعَ أيس كريم يذوب على الرصيف بجانب المتحف البحري (فانيليا الكرز، مع فتات حلوى ترصّع الكرة السّكّرية الناعمة)، وبعد ذلك، قبل أن تمرّ ربع ساعة، صادف بقايا وجبة دجاج مقلي من كنتاكي، تركها خلفه شخصٌ ما على مقعدٍ عامّ – صندوق ورقي

أحمر وأبيض ممتلئ بثلاث سيقان، لم تُؤكَل تمامًا، وجناحَيْن بلا مَساس، وقطعة بسكويت، وكتلة بطاطس مهروسة منقوعة في مَرَق بُنّيّ مملّح. أعانه الطعام على استعادة بعض من الثقة بنفسه، ولكنْ، بقَدْرٍ أقلّ كثيرًا من المُفترض. لقد هزّتْهُ هزيمة موقعة الجزيرة من أعماقه، ولساعاتٍ بعدها أخذت ذكرى الهجوم الفاشل تشقّ طريقها في وعيه بسكّين. لقد جلبَ العارَ على نفسه، ورغم أنه حاول ألّا يفكّر كثيرًا فيما جرى، لم يُفلح في الهرب من الشعور بأنه كان مُسنًا ومهدودَ القُوى، فعلَ ماضٍ.

أمضى الليل في بقعةٍ خالية، مُلتفًا حول نفسه تحت خُضرة غزيرة الأعشاب والنجوم الثاقبة، يكاد لا يستطيع أن يُبقي عينَيْه مغمضَتَيْن لأكثر من خمس دقائق متواصلة. كانت الليلة سيّئة بقدر ما كان النهار، بل أشدّ سوءًا حتّى، لأنها كانت الليلة الأولى التي يبيتها بمفرده على الإطلاق، وكان غياب ويلي شديدًا للغاية، حتّى يمكن أن يلمَسه في الهواء المحيط به، لدرجة أن السيد بونز لم يفعل شيئًا سوى الرقاد هناك على رقعته من الأرض، في تَوقٍ بالغ نحو القُرب من جسد سيّده. وعندما جرفه أخيرًا شيءٌ يكاد يُشبه النوم الحقيقي، كان النهار وشيكًا، وبعد ثلاثة أرباع ساعة واحدة، أطلّت أولى أشعّة الشمس البازغة، وأجبرت عينَيْه على أن تُفتَحا من جديد. قام ونفضَ جسده، وفي تلك اللحظة، اكتسحَه ثقلٌ رهيب. بدا الأمر كما لو أن كل شيء قد أظلم فجأة، كما لو أن كسوفًا كان يحدث داخل روحه، وبينما لم يكن واضحًا له بالمرّة كيف علمَ بذلك بالضبط، كان على يقين من أن اللحظة قد حانت لكي يغادر ويلي هذا العالَم. كان الأمر كما تنبأ به الحُلم تمامًا. كان سيّده على وشك أن يموت، وخلال دقيقة أخرى سوف تدخل الأخت مارجريت إلى الغرفة، وتضع المرآة أمام فمه، ثمّ بعد ذلك سوف تغطّي السّيّدة سوانسُن وجهها بيَدَيْها، وتشرع في البكاء.

عندما حانت اللحظة القاضية، وهنتْ أقدامه، وانثنت، فانطرحَ أرضًا. بدا كما لو أن الهواء نفسه قد أُفرغَ منه، فتسطّح هامدًا، وخلال الدقائق القليلة التالية ظلَّ راقدًا هناك وسط أغطية الزجاجات وعُلب البيرة الفارغة، عاجزًا عن الحركة. شعرَ بأن جسده على وشك أن يتفسَّخ ويتحلّل، وأن سوائل الحياة سوف تنسكب منه، وما إن يصير جافًا تمامًا، سيتحوّل إلى جثّة يابسة، كتلة صلبة لكلبٍ سابق، تتعفّن تحت شمس ولاية مريلاند. وعندئذٍ، كما لم يتوقّع بالمرّة، بدأ الثقل يخفّ ويرتفع عنه، وشعرَ بأنَّ الحياة تمور في داخله من جديد. غير أن السيد بونز كان يتوق إلى العَدَم الآن، وبدلًا أن ينهض واقفًا ويغادر البقعة التي عايشَ فيها موتَ ويلي، راح يتقلّب على ظهره فيها، ويفتح سيقانه بأوسع ما يمكنه – كاشفًا جهةَ السماء حلقه وبطنه وأعضائه التناسلية. في ذلك الوضع، كان هدفًا سهلًا تمامًا لأيّ هجوم. باسطًا أطرافه جميعها على اتّساعها في براءة الجراء، وانتظر أن يُنزلَ الله به ضربةً مميتة، وهو على أتمّ الاستعداد لأن يُقدِّم نفسه الآن قربانًا لسيّده الذي رحل. مرّت بضع دقائق أخرى. أغمضَ السيد بونز عينَيْه، مُعدًا نفسَهُ للطمة النشوة الزاهية الآتية من الأعلى، لكن الله لم يُولِهِ أيّ انتباه – أو لعلّه لم يعثرْ عليه – وشيئًا فشيئًا، وإذ بدّدتِ الشمسُ السحابَ في السماء، فَهِمَ السيد بونز أنه لم يكن مكتوبًا عليه أن يموتَ في ذلك الصباح. استدار مُستويًا، ونهض على أقدامه. وعندئذٍ، مال برأسه جانبًا نحو السماء، وملأ رئَتَيْه بالهواء، وأطلقَ عواءً مَديدًا عَتيًا.

عند الساعة العاشرة، كان قد تورّط مع عصابة من ستّ صبية في الثانية عشرة من عمرهم. في البداية، بدا الأمر وكأن الحظّ يبتسم له، وخلال ساعةٍ أو ساعَتَيْن تلقّى منهم معاملة مَلَكية. أطعمه الأولاد بسكويت العقدية المملّح، ونقانق الهوت دوج، وكسرات البيتزا الجافّة، وردَّ لهم السيد بونز

كَرمهم بفعل ما استطاعَ إليه سبيلًا لتسليتهم. لم يختلطْ كثيرًا بالأطفال، لكنه شاهدَ ما فيه الكفاية عبرَ السنوات ليعرف أنهم كائنات يصعب توقّع أفعالهم. وقد وجدَ هؤلاء الصبية شِلّةً تميلُ للصّخب والمشاكسة. كانوا مُفعَمين بأمارات الاستهزاء والاختيال والغرور، وبعد أن قضى معهم بعض الوقت، لاحظَ أنهم يستمدّون متعةً غريبة مِن لَكْم بعضهم بعضًا، وإنزال ضرباتٍ مُختَلسة على الرأس. انتهى بهم الأمر في حديقةٍ عامّة، وبعد ساعةٍ أو نحوها لعبَ الأولاد كرة القَدَم، مرتطمين بأجساد بعضهم البعض بقدرٍ من الاحتدام العنيف جعلَ السيد بونز يخشى أن يُصابَ أحدهم بأذى. كانت نهاية الإجازة الصيفية. وسوف تبدأ المدرسة من جديد قريبًا، وكان الأولاد يشعرون بالحرارة والضجر، يتحرّقون رغبةً في إثارة المتاعب. بعد أن انتهت المباراة، تجوّلوا عند حافّة بِركة، وبدؤوا يلعبون برَمي الأحجار عبرَ سطح الماء، بحيث تتقافز مرّاتٍ عديدة. سرعانَ ما تحوَّل هذا إلى منافسة حول أيّهم سيجعل حجره يتواثب على الماء أكثر عدد من المرّات، وهو ما أدَّى بدوره إلى نزاعاتٍ محتدمة كثيرة. السيد بونز، الذي كان يزدري الصراع في أشكاله كلها، قرّر أن يُغيِّر أجواء الضغينة المتنامية بينهم بأن يغطسَ في الماء، ويجلبَ لهم حجرًا من الأحجار. لم يكنْ يومًا شديد الشَّغَف بلعبة استعادة الأشياء تلك. ولطالما نفرَ ويلي من تلك الرياضة، بِعَدِّها أدنى من ذكاء السيد بونز، لكن السيد بونز كان يعلم كم يسعد الناس عندما ترجع إليهم الكلاب في مرح وبين أسنانهم عِصي وكرات أصحابهم، وهكذا تصرّف بعكس ما يميل إليه، ووثبَ وغَطسَ. أحدث رشّاشُ الماء اضطرابًا هائلًا في البركة، وحتّى بعد أن غاص تحت سطح الماء، والتقط حجرًا غارقًا بين فكَّيْه بكل براعة، كان بوسعه أن يسمعَ أحد الصبية وهو يلعنه لما سبّبه من تكدير. فسدت اللعبة، وصاح الأولاد، وسوف يحتاجون

خمس دقائق قبل أن يعود الماء ساكنًا بما يكفي للبدء من جديد. لعلّ الأمر كذلك، هكذا حدَّث السيد بونز نفسه وهو يخوض الماء عائدًا إلى الشاطئ، ولكنْ، كم سيكون مسرورًا ومندهشًا عندما أُسقِط أمام قَدَمَيْه هذا الشيء اللعين. ليس كل كلب بقادرٍ على إحراز نجاحٍ مثل هذا. ورغم ذلك، فعندما وصل قبالةَ الصبيّ الغاضب، وألقى الحجر من فمه، حَيّاه الصبي بركلةٍ في الضلوع. "كلب غبيّ"، قال الصبيّ، "لأيّ شيءٍ هيَّجتَ مياهنا هكذا؟" أطلقَ السيد بونز صرخة من الألم والمفاجأة، وبعد ذلك على الفور، اشتعل فتيلُ نزاعٍ آخر بين الصبية. أدانُ البعضُ الركلةَ، وآخرون شجَّعوها، وسرعانَ ما أخذ يتقلّب اثنان منهما على الأرض وهما مشتبكان في شجار، في تجسيدٍ جديد للصراع القديم قِدَمَ الدهر بين القوّة والحقّ. انسحب السيد بونز بمقدار عدّة ياردات متّخذًا منهم مسافةً آمنة، وهو ينفضُ الماء عن فرائه، ثمّ لبث هناك في انتظار أن ينادي عليه أحد الأولاد الأكثر طيبة، ليعودَ مرّةً أخرى. ورغم استعداده كله لتسوية الأمر، وإحلال السلام، فما مِن واحدٍ منهم نظر إليه حتّى. استمرّ العراك، وعندما انتهى أخيرًا، اكتشف أحد الأولاد مكانه، فالتقط حجرًا، وصوّبه نحوه. أخطأه بمسافة قَدَمَيْن أو ثلاث، لكنّ السيد بونز كان قد شاهدَ ما فيه الكفاية عندئذٍ لتصله الرسالة. استدار، وانطلق يعدو، ورغم أن أحد الأولاد صاح من ورائه أن يعود، لم يتوقّف عن الجري حتّى بلغ طرفَ البركة الآخَر.

قضى الساعة التالية عابسًا تحتَ أجمة شجيرات زعرور. لم يكن الأمر أن الركلة آلمتْهُ كثيرًا، بل كانت معنوياته هي التي أُصيبت بكدمة، وكان مُحبَطًا من نفسه، لأنه أساء قراءة الموقف تمامًا. عليه أن يتعلّم أن يكون أشدّ حذرًا، قال لنفسه، وأن يكون أقلّ ثقةً بالآخرين، وأن يفترضَ أسوأ الظنون في الناس إلى أن يُبرهنوا على حُسن نواياهم. كان درسًا حزينًا عليه

أن يستوعبه في وقتٍ متأخّر للغاية من الحياة، هكذا تبيَّن، ولكنْ، إذا كان ينوي تدبّر أموره مع المصاعب الآتية، فسيكون عليه أن يخشوشنَ، وأن يلتزمَ بالمنهج حرفيًا . ما كان بحاجةٍ إليه هو أن يضعَ بعض المبادئ العامّة، قواعد صارمة للسلوك يمكنه الاستعانة بها عند الأزمات. بناءً على تجربته القريبة، لم يكن من الصعب أن يتوصّل إلى البَند الأوّل على القائمة. لا مزيد من الصغار. لا مزيد من الأشخاص تحت سنّ السادسة عشرة، وخصوصًا الأولاد منهم. إنهم بلا قدرة على الشفقة، وما إن تُنتزَع هذه الخصلة من روح أحد ذوي السَّاقَيْن، فلن يختلف كثيرًا عن الكلب المسعور.

في اللحظة ذاتها التي هَمَّ فيها بالخروج من تحت الشُّجيرة والمُضي قدمًا، وقعَ بصره على حذاء رياضيّ أبيض، لا يبتعد عن أنفه إلّا مسافة قَدَمَيْن. كان شديد الشَّبَه بذلك الحذاء الذي نزل ببطنه منذ قليل، لدرجة أن السيد بونز كاد يختنق بلعابه. هل عادَ الشَّقيّ، ليستكملَ المهمّة؟ جفلَ الكلب فزعًا، متراجعًا أكثر إلى داخل الأشواك المتشابكة والأغصان الواطئة، خادشًا فراءه في أثناء هذا. أيّ مأزقٍ رهيب يقعُ فيه الآن، هكذا فكّر، ولكنْ، أيّ بديلٍ آخر كان لديه؟ عليه أن يبقى مختبئًا، فاردًا جسمه بامتداد أطرافه الأربعة وقد انغرست في ظهره حفنة من الأشواك، على أمل أن يسأم المتنمّر الانتظار، فيرحل.

لكنّ السيد بونز لم يكن محظوظًا بهذا القدر في ذلك اليوم. ظلَّ المخلوق الهمجي ثابتًا في مكانه، رافضًا الاستسلام، وبدلًا من أن يحمل شرّه إلى ناحيةٍ أخرى من الحديقة، جثمَ منحنيًا أمامَ الشجيرة، وفرّق الأغصان عن بعضها البعض، لينظر من خلالها. زمجرَ السيد بونز، متأهّبًا ليقفز على الفتوة، إذا لزمَ الأمر.

"لا تخفْ"، قال الولد. "أنا لن أؤذيكَ."

طبعًا لن تفعلَ، أيّها الكذّاب، هكذا حدّث السيد بونز نفسه، ولأنه كان لا يزال أشدّ خوفًا من أن يهدأ ويطمئنّ، أخفق في أن يُدركَ أن الصوت الرقيق الذي ينبعث عبر الأغصان لم يكن خداعًا – لكنه صوت صبيّ مختلف تمامًا.

"رأيتُ ما فعلوه بكَ،" قال الولد الجديد. "إنهم أوغاد، هؤلاء الأشخاص. أعرفهم من المدرسة. رالف هيرناندز وبيت بوندي. مَنْ يتسكّع مع أوغاد مثلهم، فلا بدَّ أن يصيبه منهم سوءٌ على الدوام."

عندئذٍ، قرّب المتكلّم رأسه على مسافةٍ كافية، لأن يلقي السيد بونز نظرة واضحة على ملامحه، فَفَهِمَ أخيرًا أنه لم يكن ينظر إلى مُعذّبه. كان الوجه ينتمي لصبيّ صينيّ في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، وفي تلك اللحظة الأولى التي لا ينمحي أثرها بسهولة، أحسَّ السيد بونز أنه كان من أجمل الوجوه الإنسانية التي أسعده التّطلّع إليها في حياته كلها. وداعًا للمبادئ العامّة وقواعد السلوك. لم يكن هذا الصبيّ يُضمر أيّ شر، وإذا ثبتَ خطأ السيد بونز بشأن ذلك، فعليه أن يتنازل عن شارته الكلبية، ويقضي ما تبقى منه عمره كواحدٍ من قوارض الشّيهم.

"اسمي هنري،"، قال الولد. "هنري شاو. ما اسمكَ أنتَ؟"

آه، فكّر السيد بونز. يا للصغير الذكي! وكيف يظنّ أنه يُفترض بي أن أجيبَ على سؤاله ذلك؟

ومع ذلك، وحيث كان يُعوِّل الكثير على نتيجة المحادثة، قرّر أن يبذل

أقصى ما في وسعه. رفع رأسه، وهو لا يزال مدفونًا بين التويجات والأوراق الجافّة، وأصدرَ سلسلة من ثلاث نبحات سريعات: ووف ووف ووف. كانت تفعيلة شعرية ممتازة، فكل مقطعٍ صوتي من اسمه اتّخذ ما يلائمه من نبرٍ وتوازن واستدامة. ولبضع ثوانٍ خاطفة، بدا كما لو أنَّ عبارة ميس/ تر/بونز تمّ اختزالها إلى جوهرها الصوتي، إلى نقاء جملةٍ موسيقية.

"كلبٌ صالح،" قال هنري الصغير، وبسط يده اليمنى كإشارة سلام. "أنتَ سريع الفَهْم جدًا، صح؟"

نبحَ السيد بونز مرةً أخرى، ليُعربَ عن موافقته، ثمّ بدأ يلعق الراحة المفتوحة لليد التي تدلّت قبالته. شيئًا فشيئًا، أفلح هنري بالملاطفة في إقناعه بالخروج من أمان مَكمنه، وما إن أتمّ السيد بونز خروجه، جلس الولد معه على الأرض، وما بين ربتاتٍ عديدة على الرأس وقبلاتٍ على الوجه، عملَ برقّةٍ وحرص على انتزاع أوراق الشجر والعُلّيق التي تجمَّعتْ في فرائه.

وهكذا بدأتْ صداقةٌ نموذجية بين كلبٍ وولد. من حيث السّنّ، لم يكن يفصل بينهما إلّا ثلاث سنوات ونصف، لكنّ الولد كان يافعًا والكلب كان مسنًا، وبسبب هذا الفارق، انتهى بهما الحال إلى أن يمنحَ كلّ منهما لصاحبه شيئًا لم يختبرْه الآخر من قبل قَطّ. بالنسبة لمِستر بونز، أثبتَ له هنري أن الحُبّ لم يكن مادّةً قابلة للقياس، وأنَّ هناك المزيد منه على الدوام في مكانٍ ما، حتّى بعد خسارة حبّ ما، لم يكن من المستحيل على الإطلاق العثور على حبّ آخر. وبالنسبة لهنري، كطفلٍ وحيد لأبوَيْن يعملان ساعات طويلة، ويرفضان بمنتهى الحَسم السماح لأيّ حيوانٍ أليف بالدخول لشقّتهما، كان السيد بونز هو دُعاءه المُستجَاب.

وعلى الرغم من ذلك، فلم يكنْ يخلو هذا الحلف الوليد مِن مزالق ومخاطر. ما إن شرعَ هنري يتحدّث عن أبيه، فَهِمَ السيد بونز أنَّ رَبْطَ مصيره بمصير هذا الولد لم يكن هو الرّهان المؤكّد تمامًا، كما بدا له في الوهلة الأولى. كانا يشقّان طريق عودتهما ببطء نحو الشارع الذي كانت تعيش فيه عائلة شاو، بينما واصل هنري وَصْفَ المشكلات المتنوّعة التي سوف يواجهانها معًا، فوجدَ السيد بونز نفسه ينتقل من مُجرّد القلق إلى الخوف، ومنه إلى الذعر الخالص. كان من السيّئ بما فيه الكفاية أن والد هنري ينفر من الكلاب، وأن السيد بونز سيكون محظورًا عليه دخول المنزل. الأسوأ من ذلك كان حقيقة أنه حتّى بعد العثور على مكانٍ له، فإنه لا بدّ من إبقاء وجوده سرًا عن مِستر شاو. فإذا استشعرَ والد هنري ولو نفحةً خفيفة تشي بكلب في أيّ مكان في الجوار، فسوف يعاقب الصبي أشدّ العقاب، بحيث يتمنّى لو أنه لم يُولَد من الأساس. ومع الأخذ بالاعتبار أن مِستر شاوي كان يعيش ويعمل في المبنى نفسه، فقد بدا من المُحَال عليهما تقريبًا أن يتجنّبا افتضاح أمرهما. كانت شقّة الأسرة تقع في الطابق الثاني، وكان محلّ عملهم بالأسفل في الطابق الأوّل، وهكذا كان والد هنري على مقربةٍ دائمًا وأبدًا، سواء نائم أو يعمل، في الصباح والظهيرة والليل.

"أعرف أنَّ هذا لا يبدو جميلًا جدًا،" قال هنري. "ولكني مستعدّ أن أُجرِّبَ إذا كنتَ أنتَ أيضًا مستعدّ."

على كلّ، كان هذا الفتى ذا روحٍ عالية على الأقلّ. ويا له من صوتٍ عَذب لمواكبته! هكذا أضافَ السيد بونز، مجاهدًا نفسه لكي ينظرَ إلى الجانب المشرق، وأن يمتنّ للنِّعَم. غيرَ أن ما لم يكن يعرفه حتّى تلك اللحظة أن الأشدّ سوءًا لم يظهرْ بعد. لقد سمع السيّئ، وقد سمع الأسوأ،

لكنْ، فقط حينما شرعَ هنري في التّحدّث حول أماكن الاختباء أدركَ مدى الرُّعب الكامل الذي كان يتورّط فيه.

كان هناك الزقاق، قال هنري. هذا أحد الخيارات، وإذا كان السيد بونز لا يجد بأسًا في النوم في صندوق من الكرتون، وتعهّد ألّا يصدر عنه أيّ جلبة، فقد يفلتان بفعلتهما. والاحتمال الآخر كان الباحة الخلفية. لم تكن كبيرة جدًا – مُجرّد رقعة من العشب، في الحقيقة – مع بعض الثلّاجات الصدئة والأرفف المعدنية المتآكلة متراصّة على طول السياج، ولكنّ النُّدُل أحيانًا يخرجون إلى هناك للتدخين، وفي معظم الأمسيّات، وخصوصًا عندما يكون الجوّ دافئًا، يروق لأبيه أن يقضي بضع دقائق متجوّلًا هناك في الخلف بعد أن يُحكم إغلاق المطعم ليلًا. كان يدعو ذلك "تشرّب النجوم"، وحسب كلام هنري، كان دائمًا ينام نومًا أفضل، إذا تناول جرعتَهُ الصغيرة من السماء قبل أن يصعدَ للطابق الأعلى، ويخلد إلى فراشه.

واصل هنري الكلام لفترة وجيزة عن عادات أبيه في النوم، غيرَ أنَّ السيد بونز لم يعد يسمع. لقد مرّت الكلمة القاضية من شَفَتَي الصبيّ، وما إن أدركَ السيد بونز أن المطعم المَعني لم يكن مُجرّد أيّ كشك تافه لإعداد النقانق، بل مطعم صينيّ، صار مستعدًا لأن يأخذ ذيله في أسنانه، ويجري. كم من المرّات حذّره ويلي من تلك الأماكن؟ صباح أمس فقط، ألقى عليه محاضرة لخمس عشرة دقيقة حول هذا الموضوع، فهل سيتجاهل السيد بونز تلك النصيحة الآن، ويخون ذكرى سيّده الحبيب؟ كان هذا الهنري رفيقًا صغيرًا رائعًا، ولكنْ، إذا كانت كلمات ويلي تنطوي على أضأل كسرة من الحقيقة، فإن البقاء بجوار هذا الصبيّ سيكون أشبه بتوقيع شهادة وفاته بنفسه.

ولم يستطعْ، برغم ذلك، أن يحملَ نفسه على الفرار. لقد كان بصحبة هنري لأربعين دقيقة لا أكثر، وقد أضحت الرابطة بينهما بالغة القوّة مِن الآن، بحيث لا يقدر على الافتراق عنه دونما تحية وداع. ممزّقًا بين الخوف والمودّة، اختار طريقاً وسطى، والذي كان الطريق الوحيدة المتاحة له في ظلّ هذه الظروف. لقد توقّف بكل بساطة – فقط تجمّد في مكانه على الرصيف، ورقد أرضًا، وأخذ يُصدر أنينًا خافتًا. هنري، الذي لم تكنْ له خبرة كبيرة بالكلاب، لم يدرِ ماذا يفعل إزاء هذه الحركة التي باغتتْهُ بلا مقدّمات. قَرْفَصَ أرضًا بجانب السيد بونز، وشرعَ يُمسِّد رأسه، والكلب الذي كان حبيسًا في عذاب الحَيْرة، لم يملكْ إلّا أن يلحظَ كم كانت لمسة هذا الولد حانية ورقيقة.

"أنتَ مُتعب،" قال هنري. "وأنا أتكلّم وأتكلّم، وأنتَ في غاية الإرهاق والجوع، وأنا لم أهتمّ بأن أطعمَكَ شيئًا."

تبعَ ذلك وجبة ماك كبيرة، مُلحَقَة بكيس بطاطس مَقلية، وما إن التهم السيد بونز تلك العَطَايا الشَهية حتّى صار قلبه عجينةً طرية بين يَدَيّ الصبي. فلتهرب من هذا، هكذا حدَّث نفسه، وسوف تموت في الشوارع. اذهبْ معه إلى البيت، وسوف تموت هناك أيضًا. ولكنكَ على الأقلّ ستكون مع هنري، وإذا كان الموت في كل مكان، أيّ فرقٍ يمثّله المكان الذي تذهب إليه؟

وهكذا خالفَ السيد بونز تعاليم سيّده، وانتهى به الأمر للعَيس على أبواب الجحيم.

كان بيته الجديد صندوقاً من الكرتون، احتوى في داخله ذات مرّة على

مكيّف هواء من نوع فيدرز بالحجم الكبير. وعلى سبيل الاحتياط، حَشَرَهُ هنري، وثبَّتَهُ ما بين السياج الشَّبَكي وإحدى الثلّاجات القديمة في الباحة. كان ذلك هو الموضع الذي ينام فيه السيد بونز ليلًا، ملتفًا حول نفسه في زنزانته المُظلمة حتّى يأتي الولد، ليأخذه في الصباح، ولأن هنري كان فتىً ذكيًا، ولأنه قد حفرَ في الأرض فجوةً تحت السياج، كان بوسع السيد بونز أن يزحفَ عبرها إلى الباحة المجاورة – وذلك تجنّبًا لكلّ من البابَيْن الخلفيّ والجانبيّ للمطعم – فيلتقي بسيّده الصغير على الطرف الآخر من مجمّع المباني، ليبدآ جولات تسكّعهما اليومية.

لا تَظنّ أن الكلب لم يكن خائفًا، ولا تظنّ أنه لم يكن واعيًا بالمخاطر التي تحيط به – لكنه في الوقت ذاته، عرف أيضًا أنه لم يندم مرّة واحدة على قراره بالانضمام إلى هنري وملازمته. لقد أمدَّه المطعم بمعينٍ لا ينضب من الأطايب اللذيذة، وللمرّة الأولى منذ موت السّتّ ماما قبل أربع سنوات، كان لدى السيد بونز طعامٌ يكفيه. لحم ضلع الخنزير والفطائر المقلية الصغيرة، شعيرية شرائط السمسم، والأرزّ المقلي والتوفو في الصلصة البُنّيّة، والبطّ المَطهُوّ في الوعاء على نارٍ هادئة، وقطائف الوونتون المَحشوّة والأرقّ من الهواء: كان التّنوّع لا نهاية له، وما إن تعرّف على أمجاد المطبخ الصينيّ، ما عادَ يستطيع الامتناع عن التفكير فيما سيجلبه له هِنري في الوجبة التالية. لم تكن معدته أسعدَ حالًا قبل ذلك قَطّ، ورغم أن هضمه كان يعاني أحيانًا نتيجة الطعم الحريف للغاية لأحد البهارات أو تتبيلة مُعيّنة، فقد بدَتْ انفجارات الأمعاء بين الحين والآخر ثمنًا بخسًا لمتعة الوجبات ذاتها. وإن كان ثمّة عيب واحد لهذا النظام الغذائيّ الطائش، فقد كان غُصّة مجهولة المصدر، تطعن روحه كُلّما صادفَ لسانُهُ مذاقًا غيرَ قابلٍ للتحديد. كانت تحاملات ويلي قد أضحت الآن مخاوفه هو، وبينما يعضّ

بأسنانه على توليفة جديدة غامضة، لم يستطع إلّا أن يتساءل إن كان يأكل كلبًا من بني جنسه. كان يتوقّف عن المضغ عندئذٍ، ويتجمّد فجأة شاعرًا بالنّدم، ولكنْ، دائمًا ما يكون قد فات الأوان. كانت عصارات لُعابه تتدفّق بالفعل، وحُليمات التّذوّق تتحرّق للمزيد مِن ذلك الشيء الذي اكتشفتْهُ توًا، ودائمًا ما كانت شهيّته تنتصر عليه. بعد التّوقّف الوجيز، كان لسانه يطير كالسهم نحو الطعام مرّة أخرى، وقبل أن يقول لنفسه إنه كان يرتكب خطيئة، كان يجد صحفة الطعام قد لُعقَتْ حتّى عادت نظيفة. وكان لا مناص من أن يتبع ذلك لحظةُ أسى. وبعد ذلك، وفي جهوده لتلطيف ضميره المذنب ونفسه اللوّامة، يقول لنفسه إنّه لو كان مَقضيًا عليه بهذا المصير هو أيضًا، فغايةُ ما يتمنّى أن يكون طيّب المذاق مثل المخلوق الذي التهمَهُ قبل قليل.

اشترى هنري عدّة عُبوات من بذور الفجل، وزرعها في التُّربة القريبة من صندوق السيد بونز. زَرْعُ الخضروات كانت القصّة التي سيتذرّع بها، وكُلّما سأله والداه لماذا كان يقضي هذا الوقت كله في الباحة الخلفية، ليس عليه إلّا أن يذكر الفجل، وسوف يُومئان برأسَيْهما، ويبتعدان. كان من المُستَغرب أن يبدأ زراعة حديقة في وقتٍ متأخّر من الموسم، هكذا قال والده، لكنّ هنري كان قد أعدَّ إجابةً من قبل على ذلك السؤال. قال إن الفجل لا يحتاج إلّا ثمانية عشر يومًا، ليُورق، وسوف تُورق الفجلات قبل أن يبرد الجوّ بوقتٍ طويل. هنري الذكيّ كان بمقدوره على الدوام أن يخرج من أيّ مأزق، وبمهارته الخاصّة في اختلاس العملات المعدنية والفَكّة الشاردة من محفظة نقود أمّه وبغاراته الليلية على بقايا الطعام في المطبخ، استطاعَ أن يُؤمِّن لنفسه ولصديقه الجديد معيشةً مقبولة. ولم يكن الذنب ذنبه أنَّ والده كان يَرمي السيد بونز بنوبات ذُعرٍ سيّئة

مرّات عديدة، بسبب خروجه إلى الحديقة في منتصف الليل، ليتفقّد نُمُوّ الفجل. في كل مرّة، كان شعاع كشّافه اليدوي يمسح المنطقة أمام صندوق السيد بونز، كان الكلب ينتفضُ خوفًا في ظلام مهجعه الصغير، موقنًا من أن النهاية قد حانت. مرّة أو مرّتَيْن، كانت رائحة الخوف الكريهة المنبعثة من جسده قويةً ولاذعة إلى درجة أنّ السّيّد شاو توقّف فعلاً، وأخذ يتشمّم الهواء، كما لو كان يستريب في وقوع خطأٍ ما. لكنه لم يعلم أبدًا ما الذي كان يفتّش عنه، وبعد لحظةٍ أو اثنَتَيْن من التفكّر الحائر كان يُغمغم بخيطٍ من كلمات صينية غير مفهومة، ثمّ يرجع إلى المنزل.

بقدر ما كانت تلك الليالي مُروِّعة، فقد كان السيد بونز ينساها دائمًا لحظةَ أن تقع عيناه على هنري في الصباح. كانت أيّامهما تبدأ في الركن السّرّيّ، مُباشرةً أمام صندوق القمامة وماكينة بيع الصحف بالعُملة، وعلى مدى الساعات الثمانية أو العشرة التالية، يبدو الأمر كما لو كان المطبخ وصندوق الكرتون ليسا أكثر من صورٍ في حُلم سيّئ. كانا يتجوّلان في المدينة معًا، هائمَيْن من هنا إلى هناك دون أيّ مقصدٍ خاصّ في نيّتهما، وكان هذا الروتين من التجوال بغير هدفٍ شديد الشّبه بأيّام الفوضى والتخبّط مع ويلي، بحيث إن السيد بونز لم يجدْ أيّ مشقّة في فَهْم ما كان مُتوقّعًا منه. كان هنري طفلاً وحيدًا، صبيًا اعتاد على أن يكون بمفرده، وأن يعيش داخل أفكاره، والآن وقد صارَ لديه صاحب، ليتقاسمَ معه أيّامه، أخذ يتحدّث دون انقطاع، مُزيحًا عن صدره التأمّلات جميعها التي تعبر بعقله ذي الأحد عشر عامًا، مهما كانت صغيرة وعابرة. أحبّ السيد بونز الإنصاتَ إليه، وأحبّ تدفّق الكلمات المصاحب لخطواتهما، كما أو تلك المونولوجات التي بلا ضابط ذكّرتْهُ بسيّده المتوفّى، وقد تساءل في بعض الأحيان، إن لم يكن هنري شاو هو الوريث الحقيقي والشرعي لويلي جي. كريسماس، إعادة تجسّد لروح ذلك الأوحد والوحيد نفسه.

ليس معنى هذا أن السيد بونز فَهِمَ على الدوام ما كان سيّده الجديد يتحدّث عنه، رغم ذلك. كان نطاق اهتمامات هنري مختلفاً اختلافًا جذريًا عن ذلك الخاصّ بويلي، ووجدَ الكلب نفسَهُ ضائعًا كُلّما راح الصَبيُ يخوض في موضوعاته الأثيرة. كيف يُنتَظر من السيد بونز أن يعرف ماذا كان مقصودًا بمتوسّط عدد الرميات المكتسبة أو كم عدد المباريات التي تفصل فريق أوريولز عن النهائيات؟ خلال تلك السنوات كلها التي قضاها مع ويلي، لم يقتربْ الشاعر ولو مرّة واحدة من موضوع البيسبول. الآن، وبين عشيّةٍ وضُحاها، بدا وكأنه صارَ مسألة حياة أو موت. أوّل شيء كان هنري يفعله في كل صباح بعد أن يلتقي السيد بونز في ركنهما هو أن يضع بعض العُملات في موزّع الصحف الآلي، ويشتري نسخة من جريدة بالتيمور صَن. ثمّ يُهرع إلى مقعد عامّ على الناحية الأخرى من الشارع، حيث يجلس، ويُخرج الملحق الرياضي، ويتلو بيانًا بمباراة الليلة السابقة على السيد بونز. وإذا كان فريق أوريولز قد فازَ، يكون صوتُهُ مُترعًا بالسعادة والحماس. وإن كان فريق أوريولز قد خسر، يكون صوته حزينًا كئيبًا، بل في بعض الأحيان، يصطبغ بالغضب. تعلّم السيد بونز أن يتمنّى الفوز، وأن يخشى احتمال الخسارة، ولكنه لم يفهم تمام الفَهْم قَطّ ما الذي كان يعنيه هنري عندما يتحدّث عن الفريق. فقد كان الأوريول عصفورًا(*)، وليس جماعة من البشر، وإذا كان المخلوق البرتقالي على القبّعة الرياضية السوداء الخاصّة بهنري هو طائرٌ في الحقيقة، كيف له أن يشترك في مسألة مرهقة ومعقّدة مثل البيسبول؟ كانت تلك ألغاز العالم الجديد الذي دخله. عصافير الصافرية قاتلوا النمور، وطيور أبو زريق خاضتْ معركة ضدّ الملائكة، والدببة الصغيرة حاربوا العمالقة(**)، ولا شيء من هذا كله يبدو معقولًا. لاعب البيسبول

---

*) Oriole– نوع من العصافير، تُسمّى طيور الصفارية أو طائر الصافر.

**) جميعها أسماء فِرَق بيسبول وكائنات حيّة في الوقت نفسه.

إنسان، ومع ذلك، فما إن ينضمّ إلى فريق حتّى يتحوّل إلى حيوان، كائن مهجّن ممسوخ، أو روح تعيش في السماء بجوار الله.

حَسب كلام هنري، كان هناك طائرٌ واحد في سرب بالتيمور يبرز ويتفوّق على الآخرين. كان اسمه كال، ورغم أنه لم يكن أكثر من عصفور صافر يلعب بالكرة، فقد بدا أنه يجسِّد خصائص مخلوقات أخرى كثيرة أيضًا: قوّة تحمّل حصان الجَر، وشجاعة الأسد، وقوّة الثور. كان ذلك كله مُحيرًا بما فيه الكفاية، ولكنْ، عندما قرّر هنري أن اسم السيد بونز الجديد لا بّد أن يكون كال أيضًا – وهو مختصر كال ريكين جونيور الثاني – سقطَ الكلب في حالة من الارتباك التامّ. لم يكن الأمر أنه يعترض على المبدأ في حدّ ذاته، فلم يكن في وضعٍ يتيح له أن يُخبر هنري باسمه الحقيقي، على كل حال، وبما أنّ الصبي كان سوف يدعوه بشيءٍ ما، فقد بدا كال اسمًا صالحًا للاستخدام مثل أيّ اسم آخر. كانت المشكلة الوحيدة أنه قريب الصوت من اسم آل، وفي المرّات القليلة الأولى التي سمع هنري يقوله، ذكّره تلقائيًا بصديق ويلي القديم. آل سابرستين الأنيق، الرجل الذي امتلك متجر الطرائف وأدوات المقالب الذي اعتادا زيارته في سرف آفينو بكوني آيلاند. كان صورة العَمّ آل تبزغ في عقله فجأة من جديد، في غايةٍ من الأناقة بربطة عنقه الفراشة بلون الليمون فاقع الصفرة وسترته الرياضية ذات نقشة سِنّ الكلب، وهكذا يجد نفسه وقد عاد إلى المتجر، مراقبًا ويلي وهو يتجوّل في الممرّات، متفقّدًا الأزرار التي تُخبَّأ في اليد، لتُصدر أزيزًا غريبًا عن مصافحة أحدهم، والوسائد البالونية التي تُصدر صوت ضراط عند الجلوس عليها والسجائر المفرقعة. أحسَّ أنّه من المؤلم أن يلتقي بويلي على هذا النحو، أن يجد سيّده القديم وقد وثب خارجًا من الظلال، ليتهادى في سيره، كما لو كان لا يزال حيًا، وعندما تُضافُ تلك

الذكريات اللاإرادية بحديث هنري المتواصل عن كال العصفور، ثمّ يُضافُ إلى ذلك كله حقيقة أن هنري خلال نصف الوقت عندما كان يستخدم اسم كال، كان فعليًا يشير إلى السيد بونز، فلم يكن بالغريب أبدًا أن الكلب لم يعدْ واثقًا على الدوام بشأن مَن يكون هو أو مَن يُفتَرض به أن يكون.

لكنْ، لا أهمّيّة لهذا. فلقد هبطَ للتّوّ على كوكب هنري، وكان يعرف أنه سوف يلزم بعض الوقت قبل أن يشعر هُناك بأنه في مكانه وبيته تمامًا. بعد أسبوعٍ واحد مع الصبي، بدأ بالفعل يعتاد ويكتسب المهارات اللازمة، لا يمكن معرفة مقدار التقدّم الذي كان ليحقّقاه في صداقتهما من دون الحيلة الماكرة التي أتاحتْها لهما الروزنامة. لكنّ الصيف لم يكن الموسم الوحيد في السنة، ومع اقتراب موعد عودة هنري إلى المدرسة، فإن أيّام التّسكّع والثرثرة وتطيير الطائرات الورقية في الحديقة العامّة سوف تنتهي فجأة. في الليلة السابقة على التحاقه بالصّفّ السادس، أرغم هنري نفسَهُ على أن يبقى يقظًا، راقدًا في فراشه وعيناه مفتوحتان حتّى تأكّد تمامًا من نوم والدَيْه. بعد منتصف الليل، عندما تأكّد أن الجوّ آمن تمامًا من الرُّقباء، تسلّل للطابق السفلي من الدَّرَج الخلفي، ثمّ خرج إلى الباحة، واتّجه صوب الصندوق الكرتوني الخاصّ بمستر بونز. احتضنَ الكلبَ بين ذراعَيْه، وشرح له دامعًا أن الأمور ستكون مختلفة بعد الآن. "عندما تطلّع الشمس في الصباح"، قال هنري، "ستكون أوقات المتعة والمرح قد انتهتْ رسميًا. أنا غبيّ جدًا، يا كال. كنتُ سأعثر على مكانٍ آخر من أجلكَ، شيء أفضل من هذا الصندوق العفن في هذه الباحة العفنة، لكني لم أفعل. حاولتُ، لكنْ، لم أجد أحدًا يساعدني، والآن لم يعدْ أمامنا أيّ وقت. ما كان عليكَ أن تثقَ بي أبدًا، يا كال. أنا فاشل. أنا بُراز، متخلّف، وأُفسدُ كل شيء. هكذا كنتُ دائمًا، وهكذا سأكون دائمًا. ذلك ما يحدث عندما تكون جبانًا.

بسبب خوفي الشديد من أبي، لم أستطع أن أحدِّثه عنكَ، وإذا ذهبتُ لأمّي مِن وراء ظهره، وتحدَّثتُ إليها، سوف تُخبره مباشرةً على كل حال، وهذا سيزيد الأمر سوءًا. أنتَ أفضل صديق حظيتُ به في حياتي، وكل ما فعلتُه أنني خَيَّبتُ أملكَ فيَّ."

لمْ يُكوِّن السيد بونز إلَّا فكرة باهتة للغاية عمَّا كان هنري يتحدّث عنه. كان الصبي يبكي بكاءً حارًا، فتصير كلماته غير مفهومة، ولكنْ، بينما تواصل انهمار المقاطع اللفظية المتقطّعة والعبارات المتلعثمة، صار من الواضح شيئًا فشيئًا أن هذا الجَيَشان أكثر من مُجرّد حالة مزاجية عابرة. لقد وقعَ مكروه، وبينما كان السيد بونز يجاهد ليتخيّل الأمرَ الذي حدث، كان حُزن هنري قد بدأ يؤثّر عليه، وفي غضون دقائق معدودة، كان قد انتقل إليه حزنُ الصبي، وكأنه حزنه الخاصّ. هكذا هي الكلاب. رُبمّا لا يفهمون على الدوام الاختلافات الطفيفة لأفكار أصحابهم، ولكنهم يشعرون بما يشعرون به، وفي هذه الحالة، لم يكن ثمّة شكّ أن هنر شاو الصغير كان في حالةٍ يُرثى لها. مضتْ عشر دقائق، ثمّ عشرون دقيقة، ثمّ ثلاثون، وها هما جالسان، الصبيّ والكلب محشوران معًا في ظلام صندوق الكرتون، والصبيّ يلفّ ذراعَيْه بإحكامٍ حول الكلب، باكيًا إلى أن يجفّ ماء عينَيْه، والكلب يئنّ بمرافقته متعاطفًا، رافعًا رأسه بين لحظةٍ وأخرى، ليلعق الدموع عن وجه الصبي.

في نهاية الأمر، غلب النوم كلَيْهما. هنري أوّلًا، ثمّ السيد بونز، فرغم كآبة المناسبة، ورغم ضِيق المأوى وشُحّ الهواء الذي جعل التنفّس عسيرًا داخل الصندوق، فقد استمدّ السيد بونز الشجاعة من دفء الجسد المجاور له، مستمتعًا بحقيقة أنه لم يضطرّ لقضاء ليلة أخرى مفعمة بالذعر في الظُلمة. وللمرّة الأولى منذ أن انتُزعَ منه ويلي، نام نومًا عميقًا لا تشوبه شائبة، ولا تُهدِّده المخاطر المحيطة به.

طلعَ الفجر. تسلّلَ ضوءٌ ورديّ من ثقبٍ في الصندوق الكرتونيّ، ونهضَ السيد بونز، مجاهدًا أن ينسلخَ من بين ذراعَي هنري، ويمطّ جسده. تلا ذلك بضع لحظات احتكاك، ولكنْ، حتّى بينما أخذ الكلب يتقلّب بشدّة، ويركل الجدران الداخلية المغلقة عليهما، واصلَ الصبيّ نومه، غير منتبهٍ لكل تلك القلقلة. قدرة الأطفال على النوم جديرةٌ بالإعجاب، هكذا فكّر السيد بونز، وأخيرًا استطاع أن يضع نفسه في بقعةٍ، حيث يمكنه أن يفرد عضلاته المنعقدة، لكن الوقت كان لا يزال مبكّرًا – بعد السادسة بقليل – ومع الاعتبار لمقدار إرهاقه بعد نوبة بكائه ليلة أمس لوقتٍ متأخّر، كان من المعقول أنّ هنري لا بدَّ أن يبقى غائبًا عن العالَم. تمعّن الكلبُ في وجه الصبيّ في الضوء المترقرق على سطح الظّلّ – كان في غايةٍ من النعومة والاستدارة مقارنةً بوجه ويلي الفَجّ العتيق ذي اللحية – ولاحظَ كيف تتساقط فقاعات صغيرة من اللعاب من لسانه، وتتجمّع في ركنَي فمه نصف المفتوح. امتلأ قلبُ السيد بونز رقّةً وحنانًا. وأدركَ عندئذٍ أنه طالما كان بصحبة هنري، فسوف يسرّه تمامًا أن يبقى في هذا الصندوق للأبد.

بعد عشر ثوانٍ، انتُزِعَ السيد بونز من أحلام يقظته على صوت ارتطام مرتفع. بدا الصوت كأنه ينهار عليهم من أعلى مثل انفجار، وقبل أن يستطع تحديده كقَدَمٍ بَشرية، تركل الصندوق من الخارج، كان هنري قد فتح عينَيْه، وشرعَ يصرخ. ثمّ ارتفع الصندوق نفسه عن الأرض. هاجمتْ دفقةٌ من نور الصباح المبكّر السيد بونز، وللحظة أو اثنَتَيْن أحسَّ كأنما أصيبَ بالعَمى. سمعَ رجلًا يصيح باللغة الصينية، وبعد ذلك بلحظة واحدة، طارَ الصندوق عبرَ الهواء في اتّجاه رقعة هنري المزروعة بالفجل. كان مِستر شاو واقفًا أمامهما، مرتديًا فانلة داخلية بلا كُمَّيْن وشورت

أزرق، وعروق رقبته الرفيعة منتفخة، بينما تواصل سيلُ كلمات التقريع غير المفهومة. طَعَنَ الهواءَ بإصبعه، ومرّة بعد أخرى كان يشير نحو السيد بونز، فنبحَ هذا ردًا عليه، مرتبكًا أمامَ شدّة غضب الرجل، وضجّة عويل هنري، والفوضى المباغتة للمشهد الهيستيري تمامًا. تحرّك الرجل نحو السيد بونز، لكن الكلب تراجع بحركةٍ راقصة، واحتفظَ بنفسه على مسافةٍ آمنة. ثمّ اتّجه الرجل نحو الصبيّ، الذي كان بالفعل يحاول الفرار زحفًا عبر الفجوة أسفل السياج، ولأن الصبيّ لم يكن سريعًا بما يكفي، أو لأنه قد بدأ متأخّرًا للغاية، فما هي إلّا لحظات، وانتزعه والده، وأوقفَهُ على قَدَمَيْه، وصَفَعَهُ على مؤخّرة رأسه. في ذلك الحين، كانت السّيّدة شاو قد وصلتْ إلى الباحة هي الأخرى، مندفعةً من الباب الخلفي في منامتها من قماش الفانيلا، بينما يواصل السّيّد شاو صيحاته الموجّهة إلى هنري، بينما واصلَ هنري إطلاق صرخاته السوبرانو حادّة الصوت، وسرعانَ ما أضافت السّيّدة شاو صوتها إلى مزيج الضجيج، مُنفّسة عن استيائها من كلّ من زوجها وابنها. ارتدّ السيد بونز إلى الركن المقابل من الباحة. أدركَ الآن أن كل شيءٍ قد ضاع. لا يُمكن أن تُسفر هذه المعركة عن أيّ شيء جيّد، على الأقلّ في حدود ما يخصّه، وبقدر ما شعرَ بالأسف على هنري، شعرَ بأسفٍ أشدّ على نفسه. كان الحلّ الوحيد هو الخروج من هناك، أن يقتلعَ أوتاد خيمته، ويجري.

انتظر حتّى بدأ الرجل والمرأة يجرّان الصبي نحو المنزل. عندما كانا على مقربةٍ من الباب الخلفيّ، فرّ السيد بونز قاطعًا الباحة، وزحف من خلال الفجوة أسفل السياج. توقّف للحظة، منتظرًا أن يختفي هنري عبر الباب. ورغم ذلك، فحينما أوشك الصبيّ على الدخول، انفلتَ متحرّرًا مِن والدَيْه، والتفتَ صوبَ السيد بونز، وناداه بذلك الصوت المعذَّب

ثاقب الحدّة: "كال، لا تتركْني! لا تتركْني، يا كال!" وكما لو كان ردًا على يأس ابنه المستميت، التقطَ السّيّد شاو حجرًا من الأرض، ورماه نحو السيد بونز. قفزَ الكلب للخلف في ردّ فعلٍ غريزي، ولكنْ، في اللحظة ذاتها لذلك، شعرَ بالعَار من نفسه، لأنه لم يثبتْ في مكانه، ولم يتراجعْ. راقبَ الحجر وهو يقرقع بلا أذى مرتطمًا بحلقات السياج المعدني. ثمّ نبح ثلاث مرّاتٍ على سبيل الوداع، آملاً أن الصبيّ سيفهم أنه كان يحاول أن يتحدّث إليه. فتحَ السّيّد شاو الباب، ودفعتْ السّيّدة شاو هنري إلى الداخل، وانطلق السيد بونز يجري.مكتبة أهل

لم يكن يدري بالمرّة إلى أين سيذهب، لكنه عرفَ أنه لا يستطيع أن يتوقّف، وأن عليه ، واصلة الركض حتّى تخذله أقدامه، وتكفّ أو ينفجر قلبه في صدره. إن كان ثمّة أيّ أمل تبقّى له، إن كان ثمّة أيّ احتمالٍ ضئيل لأن يبقى حيًا خلال الأيّام القليلة التالية، فضلاً عن الساعات القليلة التالية، فعليه أن يخرج من بالتيمور. الأمور المقيتة جميعها كانت تقيم في هذه المدينة. كانت مكانًا للموت واليأس، لكارهي الكلاب وللمطاعم الصينية، وقد كانت مُجرّد أعجوبة أنّه نفد بجلده من أن يصيرَ طبقَ مُقبلاتٍ زائفة في صندوق صغيرٍ أبيض للوجبات السريعة. أمَّا الصبيّ، فيا للأسف والحسرة، بالطبع، لكنه تعلّق بسيّده الصغير بسرعةٍ شديدة، ورغم ذلك، فمن المثير للعجب أنه لم يُساورْهُ ندمٌ بالغ لاضطراره إلى الرحيل. لا شكّ أن صندوق الكرتون له علاقة بذلك، فالليالي التي قضاها بداخله كانت غير مُحتمَلَة تقريبًا، وأيّ نفعٍ في بيتٍ، إن لم يشعرْ فيه المرء بالأمان، وإن تلقّيتَ معاملةَ المنبوذين المشردين في كل بقعةٍ يُفترَض أن تكون ملجأً لكَ؟ إن حَبس أيّ روحٍ في صندوق مظلم ليس بالعمل الصالح. ذلك ما يفعلونه بكَ بعد أن تموت، ولكنْ، ما دمتَ

حيًا، دمتَ بقيت فيك أنفاس وعافية، فأنتَ مدينٌ لنفسكَ، ولكل شيءٍ مقدّس في هذا العالم بألّا تُذعن لمثل تلك المذلّة والإهانات. أن تكون حيًا يعني أن تتنفّس؛ وأن تتنفّس يعني الهواء الطلق في الخلاء؛ والخلاء يعني أيّ مكانٍ آخر سوى بالتيمور في ولاية ماريلاند.

٤

واصلَ الركضَ لثلاثة أيّام، من دون أن يتوقّف، طوال ذلك الوقت كله، إلّا لِمامًا لينام أو يبحث عن طعام. وحينما توقّف السيد بونز أخيرًا، كان في مكانٍ ما شمالي فيرجينيا، فانطرح ممدّدًا في مَرج مُعشوشب على مبعدة تسعين ميلًا من باحة منزل آل شاو. على مسافة مائتَي ياردة قُبالته، كانت الشمس تهبط وراء أجمةٍ من أشجار السنديان. نصف دزّينة من طيور السنونو كانت تندفع للخلف والأمام في المسافة الوسطى، منزلقةً قريبًا من سطح الحقل، بينما تمشّط الهواء بحثًا عن البعوض، ووسط ظلمة الأغصان من ورائه، كانت الطيور المغرّدة تُزقزق نغماتٍ قليلة أخيرة قبل أن تُنهي يومها، وتخلد إلى أعشاشها. وإذ رقدَ هناك بين الأعشاب الطويلة، راحَ صدره يعلو ويهبط بشدّة، وتدلّى لسانه من فمه، وتساءلَ السيد بونز ماذا قد يحدث إن أغمض عينَيْه – وإذا فعل، فهل سيكون بمقدوره أن يفتحَهُما من جديد في الصباح. كان مُنهَكًا وجائعًا لأبعد حدّ، ومشوَّشًا بعد مشقّة رحلة سباق المسافات الطويلة التي قطعها. وبدا له أنه لو نام، فمن الجائز جدًا أنّه لن يصحوَ مجدّدًا بالمرّة.

راقبَ الشمس فيما تواصل غوصها وراء الأشجار، وعيناه تجاهدان لتبقيا مفتوحَتَيْن، بينما يتكاثف الظلام متجمّعًا حوله. لم يستطع الصمود لأكثر من دقيقةٍ أو اثنَتَيْن، ولكنْ، حتّى من قبل أن يهزمَهُ التَعب، كانت رأس

السيد بونز قد بدأتْ بالفعل تزدحم بالأفكار حول ويلي، صورٌ تمرقُ سريعًا من الأيّام الخوالي، أيّام حلقات الدخان وسجائر لاكي سترايك، والطرائف الحمقاء لحياتهما معًا في العالَم قبل عهدٍ بعيد. كانت هذه هي المرّة الأولى منذ وفاة سيّده التي كان بمقدوره فيها أن يُفكّر في تلك الأمور من دون الشعور بأن الأسى يسحقه، المرّة الأولى التي فَهِمَ فيها أن الذاكرة كانت مكانًا، مكانًا حقيقيًا، يُمكن للمرء زيارته، وأنَّ قضاء بضع دقائق وسط الموتى ليس أمرًا سيّئًا له بالضرورة، بل في الحقيقة، يمكنه أن يكون مصدرًا لقَدْرٍ هائل من الراحة والسعادة. ثمّ أخذه النوم، وكان ويلي لا يزال معه هناك، حيًا مرّةً أخرى بكل مجده المُهدّم، متظاهرًا بأنه أعمى، بينما كان السيد بونز يقوده نزولًا على سلالم قطار الأنفاق. كان ذلك اليوم كثير الرياح من شهر مارس منذ أربع سنوات ونصف، هكذا أدركَ، ذلك الأصيل المَرِح من الآمال السامية والتوقّعات المهيضة عندما استقلا القطار إلى كوني آيلاند معًا، ليعرضا سيمفونية الروائح على العمّ آل. تمييزًا للمناسبة السعيدة، وضع ويلي على رأسه قُبّعة سانتا كلوز، وكانت الموادّ اللازمة للسيمفونية محشورة في داخل كيس قمامة بلاستيكي كبير، علّقه على كتفه، فجعله يظلع قليلًا في مشيته، بدا للعالَم كله أشبه بنسخة مُترنّحة سُكْرًا من والد الكريسماس بجلالة قَدْره. من الصحيح أن الأمور لم تسرْ على ما يُرام منذ أن وصلا إلى هُناك، ولكنَّ ذلك كان فقط لأنَّ العَمّ آل لم يكنْ في مزاجٍ رائق. لم يكن عمًا حقيقيًا لويلي، بالطبع، مُجرّد صديق للأسرة كان قد مدَّ يد العون لوالدَيّ ويلي بعد وصولهما من بولندا، وقد سمحَ لويلي ومِستر بونز أن يتسكّعا في متجره فقط بدافع وفاءٍ قديم لأمّه وزوجها. والحقّ يُقال، فإنَّ آل لم يكن يجني نفعًا كبيرًا من تجارة النوادر والألعاب تلك، ومع مرور الوقت، صارَ الزبائن الذين يأتون لشراء بضائعه أقلّ فأقلّ، وكانت هناك

أغراض بعينها قد مكثتْ متراخية على الأرفف لعشر، أو اثنَتَي عشرة، أو حتّى عشرين سنة. والآن لم تعد تجارته هذه إلّا واجهة لأنشطته الأخرى، وأغلبها غير قانوني، وبعضها قانوني، وإن لم يكن آل سريع الكلام والمشبوه يجني ربحًا من الألعاب النارية، وإدارة المراهنات، وبيع السجائر المسروقة، فما كان ليتردّد كثيرًا بشأن إغلاق باب ذلك الدكّان المَكسوّ بالغبار إلى الأبد. مَنْ يدري أيّ عملية احتيال كانت قد أخفقتْ، وانهدمت خطّتها على رأسه في ذلك النهار كثير الرياح من مارس؟! ولكنْ، عندما دخل ويلي متمايلًا مع سيمفونية الروائح الخاصّة به، وشرعَ يُثرثر للعمّ آل عن اختراعه هذا، وكيف سيُحوّلهما إلى اثنَيْن من أصحاب الملايين، ما كان مِن مالِك متجر ووبي-لاند يو. إس. إيه. إلّا أن أعارَ أذنًا صمّاء لعرض البيع الذي قدَّمه قريبه المزيّف. "أنتَ شربتَ بالقرش كله، يا ويلي،" قال له العَمّ آل، "أنتَ مجنون رسمي، تعرف ذلك؟" وفي الحال طردَه للخارج، كأنه حيوان ضالّ مع كيس قمامته بنَتنه وروائحه ومتاهاته الكرتونية المَطوية.

لم يكن من السهل إثناء ويلي عن عزمه بشيءٍ قليل من النزوع للشكّ، وهكذا فقد باشرَ بكل حماسة تركيب السيمفونية على الرصيف، مُصرًا على أن يُثبتَ للعَمّ آل أنه قد توصّل حقًا إلى إحدى العجائب الأصيلة لكل زمان. لكنّ الريح كانت تهبّ بدرجةٍ مفرطة في ذلك اليوم، وما كاد ويلي يمدّ يده داخل كيس القمامة، ويبدأ في استخراج العناصر المتنوّعة للسيمفونية رَقْم ٧. (مناشف، قطع إسفنج، كنزات صوفية، أغطية جلدية لحماية الأحذية، أوعية بلاستيكية لحفظ الطعام، قفّازات) حتّى أمسكتْ بها الريح، وألقتْ بها إلى الشارع، وبعثرتْها في اتّجاهات مختلفة. ركضَ ويلي لاستعادتها، لكنه ما إن أفلتَ الكيس حتّى طيّرتْهُ الريح كذلك، ورغم العطف المفترض كله للعَمّ آل نحو عائلة جيورفيتيش، فقد وقف بمدخل متجره، وأخذ يضحك.

ذلكَ ما جرى منذ أربع سنوات ونصف خَلَتْ، ولكنْ، في الحلم الذي راودَ السيد بونز تلك الليلة في المرح، لم ينزل هو وويلي من قطار الأنفاق بالمرّة. لم يكنْ هناك أيّ شكّ في أنهما كان في طريقهما إلى كوني آيلاند (بدليل قبّعة سانتا بلونَيْها الأحمر والأبيض، وكيس القمامة المنتفخ، ولجام الكلب المرافق للعميان المربوط حول كتفَي السيد بونز)، ولكنْ، في حين كان قطار إف شديدَ الازدحام ساعةَ العَصر في الرحلة الحقيقية، كان هو وويلي بمفردَيْهما تمامًا هذه المرّة، الراكبان الوحيدان الباقيان حتّى نهاية الخطّ. في اللحظة التي أدركَ فيها هذا الاختلاف، التفتَ ويلي نحوه، وقال: "لا تقلقْ، يا السيد بونز. نحن لسنا هناك، نحن هُنَا."

"وماذا يُفترَض أن يَعني ذلك؟" أجابه الكلب، خرجتْ منه تلك الكلمات على نحوٍ طبيعي للغاية، بوضوحٍ بالغ، كانت هي المنتج للقدرة المؤكّدة تمامًا، ومنذ زمن بعيد، على التحدّث، كُلّما كان لديه ما يقوله، ولم تعترِ السيد بونز أهون دهشة أمام المعجزة التي وقعتْ للتوّ.

فقال ويلي: "يعني أنكَ تُفسد الأمور. الفرار مِن بالتيمور، والتسكّع بلا هدف في مروجٍ غبية، وتجويع نفسكَ حتّى الهلاك بلا مُبرّرٍ معقول. هذا كله لا ينفع، يا صديقي. فلتعثر لنفسكَ على سيّدٍ آخر، وإلّا صرتَ شواءً."

قال السيد بونز: "ألم أعثرْ على هنري؟"

"ولدٌ رائع بكل تأكيد، جوهرة نقية مائة في المائة. لكنه ليس جيّدًا بما يكفي. تلك هي المشكلة مع الصِّغار. قد تكون نواياهم طيّبة، لكنهم لا يملكون السُّلطة. عليكَ أن تتّجه مُباشرةً نحو القمّة، يا السيد بونز. فلتكْتَشِف مَن الريّس، اِكْتَشِفْ مَن بيده اتّخاذ القرار، ثمّ اربطْ نفسكَ

بذلك الشخص. ما من سبيلٍ آخر غير هذا، تحتاج إلى ترتيبٍ جديد، ولكنه لن يُفلح أبدًا، ما لم تبدأ باستخدام دماغكَ."

"كنتُ يائسًا. كيف كان لي أن أعرف أن أباه سيتحوّل إلى ذلك الكابوس؟"

"لأنني حذرتُكَ بخصوص تلك الأماكن، ألم أحذّركَ؟ في اللحظة التي رأيتَ فيها ما الذي ورّطتَ نفسكَ فيه، كان عليكَ أن تُلملمَ حالكَ، وتركض."

"لقد ركضتُ. وعندما أستيقظ في الصباح التالي، سوف أبدأ الركض من جديد. هذه هي حياتي الآن، يا ويلي. إنني أركض، وسوف أظلّ أركض حتّى أقع هامدًا."

"لا تيأسْ من البشر، يا بونزي. لقد تلقّيتَ بعض ركلات قاسية، ولكنْ، لا بدّ أن تصلب طولكَ، وتحاول مرّةً أخرى."

"البشر غير جديرين بالثقة. أعلم ذلك الآن."

"لكنكَ تثق بي، ألا تثقُ بي؟"

"أنتَ الشخص الوحيد، يا ويلي. لكنكَ لستَ مثل الآخرين، والآن وقد رحلتَ، فما مِن مكان على وجه لأرض لا يُشكِّل خطرًا عليَّ. أمس فقط، أوشكتُ أن أموتَ برصاصة. كنتُ آخذ طريقًا مختصرًا عبر حقلٍ في مكانٍ ما، ولاحقَني رجلٌ ما في سيّارة نصف نقل حمراء. وقد أضيفُ أنّه كان يضحك أيضًا، ثمّ سحبَ بندقية، وصوّب النارَ عليَّ. من حُسن حظّي أنه أخطأني. ولكنْ، مَنْ يعلم ما قد يحدث في المرّة التالية؟"

"إنه فقط رجلٌ واحد. ومقابل كل شخصٍ مثله، هناك شخصٌ آخر مثل هنري."

"حساباتكَ غير دقيقة، يا سيّدي. رُبّما يكون هناك قليلٌ من الحمقى الشاردين ممّنْ ترقّ قلوبهم للكلاب، لكن الغالبية لن تتردّد قبل تعمير بنادقهم في اللحظة نفسها التي يدخل فيها أرضهم واحدٌ من ذوي الأربع. أنا مرعوبٌ، يا ويلي. مرعوبٌ من أن أتّجه شرقًا، مرعوبٌ من أن أتّجه غربًا. فكما تتبدّى الأمور الآن، أفضّل أن أموتَ جوعًا هُنا في البَرّيّة على أن أتلقّى إحدى تلك الطلقات. إنهم سوف يُردونكَ قتيلًا، لمُجرّد أنكَ حيّ تُرزَق، وعندما يجد الواحد نفسَهُ في مواجهة ذلك النوع من الكراهية، فما نَفعُ المحاولة؟"

"جيّد، إذنْ، استسلمْ إذا شئتَ. لن يُشكِّلَ هذا لي أيّ فرق. بوسعي أن أجلس هُنا، وأقول لكَ إن كل شيء سيكون على ما يرام، لكنْ، لماذا أكذب عليكَ؟ قد تنصلح الأحوال، وقد لا تنصلح. أنا لستُ عرّافًا يقرأ الغيب، والحقيقة أنّ بعض القصص ليس لها نهايات سعيدة."

"ذلك ما كنتُ أحاولُ أن أقوله لكَ."

"أعلم ذلك. ولا أقول إنكَ مخطئ."

حتّى تلك اللحظة، ظلّ القطار ينطلق مُسرعًا عبرَ النفق بوتيرة ثابتة، مارقًا كالسهم عبر المحطّات الخاوية دون توقّف. الآن، فجأة، سمعَ السيد بونز صرير المكابح الحادّ، وبدأ القطار يتباطأ. "ماذا يحدث؟" قال. "لماذا لا نمضي سريعًا كما كنّا؟"

قال ويلي: "لا بدّ أن أنزل".

"بسرعة هكذا؟"

أومأ ويلي برأسه. "سأذهب الآن،" قال، "ولكنْ، قبل أن أغادر، أريدُ فقط أن أذكّركَ بشيء رُبّما تكون قد نسيتَهُ." كان واقفًا بالفعل عندئذٍ، في انتظار أن تُفتَح الأبواب. هل تتذكّر ماما، يا السيد بونز؟"

"طبعًا أتذكّرها. ماذا تحسبني؟"

"حسنًا، لقد حاولوا قتلها هي أيضًا. طاردوها وكأنها مُجرّد كلب، وكان عليها أن تركض، لتنفد بجلدها. الناس يُعامَلون كالكلاب، كذلك، يا صديقي، وأحيانًا يُضطرّون إلى النوم في صوامع الغلال وحظائر الماشية والحقول، لأنه ليس لديهم مكانٍ آخر يذهبون إليه. فقبلَ أن تبدأ الشعور بالرثاء الشديد لحالكَ، تذكَّرْ فقط أنكَ لستَ أوّل كلبٍ يضيع في هذا العالم."

بعد ستّ عشرة ساعة، كان السيد بونز على مسافة عشرة أميال جنوب المرج الذي رأى فيه الحلم، طالعًا من رقعة صغيرة من الأشجار الكثيفة على حافّة أرضٍ مقسّمة ومجموعة منازل من طابقَيْن حديثة البناء. ما عادَ يشعر بالخوف. كان جائعًا، رُبّما، وأكثر من متعبٍ قليلًا، لكن الرُّعب الذي ظلَّ يتنامى في داخله على مدى الأيّام العديدة الماضية كان قد انزاحَ بدرجةٍ كبيرة. لم يدرِ أيّ سببٍ معقول وراء ذلك، ولكن الحقيقة أنه استيقظَ من نومه وهو يشعر بأنه أفضل كثيرًا ممّا كان عليه في أيّ وقتٍ سابق منذ موت ويلي. كان يعلم أنّ ويلي لم يكن معه هناك حقًا في قطار الأنفاق، وكان يعلم أنه لا يستطيع التحدّث فعليًا، ولكنْ، في ظلّ شُعور الغبطة والرضا الذي خلّفه فيه هذا الحلم بأمورٍ مُستحيلة وجميلة، أحسَّ أن ويلي كان

مكسه

لا يزال معه، وحتّى لو لم يكن يستطيع أن يكونَ معه، بدا كما لو أنه كان يراقبه، وحتّى لو كانت العينان اللتان تنظران إليه من أعلى هي في حقيقة الأمر بداخله هو، فلا فرق يصنعه هذا على الصعيد الأشمل للأمور، لأن تينكَ العينَيْن كانتا الفارق الدقيق بين الشعور بالوحدة في هذا العالم وعدم الشعور بها. لم يكن السيد بونز مؤهّلاً لتحليل وتأوُّل خفايا ولطائف الأحلام والرؤى الروحية وسائر الظواهر الذهنية، لكنه كان يعلم علمَ اليقين أن ويلي كان في تِمبُكْتُو، وإن كان هو نفسه قد كان بصحبة ويلي قبل قليل، فلربمّا معنى ذلك أن الحلم قد أخذه هو أيضًا إلى تِمبُكْتُو. ولعلّ ذلك يفسّر كيف وجد نفسه فجأة قادرًا على التّحدّث – بعد سنواتٍ عديدة من الكفاح والفشل. وإن كان قد زارَ تِمبُكْتُو مرّةً واحدة، ألن تكون مبالغةً ألّا يعتقد أنه قادر على الذهاب إلى هناك من جديد – فقط بمُجرّد أن يغمض عينَيْه، ويصادف الحلم المناسب؟ كان الجواب اليقين مستحيلاً. ولكنْ، كانت ثمّة راحة في تلك الفكرة، تمامًا كما كانت ثمّة راحة في قضاء ذلك الوقت مع صديقه القديم، حتّى لو أن شيئًا من هذا لم يحدث حقًا، حتّى لو أن شيئًا من هذا لم يتكرّر مرّة ثانية.

كانت الساعة الثالثة بعد الظُّهر، والهواء مُفعمٌ بأصوات آلات جَزّ العُشب، ومرشّات المياه، والطيور. وبعيدًا، على طريقٍ سريع غير مَرئي جهة الشّمال، ينبعث صوت رتيب لخلية نحلٍ من حركة المرور نابضًا تحت مشهد الضاحية. وأقرب منه، اندلعتْ ضحكةُ شخصٍ ما. بدت مثل ضحكة طفلٍ صغير، وأخيرًا بلغَ السيد بونز حافّة غابة الأشجار التي ظلَّ يتجوّل فيها على مدى نصف الساعة الماضية، ومدَّ خَطْمه عبر الأغصان أنَّ الأمر هكذا فعلاً. ولدٌ ضخم الرأس في الثانية أو الثالثة من عمره، كان واقفًا على الأرض قُبالته بنحو اثنَي عشر قَدَمًا، وهو ينتزع كُتلاً من العُشب،

وينثرها في الهواء. وفي كل مرّة تتناثر فيها أمطار العُشب وتحطّ على رأسه، يُطلق دورةً جديدة من القهقهات، ويصفّق بيَدَيْه ويتقافز للأعلى والأسفل، كما لو كان قد اكتشفَ أذكى حيلة في العالم. وراء الوَلد بعشر ياردات أو اثنَي عشر، بنتٌ بنظّارة طبّيّة تمشي هنا وهناك مع دُميةٍ بين ذراعَيْها، وهي تغنّي بكل رقّةٍ لطفلتها الخيالية، كما لو كانت تحاول أن تُهدهدها حتّى تنام. كان من الصعب تخمين كم كان سِنّ البنت، فهي في موضعٍ ما بين السابعة والتاسعة، هكذا فكّر السيد بونز، ولكنها قد تكون أيضًا طفلة ضخمة في السادسة أو طفلة ضئيلة في العاشرة، فضلًا عن طفلة أضخم في الخامسة أو طفلة أضأل في الحادية عشرة. على يسار البنت، امرأة في سروالٍ قصيرٍ أبيض، وبلوزة بيضاء معلّقة بشرائط على رقبتها، وقد انحنت فوق حوض زهورٍ حمراء وصفراء، وقد عَكَفَتْ بكل عناية على انتزاع الأعشاب الضارّة باستخدام مجرفة. كانت مُولِية ظهرها نحو السيد بونز، ولأنها كانت تضع على رأسها قبّعة من القشّ ذات حوافّ عريضة بدرجة مفرطة، فقد كان وجهها بكامله مُختفيًا عن ناظرَيْه. اقتصرَ على رؤية منحنى عمودها الفقري، والنَّمش المتناثر على ذراعَيْها النحيلَتَيْن في رقّة، وبقعة ظاهرة من ركبةٍ بيضاء، ولكنْ، حتّى مع تلك العناصر القليلة، كان بوسعه أن يعرف أنها لم تكن عجوزًا، لا تتجاوز السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين، وهو ما يعني غالبًا أنها كانت أمّ الطفلَيْن. كان السيد بونز حذرًا من التقدّم أكثر من ذلك، لذلك بقي حيث كان، مراقبًا المشهد من مخبئه الصغير على حافّة الغابة. لم يكن لديه أيّة وسيلة ليعرف إن كانت هذه الأسرة من محبّي الكلاب أم كارهيها، لا وسيلة ليعرف إن كانوا سيعاملونه بعطفٍ أم أنهم سوف يلاحقونه، ليبتعد عن أملاكهم. شيء واحد كان مؤكّدًا، رغم ذلك. لقد عثرَ على باحةٍ مُعشوشبة جميلة للغاية.

وإذ وقفَ هنالك يتطلّع إلى صفوف النجيلة المشذّبة كل اعتناء وتنسيق، تمتدّ أمامه مثل قطيفةٍ خضراء، أدركَ أن الأمر لا يحتاج إلى خيالٍ نشيط، ليعرف كم سيكون إحساسًا طيّبًا التمرّغ والتقلّب على ذلك العُشب وشَمّ الروائح المنبعثة منه.

قبلَ أن يقرّر ما عليه أن يفعلَ تاليًا، انتزعَ من يَدَيْه حقّ اتّخاذ القرار. قذفَ الولدُ حفنَتَيْن أخرَيَيْن من العُشب في الهواء، وفي هذه المرّة، بدلًا من أن يسقط العشب فوقه مباشرةً، كما حدث من قبل، هبّتْ نسمة هواء في تلك اللحظة ذاتها، وحملتِ العُشب بعيدًا باتّجاه غابة الأشجار. أدارَ الولدُ رأسَهُ ليتابع رحلة طيران الفتافيت الخضراء، وبينما تمسحُ عيناه الفضاء ما بينها، استطاع السيد بونز أن يرى تعبير وجهه وقد تبدّل من ملامح الفحص العلمي البارد المنفصل إلى أمارات الدهشة المطلقة. لقد اكتُشفَ الكلب. فرَّ الولد واقفًا، وشرعَ يندفع صوبه، وهو يصيح من فرط السعادة، بينما يتمايل متقدّمًا بحفّاضته البلاستيكية المنتفخة، وهناك بالضبط وعندئذٍ تمامًا، بينما يقف مستقبله بالكامل على المحكّ، قرّر السيد بونز أن تلك هي اللحظة التي كان بانتظارها. لم يقتصر الأمر على أنه لم يرتدّ متراجعًا نحو أجمات الأشجار، ولا أنّه لم يفرّ راكضًا، بل إنه، وبأقصى درجةٍ من السَّكينة ورباطة الجأش، تقدّم خطوة نحو العشب بشيء من الحذر، وترك الولد يرمي ذراعَيْه حوله. صاح الرجل الصغير: "دوجيَ! بوبي!" وهو يعانقه ويعتصره بأشدّ ما يسعه. "بوبي جميل. بُوبي كبير، بُوبي عجوز وظريف."

أتتِ البنت بعده، راكضةً عبر المرج بدُميتها بين ذراعَيْها وهي تصيح على المرأة من خلفها. "انظري، يا ماما"، قالت. "انظري ماذا وجد

تايجر(*)." حتّى والولدُ يواصل احتضانه، سرتْ في جسم السيد بونز موجةٌ مُنذرة. أين كان هذا النمر الذي تتحدّث عنه؟ – وكيف يمكن لنمر أن يجوسَ هُنا، حيث يعيش الناس؟ لقد اصطحبه ويلي إلى حديقة الحيوان ذات مرّة، وكان يعرف كل شيء عن قطط الغابات الضخمة المنقوشة بالخطوط تلك. كانت أضخم حتّى من الأسود، وإن حدث والتقيتَ بأحد تلك الأطفال ذات المخالب الحادّة، فقُل على نفسكَ السلام. يُمكن للنمر أن يُمزِّقكَ إربًا في غضون اثنَتَي عشرة ثانية، وأيّ قطعة منكَ لم يشعر بالرغبة في تناولها ستكون مأكلاً رائعًا للنسور والديدان.

ورغم ذلك، لم يركضْ السيد بونز هاربًا. واصل استسلامه لصديقه الجديد، تاركًا إيّاه يتعلّق به، متحمّلاً في صبر وطأة القوّة الخارقة لهذا الصغير، وتمنّى لو كانت أذناه قد خدعتاه، وأنه أخطأ ببساطة في سمع ما قالتْه البنت. كان الحفّاض المتدلّي مُثقلاً بالبول، واختلطت برائحة الأمونيا الحادّة كان بوسعه أن يتتبّع بشمّه آثار جَزَر ومَوز وحليب. ثمّ جثمتْ البنت إلى جوارهما، وهي تُدقّق النظر في وجه السيد بونز بعينَيْها الزرقاوَيْن المضخَّمَتَيْن وراء النظّارة، واتّضح فجأة حلُّ اللغز. "تايجر"، هكذا قالت للولد، "اتركْهُ، سوف تخنقه هكذا حتّى الموت."

"صاحبي"، قال تايجر، وهو يشدّ قبضته أكثر، ورغم أنَّ السيد بونز كان راضيًا مُطمئنًا لاكتشافه أنه ليس على وشك أن يكون وجبة لحيوانٍ مُفترس، فإن الضغط على رقبته أصبح شديدًا للغاية بما يكفي لأن يدفعه للتّلوّي الآن. رُبّما لم يكن الولد نمرًا حقيقيًا، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن مصدر خطر. بطريقته الصغيرة الخاصّة، كان حيوانًا أكثر ممّا كان السيد بونز نفسه.

---

*) اسم الولد Tiger ومعناه نمِر.

مِن حُسن الحظّ، أتتِ المرأة في اللحظة ذاتها، وأمسكت بذراع الولد، وجذبتْهُ بعيدًا عن السيد بونز قبل أن يُنزِلَ به المزيدَ من البأس. "احذرْ، يا تايجر،" قالت. "لا نعرف إن كان كلبًا لطيفًا أم لا."

"أوه، إنّه لطيف،" قالت البنت وهي تُمسّد أعلى رأسه السيد بونز. "كل ما عليكِ أن تنظري إلى عينَيْه. إنه لطيف فعلاً، يا ماما. وأخمّن أنه تقريبًا ألطف كلب رأيتُهُ في حياتي كلها."

اندهشَ السيد بونز للعبارة الاستثنائية التي قالتْها الفتاة، ولمُجرّد أن يُظهر كم هو مخلوق ذو روح عالية، وأنّه حقًا كلب لا يحمل أيّ ضغائن، شرعَ يلعق وجه تايجر باندفاعةٍ عظيمة من لُعَاب العاطفة. أطلق الرفيق الصغير ضحكة مجلجلة، رغم أن دَفعة لسان السيد بونز جعلتْهُ يفقد توازنه في النهاية، فإن تايجر شديد الحيوية والبأس وجد هذا أظرف شيء قد حدثَ له، وواصل الضحك تحت وابلٍ مِن قُبلات الكلب حتّى بعد أن ارتطم بالأرض جالسًا على مقعدته المبتلّة.

"حسنًا، على الأقلّ، فهو ودود،"، قالتْ المرأة لابنتها، كما لو أنها تسجّل نقطة ذات أهمّيّة. "ولكنْ، يا لحالته البائسة! لا أظنّ أنني رأيتُ من قبل مخلوقًا أشدّ منه اتّساخًا وقذارة أو أكثر منه وَهنًا."

قالت الفتاة: "ما مِن شيءٍ فيه لا يمكن إصلاحه بقليلٍ من الماء والصابون. انظري إليه فقط، يا ماما. إنه ليس لطيفًا فقط، بل ذكيّ أيضًا."

ضحكت المرأة. "كيف لكِ أن تعرفي ذلك، يا آليس؟ فلم يفعلْ أيّ شيء غير لَعْق وجه أخيكِ."

قرفصتْ آليس قُبالة السيد بونز، وأحاطتْ جانبَي فكَّيْه بيَدَيْها. "أرنا

مقدار ذكائكَ، أيّها الفتى العجوز؟" قالت. "قدِّمْ لنا حيلة أو شيئاً ما. موافق؟ كما تعلم، شيء مثل التّقلّب على ظهركَ أرضًا أو الوقوف على قَدَمَيْكَ الخليفيَّتَيْن فقط. أظْهِرْ لماما أنني على حقّ."

لم تكن تلك مهامّ صعبة بالمرّة على كلبٍ بدرجة تصميمه وحماسه، وعلى الفور، انطلق السيد بونز يستعرض ما بوسعه فعله. أوّلًا، راحَ يتقلّب على العشب – ليس مرّة واحدة، بل ثلاث مرّات – ثمّ قوَّس ظهره، ورفع كَفَّيْه الأماميَّيْن على مستوى وجهه، ونهضَ ببطء على رجلَيْه الخلفيَّتَيْن. مرّت سنوات منذ أن جرّب هذه الحركة البهلوانية، ولكنْ، رغم أن مفاصله قد تألّمت ورغم أنه تمايل وتأرجح أكثر ممّا كان يودّ، فقد نجح في الاحتفاظ بهذا الوضع لمدّة ثلاث أو أربع ثوانٍ.

قالت آليس: "أرأيتِ، يا ماما؟ ألم أقلْ لكِ؟ إنه أذكى كلب رأيتُهُ في حياتي كلها."

قرفصتِ المرأة، فصارت على مستوى السيد بونز لأوّل مرة، ونظرتْ في عينَيْه، ورغم أنها كانت تضع نظّارة شمسية، وما زالت القبّعة القشّيّة على رأسها، أمكن له أن يرى أنها جميلة جدًا، بخصلات شَعْرٍ شقراء تتموّج على ظهرها ورقبتها، وذات فمٍ ممتلئ الشفاه وحسن التعبير عن المشاعر. اختلجَ شيءٌ ما في داخله عندما تحدّثتْ إليه بصوتها الجنوبي البطيء الذي يطيل حروف المَدّ قليلًا، وعندما أخذتْ تربّتُ على رأسه بيُمناها، شَعَرَ السيد بونز بكل يقين أن قلبه سوف يتهشّم إلى ألف قطعة.

"إنكَ تفهم ما نقوله لكَ، أيّها الكلب العجوز؟" قالت. "أنتَ مُميّز، ألستَ كذلك؟ كما أنكَ مُتعَبٌ ومُنهَكٌ، وتحتاج شيئًا تَضعه في معدتكَ.

أليس الأمر كذلك، أيّها المحارب القديم؟ إنكَ ضائع ووحيد، وكل بوصة منكَ مُضعضعة تمامًا."

أيمكن لكلبٍ مسكين أن يكون أسعدَ حظًا من السيد بونز في ذلك الأصيل؟ من دون أيّ نقاشٍ آخر، ومن دون أيّ حاجةٍ من جانبه لأن يسحرَهُم، أو يُثبت لهم كم هو روح طيّبة، اقتيد الكلب واهن القُوى من الباحة إلى حَرَم منزل الأسرة. وهناك، في المطبخ الأبيض البرّاق، ومحاطًا بالخزائن الخشبية حديثة الطِلاء وبأدوات المطبخ المعدنية اللامعة وبجَوّ من التَّرف والوفرة، لم يتخيّل أنه ممكن الوجود على هذه الأرض، أكل السيد بونز حتّى الشَّبَع، مُلتهمًا بقايا شرائح من لحم البقر المشوي، وسُلطانية معكرونة وجُبن، وعلبتَي سمك تونة، وثلاث نقانق غير مَطهية، فضلًا عن لعقه وعاءَيْن ونصف ممتلئَيْن بالماء فيما بين الأطباق كذلك. أرادَ أن يتريّث ويكبح جماح نفسه، أن يُظهِرَ لهم أنه كان كلبًا ذا شهية متواضعة، وأنّ إرضاءه لن يُمثِّل مشكلة حقيقية لهم، ولكنْ، ما إن وُضعَ الطعام أمامه، سيطرَ عليه جوعُهُ الطاغي بكل بساطة، ونسي ما تعهّد به لنفسه.

لم يبدُ أنَّ أيًا مِن ذلك قد أزعجَ مُضيفيه. كانوا أُناسًا طَيّبي القلوب، ويتعرّفون على الكلب الجائع عندما يرون واحدًا، وإن كان السيد بونز يكاد يهلك جوعًا هكذا، فسوف يسرّهم تمامًا تقديم الطعام له حتّى يشبع. كان يأكل وهو في غَشيةٍ من الرضا، غافلًا عن كل شيءٍ عدا الطعام الذي يدخل إلى فمه، وينزلق منه إلى حلقه. وعندما انتهت الوجبة أخيرًا، وتطلَّع متفقّدًا ما كان يفعله الآخرون، رأى أن المرأة قد خَلَعَتْ قبّعتها ونظّارتها الشمسية. وإذ انحنت بالقرب منه، لترفع الأوعية عن الأرض، التقطَ لمحةً من عينَيْها الزرقاوَيْن-الرماديَّتَيْن، وفَهِمَ أنها كانت، في حقيقة الأمر، ذات

جمالٍ عظيم، واحدة من هؤلاء النساء التي تجعل الرجال يحبسون أنفاسَهُم لحظةَ دخولها أيّ مكان.

"والآن، أيّها الكلب العجوز"، قالت وهي تُمرّر راحة يدها فوق رأسه، "هل أنتَ أحسن حالًا؟"

أطلقَ السيد بونز تجشُّؤًا صغيرًا على سبيل الامتنان والتقدير، ثمّ شرعَ يلعقُ يَدَهَا. وفجأة أتى تايجر، الذي كاد أن يُنسَى تمامًا عندئذٍ، مندفعًا نحوه. منجذبًا بصوت التجشُّؤ، الذي مَنَحَهُ تسلية عظيمة، مالَ الصبيُ على وجه السيد بونز، وأطلق تجشُّؤًا مُفتَعَلًا من صُنعه، ما مَنَحَهُ تسلية أكبر. بدا أن الأمر ينحو إلى مشهد آخر من الهرج والمرح، ولكنْ، قبل أن يخرج الموقف عن السيطرة، جذبتْهُ أمه إلى ذراعَيْها، ونهضتْ. نظرتْ نحو آليس، التي كانت مستندة إلى نضدٍ، واستغرقت في تفحُّص السيد بونز بعينَيْها الجادَّتَيْن اليقظَتَيْن. "ما الذي سنفعله به، يا صغيرتي؟"، قالت المرأة.

فأجابتْها آليس: "أرى أن علينا الاحتفاظ به".

"لا يمكننا ذلك. أغلب الظّنّ أنه يخصّ شخصًا ما. ولو احتفظنا به، فسيكون هذا مثل السرقة."

"لا أظنّ أنّ له أيّ صديق في هذا العالم كله. انظري إليه فقط. أغلب الاحتمالات أنه سارَ آلاف الأميال. إن لم نأخذه، فسوف يموت. هل سيقبل ضميركِ ذلك، يا ماما؟"

لا شكّ أنَّ الفتاة موهوبة، بكل وضوح. كانت تعرف ما ينبغي قوله، ومتى يُقال، وإذ وقفَ السيد بونز هناك مُنصِتًا إليها، تتحدّث إلى أمّها،

تساءلَ إن لم يُقلّل ويلي من قُدرة بعض الأطفال. رُبّما لا تكون آليس هي القائد هُنا، ورُبّما لا يكون بوسعها اتّخاذ القرارات، ولكن كلماتها ضربتْ قلب الحقيقة مباشرةً، ولا بدَّ أنَّ لهذا أثره، وأن يقودَ الأمور في اتّجاهٍ دون الآخر.

"انظري إلى طَوقه، يا حبيبتي،" قالت المرأة. "رُبّما يكون هناك اسم أو عنوان عليه أو شيء ما."

كان السيد بونز يعلم تمام العلم أنه ما من شيءٍ هناك، بما أنَّ ويلي لم يكترث بالمرّة لتلك الأمور من قبيل استخراج الرُّخصة أو التسجيل الرسمي أو شارات الأسماء المعدنية المزخرفة. انحنتْ آليس إلى جانبه، وبدأت تُقلّب الطَّوْق المحيط برقبته، باحثةً عن علامات لهويّته أو هويّة مالكه، ولأنه كان يعلم من قبل ماذا ستكون الإجابة، انتفع باللحظة مُستمتِعًا بدفء أنفاسها التي تتردّد وراء أذنه اليمنى.

"لا، يا ماما،" قالت أخيرًا. "إنه مُجرّد طَوْق عادي، قديم وممسوح."

للمرّة الأولى خلال الفترة القصيرة التي عرفها فيها، رأى الكلبُ المرأة متردّدة، وتسلّل إلى عينَيْها انطباعٌ محدّد من الارتباك والحزن. قالت: "بالنسبة لي، لا مانع عندي، يا آليس. لكنْ، لا أستطيع أن أُعلن موافقة نهائية حتّى نتحدّث إلى والدكِ. تعرفين كم يكره المفاجآت. سوف ننتظر حتّى يعودَ للبيت هذا المساء، ثمّ سنناقشه معًا، اتّفقنا؟"

"اتّفقنا،" قالت آليس، بصوتٍ أقلّ حماسًا إزاء هذا الجواب غير الحاسم. "ولكننا ثلاثة مقابل واحد، حتّى لو رفض. فالعدلُ عدلٌ، صح؟ لا بدّ أن نحتفظ به وفقط، يا ماما. سوف أركع على ركبَتَيَّ وأصلّي ليسوع بقية اليوم، ليجعلَ بابا يوافق."

"ليس عليكِ أن تفعلي ذلك،" قالت المرأة. "إذا كنتِ تريدين تقديم العون حقًا، فسوف تفتحين الباب، وتدعي الكلب يخرج، بحيث يمكنه أن يهتمّ بأموره. وبعد ذلك، سنرى إن كان بوسعنا تنظيفه قليلًا. تلك هي الطريقة الوحيدة التي سينفع بها هذا الموضوع. لا بدّ أن يترك انطباعًا مبدئيًا جيّدًا."

ما هي إلا دقيقة أو أقلّ حتّى فُتحَ الباب لمِستر بونز. وبعد ثلاثة أيّام من البؤس والحرمان، دون تناوُل شيء أكثر من مقادير ضئيلة من الفتات والقمامة، والنبش والتفتيش عن أيّ شيء حقير يمكن أكله، فإن ثراء الوجبة التي استهلكها للتّوّ صدمَ معدته بقوّة صدمةٍ عصبية، وبعد أن عادت عصاراته الهضمية بكامل كفاءتها من جديد، مُضاعفةً وقت العمل ضعفَيْن أو ثلاثًا لاستيعاب الهجمة التي وقعت للتّوّ، كان كل ما يمكنه فعله ألّا يوسخ أرض المطبخ، فيتمّ إبعاده إلى منفى دائم. سار لما وراء مجموعة من الشجيرات، محاولًا أن يبقى بعيدًا عن الأنظار، ولكن آليس تبعتْهُ إلى هناك، وما جعله يشعر بخجلٍ وحَرج لا نهاية لهما، أنَّها كانت هناك لتشهد الانفجار المُريع للسائل الكريه الذي انبثق هادرًا من فتحة إسته، وتناثرَ فوق وَرق النباتات من تَحته. صدرَتْ عنها شهقة تقزُّز عندما حدثَ هذا، فانتابه خزيٌ بالغ مِن الإساءة إليها هكذا حتّى إنه للحظةٍ أو اثنَتَيْن تمنَّى لو استطاع أن ينكمش ويموت. غيرَ أن آليس لم تكن شخصًا عاديًا، ورغم أنه في ذلك الحين كان قد فَهِمَ ذلك تمامًا، فإنه لم يعتقد بالمرّة أنه من الممكن لها أن تقول ما قالتْه بعد ذلك. "يا للكلب المسكين!"، همهمتْ بصوتٍ مُشفِقٍ مغموم. "ألستَ في حالة مَرَضية رهيبة؟" تلك كانت جملتها كاملة – مُجرّد عبارَتَيْن قصيرَتَيْن – ولكنْ، عندما سمعَ السيد بونز آليس تنطق تلك الكلمات، أدركَ أن ويلي جي. كريسماس لم يكن

الوحيد في العالَم من ذوي القَدَمَيْن الذي يمكن الوثوق به. اتّضحَ أنه كان هناك آخرون غيره، وكان بعضهم صغيرًا جدًا.

انقضت بقية الأصيل في غَشاوةٍ غائمةٍ من المُتع والملذّات. حَمّموه بخرطوم الحديقة، وفركوا فراءه بكومةٍ شاهقة من الرغوة البيضاء، وراحت الأيدي السّتّ لرفاقه الجدد تدعكُ ظهره وصدره ورقبته، لم يملك إلّا أن يتذكّر كيف بدأ اليوم – وكم كان من العجيب والمبهم أن ينتهي على هذا النحو. ثمّ جفّفوا جسمه من الماء، وبعد أن نفضَ نَفسه ليجفّ، وركض حول الباحة بضع دقائق، وبالَ على شجيراتٍ وأشجارٍ عديدة على المحيط الخارجي لأرض الحديقة، جلستِ المرأة معه لما بدا أنه الوقت الأطول على الإطلاق، مفتّشة جسمه من القرّاد. وشرحتْ لآليس أن أباها قد علّمها كيف تفعل هذا في نورث كارولينا عندما كانت بنتًا صغيرة، وأن الوسيلة الوحيدة المضمونة والمؤكّدة هي استخدام الأظافير، وانتزاع تلك المخلوقات من أعلى رؤوسها. وما إن يُمسكها المرء لا يمكنه أن ينفضها جانبًا عن طرف إصبعه ببساطة، ولا يمكنه كذلك أن يدعَسَها تحت الأقدام. لا بدَّ من إحراقها بالنار، ورغم أنها لا تُشجِّع آليس بالمرّة أن تلعبَ بعيدان الثقاب، فهل تتلطَّف وتذهب إلى المطبخ بسرعة لإحضار علبة ثقاب أهاويو بلو تيبس مِن الدُّرْج الأعلى على يمين الموقد؟ فعلتْ آليس ما طُلبَ منها، وخلال الفترة الوجيزة التالية عكفتْ هي وأمّها على تفلية فراء السيد بونز معًا، وهما تقتلعان سلسلةً طويلة مِن القرادات المنتفخة بالدم، ثمّ تحرقان أولئك الأشقياء المذنبين في ألسنة اللهب الصغيرة لنيرانٍ فسفوريةٍ برّاقة. كيف يمكن ألا يشعر بالامتنان لذلك؟ كيف يمكن ألّا يسعد وينعم بإزاحة عبء هذا البلاء المُعذّب من الحكّة والحرقة عن نفسه؟ كان السيد بونز يشعر بارتياحٍ غامر لما كانا يفعلان من أجله حتّى إنه تغاضى عن ملاحظة

آليس التالية دونما اعتراض. أدرك أن الإساءة لم تكن مقصودة، ولكن ذلك لم ينفِ أنّ شعوره قد تأذّى.

قالت المرأة لها: "لا أريدكِ أن تُعلّقي آمالًا كبيرة، ومع ذلك، فقد لا تكون فكرة سيّئة أن نُعطي هذا الكلب اسمًا قبل أن يعود والدكِ إلى المنزل. سيجعله هذا يبدو كجزءٍ من الأسرة، فرُبّما يدعم ذلك موقفنا من الناحية النَّفْسية. تفهمين ما أقوله، يا حبّوبتي؟"

"أنا أعلم ما اسمه مِن قبل،" قالت آليس. "عرفتُ منذ اللحظة التي رأيتُهُ فيها." توقّفت البنت لحظة لتستجمع أفكارها. "أتذكرين ذلك الكتاب الذي كنتِ تقرأينه لي حينَ كنتُ صغيرة؟ كتابٌ أحمر وفيه صور وكل تلك القصص عن الحيوانات؟ كان هناك كلب في تلك القصص يُشبه هذا الكلب تمامًا. لقد أنقذَ طفلًا رضيعًا من داخل مبنى يحترق، وكان يستطيع أن يَعدّ من واحد حتّى عشرة. تذكرين، يا ماما؟ لقد كنتُ أحبّ ذلك الكلب. وعندما رأيتُ تايجر يحتضن هذا الكلب بجانب الشجيرات منذ قليل، بدا الأمر كأنه حلم يصير حقيقة."

"وماذا كان اسمه؟"

"سباركي. كان اسمه الكلب سباركي."

"لا بأس، إذنْ. سوف نُطلق على هذا سباركي، أيضًا."

عندما سمعَ السيد بونز المرأة توافق على هذا الاختيار التافه، شعرَ وكأنه لُدِغَ. كان من السيّئ له بما فيه الكفاية أن يعتاد على اسم كال، ولكن هذا كان يدفع الأمور لأبعد ممّا يُحتمَل. لقد عانى كثيرًا للغاية بتحمّل عبء

هذا الاسم الظريف الطفولي، اسم التدليل المفتَعل هذا والمستوحَى من كتاب مُصوَّر للأطفال، وحتّى إذا كُتبَ له أن يعيشَ بقدر ما عاشَ من عُمره إلى الآن، فقد كان يعلم أن كلبًا بمثل مزاجه الكئيب لن يتكيّف أبدًا مع اسمٍ كهذا، وأنه سوف ينكمش صاغرًا في كل مرّة سوف يسمعه على مدى ما تبقّى له من أيّام.

برغم ذلك، وقبل أن يتمكّن السيد بونز من أن يضعَ نفسه في ضيقٍ حقيقي، فقد اندلعتْ المشكلات من اتّجاهٍ آخر في الباحة. في أثناء الدقائق العشر الماضية، وبينما كانت آليس وأمّها تنتزعان تلك الآفات المغروسة في فرائه، ظلَّ السيد بونز يشاهد تايجر وهو يُسلّي نفسه بركل كرة شاطئ خفيفة عبرَ الباحة. وفي كل مرّة تندفع الكرة بعيدًا عنه، كان يجري خلفها بأقصى سرعة، وهو يبدو مثل لاعب كرة قَدَم مخبول، يلاحق كرة حجمها ضِعف حجمه. كان الولد لا يكلّ، غيرَ أن هذا لا يعني أنه لا يمكن أن يتعثّر ويؤذي إصبع قَدَمه، وحينما وقعتْ في النهاية الحادثة المحتومة، أطلق صرخة ألم حادّة، كانت مرتفعة بما يكفي لأن تطرد الشمس من السماء، وأن تُسقِط السحاب مُحطَّمًا على الأرض. تركتِ المرأة الإسعافات المُرهفة، لكي تعتني بالصبيّ، وإذ التقطتْهُ، وأخذتْهُ إلى داخل المنزل، التفتتْ آليس نحو السيد بونز، وقالت: "هكذا هو تايجر. تسعة أعشار الوقت، إمَّا يضحك أو يبكي، وحينَ لا يفعل لا هذا ولا ذاك، فلتكن على ثقةٍ تامّة أن شيئًا ما غريبًا سيحدث. سوف تعتاد ذلك، يا سباركي. عمره سنتان ونصف فقط، ولا يمكنكَ أن تتوقّع الكثير للغاية من الأولاد الصغار. اسمه الحقيقي تيري، ولكننا جميعًا ندعوه تايجر، لأنه عنيف جدًا في التعامل مع الآخرين. وأنا اسمي آليس. آليس إليزابيث جونز. عندي تسع سنوات إلّا رُبع، وبدأتُ صفّي الرابع توًا. وُلدتُ بثقوبٍ صغيرة في قلبي،

وأوشكتُ على الموت أكثر من مرّة عندما كنتُ صغيرة، أصغر حتّى من تايجر الآن. لا أذكرُ شيئًا من ذلك، ولكن ماما قالت إنني عشتُ، لأنَّ هناك ملاكًا يتنفّس بداخلي، وذلك الملاك سوف يواصل حمايتي إلى الأبد. ماما اسمها بولي جونز. كانت في السابق بولي دانفورث، ولكنها تزوّجتْ بابا، وغيّرت اسمها إلى جونز. بابا هو ريتشارد جونز. يدعوه الجميع دِك، وأغلب الناس يقولون إنني أُشبهه أكثر ممّا أُشبه ماما. إنه طيّار على خطوط جوّيّة. يقود الطائرات إلى كاليفورنيا وتكساس ونيويورك، وأنواع الأماكن كلها. مرّة، قبل أن يُولَد تايجر، أنا وماما سافرنا معه إلى شيكاغو. الآن نعيش في هذا المنزل الكبير. انتقلْنا إليه منذ شهور قليلة، لذا فمِن حُسن الحظّ أنكَ أتيتَ في هذا الوقت تحديدًا، يا سباركي. لدينا هنا غرفٌ كثيرة، وقد استقرّ بنا الحال جميعًا الآن، وإذا قال بابا إننا يمكن أن نحتفظ بكَ، فإن كل شيء هُنا سيكون ممتازًا ورائعًا."

كانت تحاول أن تُشْعرَه أنه موضع ترحيب، ولكن الأثر النهائي لتقديم آليس المشتّت لعائلتها كان إصابة السيد بونز بالذعر واضطراب معدته. كان مستقبله بين يَدَيَّ شخصٍ لم يره من قبل، وبعد الاستماع إلى التعليقات المتنوّعة التي قيلت حول هذا الشخص حتّى الآن، بدا من غير المُرجّح أن القرار سيكون في صالح الكلب. قوّة تلك المخاوف أرسلتْ السيد بونز ركضًا إلى أجمات الشجيرات من جديد، وللمرّة الثانية في غضون ساعةٍ، خذلتْهُ أمعاؤه. كان يرتعش من دون سيطرة، إذ تندفع فضلاته على الأرض، توسَّل لربّ مملكة الكلاب أن يرعى جسمه المسكين العَليل. لقد دخلَ إلى الأرض الموعودة، ووقعَ في عالمٍ من الأرض العشبية الخضراء والنساء الرقيقات والطعام الوفير، ولكنْ، إذا انتهت الأمور إلى أنه لا بدَّ أن يُطرَد خارج هذا المكان، فإنه يرجو فقط ألّا تطول عذاباته، فتتجاوز قدرته على الاحتمال.

في الوقت الذي وصلتْ فيه سيّارة دِك الفولفو إلى مدخل السّيّارات، كانت بولي قدّمتْ طعام العَشاء للطفلَيْن من قبل – همبرجر، وبطاطس مخبوزة في الفرن، وبسلّة محفوظة، وقد وجدَ بعضٌ من ذلك طريقه إلى فم السيد بونز – وقد كان أربعتهم بالخارج في الباحة من جديد، وآخر وقت الأصيل يسلّم نفسه لأوّل ساعات المساء، وامتلأت السماء بأولى لمسات الظلام المبرقشة. كان السيد بونز قد سمعَ بولي تُخبر آليس بأنّ رحلة الطيران من نيو أولينز من المفترَض أن تصل إلى مطار دولس في الرابعة وخمسة وأربعين، وإذا لم تتأخّر الطائرة، ولم تكن حركة المرور كثيفة للغاية، فلا بدَّ أن والدها سيصل إلى البيت في الساعة السابعة. مع دقائق أقلّ أو أكثر، كان ذلك هو الوقت الذي وصل فيه دِك جونز. كان قد غابَ لثلاثة أيّام، وعندما سمعَ الطفلان صوت السّيّارة تقترب، ركضَ كلاهما صارخَيْن من الباحة، واختفيا في جانبٍ آخر حول المنزل. لم تتحرّك بولي خلفهما. استمرّت في سَقي النباتات والزهور بهدوء، ولزمَ السيد بونز جانبها، غير مستعدّ لأن يدعها تغيب عن نظره. كان يعلم أن كل أمل قد تبدّد الآن، ولكنْ، إن كان هناك أيّ شخص يمكنه إنقاذه ممّا يوشك أن يقع، فقد كانت هي ذلك الشخص.

بعد دقائق معدودة، ظهرَ رجلُ البيت يسير في الباحة وتايجر في إحدى ذراعَيْه وآليس متعلّقة بالآخر، ولأنه كان يرتدي زيّه الرسمي كطيّار (سروال غامق الزرقة، وقميص فاتح الزرقة مزيّن بالكتفيات والشارات على الصدر) فقد ظَنّه السيد بونز شرطيًا. كان ذلك ارتباطًا تلقائيًا، وبعُمرٍ عاشه مع الخوف المغروس في تلك الاستجابة، لم يملك إلّا أن يتقهقر بينما يقترب دِك، حتّى رغم أنه يستطيع أن يرى بعينَيْه أن الرجل كان يضحك، وبدا سعيدًا حقًا أن يكون مع طفلَيْه من جديد. وقبل أن يتمكّن السيد بونز

من فَكّ تشابك هذه العقدة من الشكوك والانطباعات المتناقضة، وجدَ نفسه يندمج في الدراما الخاصّة باللحظة، ومن الآن فصاعدًا بدا أن كل شيء يحدث في اللحظة ذاتها. كانت آليس قد شرعتْ تتحدّث إلى أبيها عن الكلب منذ اللحظة التي خرج فيها من السّيّارة، وكانت لا تزال تفعل عندما دخل الباحة، وحيّا زوجته (قبلة روتينية على الخدّ)، وكُلّما ألحّتْ عليه، وأطرتْ بحماس بالغٍ على ذلك المخلوق الرائع الذي عثروا عليه، اشتدَّت بالمقابل حماسة شقيقها الصغير. صاح تايجر بكل ما رئَتَيْه من هواء "سباركي"، ثمّ انزلق من ذراع أبيه، وركضَ نحو السيد بونز، وألقى بذراعَيْه حول رقبته. لم ترغبْ آليس في أن يتفوّق عليها أخوها الذي تسهل هزيمته، فأتتْ لتشارك في المشهد هي أيضًا، لتقدِّم عرضًا مسرحيًا عظيمًا من العاطفة نحو الكلب وهي تغمره بمعانقات متكرّرة وقبلات ميلودرامية، ومع الطفلَيْن اللذَيْن يهرسانه فجأة بينهما هكذا، ويغطّيان أذنَيْه بأيديهما وصدرَيْهما ووجهَيْهما، فات عليه أن يسمع ثلاث أرباع الحوار المتبادل بين الشخصَيْن البالغَيْن. ولعلَّ الشيء الوحيد الذي سمعه بقَدْرٍ من الوضوح كان جملة دِك الافتتاحية. "هذا هو إذنْ الكلب المشهور، هه؟ يبدو لي مخلوقًا في حالة مؤسفة."

بعد ذلك، لم يكن بوسع أحد أن يخمِّنَ ماذا حدثَ حقًا. رأى بولي وهي تدير فوّهة الخرطوم، فتوقّف تدفّق المياه، ثمّ قالت شيئًا لدِك. أغلب ما قالتْهُ لم يكن مسموعًا، لكنْ، من المفردات والعبارات المعدودة التي نجحَ السيد بونز في التقاطها، فَهِمَ أنها كانت تعرض قضيّته: "دخلَ شاردًا للباحة عصرَ اليوم،" "ذكيّ"، "يظنّ الطفلان.."، وعندئذٍ، بعدَ أن ردَّ عليها دِك بشيءٍ ما، "ليس لديّ أدنى فكرة. رُبّما يكون فَرّ من سيرك." بدا الحديث مشجّعًا للغاية، ولكنْ، بمُجرّد أن أفلح في تخليص أذنه اليسرى من

قبضة تايجر ليسمع المزيد، طَرحتْ بولي الخرطوم أرضًا، وسارت مبتعدة مع دك في اتّجاه المنزل. توقّفا على مبعدة خطوات قليلة من الباب الأمامي، وواصلا حديثهما هناك. كان السيد بونز على يقين مِن أن أمورًا مصيرية تتحدّد الآن، ولكنْ، برغم تحرّك شفاههما لم يعد بوسعه أن يسمع كلمة ممّا يقولان.

كان بوسعه أن يرى أن دِك كان ينظر نحوه، ومع ذلك، يومئ نحوه بين الحين والآخر بإشارة غامضة من يده بينما واصل حديثه مع بولي، ومِستر بونز الذي بدأ يشعر بشيءٍ من الملل بالعرض العاطفي الخشن الذي شرعَ فيه كلٌّ من تايجر وآليس، راح يتساءل أليست فكرة طيّبة أن يأخذ زمام المبادرة، ويفعل شيئًا ما يساعد به نفسه بدلًا من الاكتفاء بالوقوف هنالك بينما يتأرجح مستقبله بين كفَّتَي ميزان؟ لمَ لا يُجرِّب أن يثير إعجاب دِك بفعلٍ مقدام من أفعال الكلاب، حيلة لكلبٍ فريد من نوعه تحوّل الريح في الاتّجاه المنشود؟ كان صحيحًا أن السيد بونز في غاية الإنهاك، وكان صحيحًا أن معدته لا تزال تؤلمه وأقدامه تشعر بوَهن شيطاني، ولكنه لم يسمح لتلك الأمور بأن تمنعَهُ من أن يثبَ في موضعه، وينطلق كالسهم نحو الطرف الآخر للباحة. صاحَ كل من تايجر وأليس من المفاجأة، وركضا وراءه، وبمُجرّد أن أوشكا على الإمساك به، قفز مبتعدًا عنهما من جديد، وعلى الفور، انطلق عائدًا إلى الجهة التي أتى منها للتوّ. ومن جديد، ركضا وراءه، ومن جديد انتظر حتّى كادا يلحقا به ويضعا أيديهما عليه قبل أن يثبَ بعيدًا. لم يندفعْ في الركض السريع المفاجئ على هذا النحو منذ دهورٍ، ولكنْ، حتّى وهو يعلم أنه كان يضغط على نفسه أكثر ممّا يجب، وأنه في نهاية الأمر سوف يدفع ثمن هذا من أوجاعه، واصل اللعبة، فخورًا بتعذيب نفسه من أجل تلك القضية النبيلة. بعد ثلاث أو أربع دورات

مماثلة عبر الباحة، توقّف في منتصف الباحة، وشرعَ يلاعبهما لعبة خدعة البطّ – النسخة الكلابية منها – وبرغم أنه لم يعد يقوى على التقاط أنفاسه تقريبًا، رفض أن يتوقّف إلّا وقد استسلم الطفلان وانطرحا هامدَيْن على الأرض أمامه.

في تلك الأثناء، كانت الشمس قد أخذت تغيب، وتوشّت السماء بشرائطٍ من سحبٍ وردية، وصار الهواء أبرد. الآن وقد انقضت نوبة المرح واللهو، بدا أن دِك وبولي مستعدَّيْن لإعلان حُكمهما. وإذ رقدَ السيد بونز لاهثًا على العشب مع الطفلَيْن، رأى الشخصَيْن البالغَيْن يستديران بعيدًا عن المنزل، ويسيران عائدين إلى الباحة، وبينما لم يكن واضحًا بالمرّة له إن كان اندفاعه المسعور لإظهار المعنويات العالية كان له أيّ أثر على النتيجة، فقد استمدَّ شجاعةً من بَسمة الرضا الصغيرة التي ارتسمتْ على حافَّتَي فم بولي. "يقول بابا إن سباركي يمكنه البقاء،" هكذا قالت، ووثبتْ آليس ناهضة من الأرض، واحتضنت أباها، وانحنت بولي لتأخذ بين ذراعَيْها تايجر نصف النائم، وبهذا بدأ فصلٌ جديد من حياة السيد بونز.

وبرغم ذلك، فقبل أن يندفع أيّ شخص نحو الاحتفال، قاطعهم دِك ببضع نقاطٍ إضافية – أي تلك الشروط التي تُكتَب في نهاية العقود بخطوطٍ صغيرة عَسى ألّا تُلاحَظ. ليست المسألة أنه لا يريد أن يفرح الجميع، هكذا قال، ولكنْ، في الوقت الراهن لا بدَّ أن يكون مفهومًا أنهم سيحتفظون بالكلب "على سبيل التجربة" فقط، وما لم تنطبقْ شروطٌ محدّدة على الصفقة – وهُنا وجّه نظرةً طويلة وقارسة نحو آليس – فسوف تُلغَى تمامًا. أوّلًا: ليس مسموحًا للكلب تحت أيّة ظروف أن يدخل إلى المنزل. ثانيًا: لا بد من أخذه إلى الطبيب البيطري لإجراء فحص شامل. وإن لم يتبيّن أنه

بصحّةٍ طيّبة لدرجة مقبولة، فسيكون عليه أن يذهب. ثالثًا: في أقرب فرصة ممكنة، لا بدَّ من ترتيب زيارة لحلّاق حيوانات محترف. فالكلب كان بحاجة إلى قصّ شَعْر، وغسيل بالشامبو، وتقليم أظافير، جنبًا إلى جنب فحص شامل لأي قرّاد وقمل وبراغيث تسكنه. رابعًا: لا بدّ أن يتمّ تثبيته. خامسًا: ستكون آليس هي المسؤولة عن إطعامه وتغيير وعاء الماء له – من دون أيّ زيادة في مصروف جيبها نظير الخدمات المُقدَّمة.

لم يكن السيد بونز يملك أدنى فكرة عمّا يعنيه قوله "يتمّ تثبيته"، لكنه فَهِمَ كل شيء آخر، وإجمالًا لم يبدُ الأمر بالغ السوء، رُبّما باستثناء النقطة الأولى حول عدم السماح له بالدخول إلى المنزل، بما أنه فشلَ في فَهْم كيف يمكن لكلبٍ أن يصبحَ جزءًا مِن حياة أسريّة، إن لم يكن له الحقّ في دخول منزل تلك الأسرة. لا بدَّ أن آليس كانت تتساءل حول الأمر ذاته، فبمُجرّد أن وصل والدها إلى البند الأخير على لائحته، شاركت في النقاش بسؤالٍ. "وماذا يحدث عندما يحلّ فصل الشتاء؟" سألتْ. "لن نتركَهُ بالخارج هُنا في البرد، أليس كذلك، يا بابا؟"

"بالطبع لن نفعل،" قال دِك. "سف نضعه في المرأب، وإذا ظلَّ الجوّ أبرد من اللازم هُناك، فسوف ندعه يمكث في القبو. أنا فقط لا أريده أن أجدَ شَعْره على أثاث البيت جميعه، هذا هو الأمر كله. ولكننا سنعدّ له إقامة لطيفة حقًا هُنا بالخارج، لا تقلقي. سوف نُقدّم له بيت كلب من الدرجة الأولى، وسوف أعدُّ له مسارًا للركض بمَدّ سلك ما بين هاتَيْن الشجرَتَيْن هنالك. سيكون عنده مساحة وفيرة ليمرحَ ويشبَ فيها، وما إن يعتادها سيكون في غاية السعادة. لا تشعري بالأسف نحوه، يا آليس، فهو ليس إنسانًا، بل كلباً، والكلاب لا تطرح أسئلة. إنهم يرضون بما يحصلون

عليه." بعد هذه الملاحظة الحاسمة، وضع دِك يده على رأس السيد بونز، وضغطَ عليها بقبضةٍ رجولية شديدة، كما لو كان يُثبت أنه ليس بالزبون الذي يصعب إرضاؤه على كل حال. قال: "أليس ذلك صحيحًا، يا عمّ؟ لن تشتكي من شيء، صح؟ تعرف أن الحظّ حالفكَ معنا هنا، وآخر ما تريده هو أن تُفسدَ هذا الحظّ."

كان رجلًا يعرف كيف يتدبّر أموره بكل ثقة، دِك هذا، ورغم أن اليوم التالي كان الأحد – وهو ما يعني أنّ كلًا من الحلّاق والبيطري لا يعملان – نهضَ مبكّرًا، وأخذ سيّارة بولي الفان حتّى متجر الأخشاب، وبعد ذلك أمضى وقت الصباح والأصيل وهو يجمع أجزاء منزل كلب مُسبَق التصنيع (نموذج ممتاز، مع إرشادات التجميع) وتثبيت مسارَ ركض في الباحة الخلفية. من الواضح أنه ينتمي إلى تلك الفئة من الرجال الذين يسعدهم أن يسحبوا السّلّم المتنقّل من هنا إلى هناك، ودقّ المسامير في ألواح الخشب أكثر ممّا يُسعدهم الدردشة مع الزوجة والأطفال. كان دِك رجل أفعال وحركة، جندي في الحرب المشتعلة ضدّ البطالة والتكاسل، وإذ أخذ السيد بونز يراقبه وهو يعمل في سرواله القصير الكاكي اللون، ويرى العرق يلتمع على جبينه، لم يملك إلّا أن يعدّ هذا النشاط علامةً طيّبة. فقد كان معناه أن كل كلام أمس بخصوص الاحتفاظ به "على سبيل التجربة" لم يكن أكثر من تظاهر خادع. لقد دفعَ دِك من جيبه أكثر من مائتَي دولار على هذه التجهيزات والمعدّات الجديدة. ثمّ كدحَ وعرقَ في حرارة الشمس خلال الجزء الأكبر من اليوم، ولن يرغب في تضييع عمله أو نقوده سُدىً. لقد نزل إلى الماء الآن، وبقدر ما يمكن لمِستر بونز أن يعرف، فإمّا ينتظره الغَرَق أو السباحة من هذه النقطة لما يليها، ثمّ ما يليها.

في الصباح التالي، طاروا جميعًا في اتّجاهاتٍ مختلفة. توقّفتْ حافلة أمام المنزل في الثامنة إلّا الربع، وأخذت آليس إلى المدرسة. بعد أربعين دقيقة من ذلك، غادرَ دِك إلى المطار في زيّ الطّيّار الرسمي، وبعد ذلك، وقبل التاسعة بقليل، ثبّتتْ بولي تايجر في المقعد المخصّص للأطفال في سيّارتها الفان، وأخذتْهُ إلى مجموعة اللعب النهارية الخاصّة به. لم يستطعْ السيد بونز أن يُصدِّق ما كان يحدث. أهذا ما ستكون عليه الحياة ها هنا؟، تساءل. هل سيهجرونه هكذا بكل بساطة في الصباح، ويتوقّعون منه أن يعتني بنفسه طوال النهار؟ بدا الأمر أشبه بمزحة بذيئة. كان كلبًا مخلوقًا للرفقة، لحياة الأخذ والعطاء مع الآخرين، وكان بحاجةٍ لمَنْ يلسمه، ويتحدّث إليه، لأن يكون جزءًا من عالَم لا يقتصر عليه وحده. فهل مشى إلى آخر الدُّنيا، وعثرَ على هذه الجنّة المباركة فقط لكي يُنبَذ ويُهمَل من الأشخاص أنفسهم الذين قبلوا احتضانه؟ لقد جعلوا منه سجينًا. قيّدوه إلى ذلك السِّلك المطّاطي الجهنّمي، وأداء التعذيب المعدنية هذه بصريرها المتواصل وطنينها المزعج، وكُلّما تحرّك، فإن الأصوات البغيضة تتحرّك معه – كأنما لتذكّره بأنه لم يعد حُرًا، بأنه باع حقوقه الطبيعية والأصيلة في مقابل لُعبة رخيصة على صورة منزل كلاب قبيح جاهز التصنيع.

في اللحظة ذاتها التي بدا له أنه رُبّما يندفع ويقوم ببعض الأفعال المتهوّرة على سبيل الانتقام – أن ينتزعَ أزهار الحديثة، مثلًا، أو يعضعض لحاء شجرة الكرز الصغيرة – عادت بولي إلى البيت، وعلى غير توقّع دخلت إلى الممرّ بسيّارتها الفان، فتبدّل لونُ العالَم مِن جديد. لم تكتفِ بأن تخرجَ إلى الباحة، وتُحرّره من قيوده، ولم تكتفِ بأن تدعه يتبعها إلى داخل المنزل، ثمّ إلى الطابق العلوي وغرفة نومها، لكنها أطلعتْهُ بينما تبدِّل ثيابها، وتمشِّط شَعْرها، وتضع مساحيق زينتها، بأنه ستكون هناك مجموعتان من

القواعد الخاصّة به عليه أن يتذكّرها: قواعد دِك، وقواعدها هي. حينما يكون دك في المنزل، فإنّ السيد بونز لا بدّ أن يلتزم بالوجود خارج المنزل، ولكن عندما يذهب دِك تكون هي المسؤولة، وكان معنى ذلك أن الكلب مسموحٌ له دخول المنزل. قالت بولي: "ليس الأمر أن نواياه غير طيّبة، ولكن ذلك الرجل يمكنه أن يكون غليظ الرأس أحيانًا، وما إن يثبّت عقله على شيءٍ ما، فإن أيّ محاولة منكَ لإقناعه بالعدول عنه ستكون مُجرّد وقت ضائع. هكذا هي الحياة مع أسرة جونز، يا سباركي، وما من شيءٍ واحد لعين يمكنني فعله حيال ذاك. كل ما أطلبه هو أن تحفظ هذا الاتّفاق الصغير في صدركَ، إنه سرّنا، ولا حتّى الصغيرَيْن لهما أن يعرفنا ما اتّفقنا عليه. تسمعني، أيّها العجوز؟ هذا الأمر بيني وبينكَ فقط."

لكنَّ ذلك لم يكن كل شيء. فكما لو أن هذا الإعلان للتضامن والتعاطف لم يكن كافيًا، ففي وقتٍ تالٍ من هذا النهار نفسه، استقلّ السيد بونز سيّارة للمرّة الأولى منذ نحو عامَيْن. لم ينكمش منقبضًا على الأرضية في الخلف، حيث كان موضعه غالبًا فيما مضى، بل في الأمام على المقعد المجاور للسائق، جالسًا في راحة، والنافذة مفتوحة وهواء فيرجينيا العليل يرتطم بوجهه. كان شعورًا ساميًا بالأمان والحماية أن يطوي الطريق طيًا على هذا النحو، وإلى جانبه الرائعة بولي أمام عجلة قيادة البلايموث فوياجر وحركة السّيّارة تدمدمُ داخل عضلاته، وأنفه يختلج بجنون مع كل رائحة عابرة. وعندما اتّضح له فجأة أن رحلة السّيّارة هذه سوف تكون جزءًا من روتينه الجديد، امتلكَه إحساسٌ بالروعة والجلال نحو المستقبل الذي يلوحُ أمامه. كانت الحياة مع ويلي جيّدة، لكنْ، رُبّما كانت هذه الحياة أفضل. فقد كانت الحقيقة المؤسفة أنَّ الشعراء لا يقودون سيّارات، وحتّى عندما يسافرون ينتقلون سيرًا على القَدَمَيْن، ولا يعرفون على الدوام إلى أين كانوا ذاهبين.

زيارة الحلّاق كانت تجربة أليمة بعض الشيء، لكنه تحمّل الهجمات المتكرّرة من الصابون والمقصّات بأفضل ما استطاع، غير راغبٍ في التّذمّر بعد تلك الطيبة كلها التي أُغدقتْ عليه. عندما انتهوا منه بعد ساعةٍ ونصف، خرج من بين أيديهم كلبًا مختلفًا تمامًا. وداعًا لكُتل الفراء المتدلّية من عراقيبه، وللنتوءات البارزة أعلى كاهلَيْه، وللشَّعْر الساقط كستارةٍ على عينَيْه. لم يعد صعلوكًا شريدًا، لم يعد مثيرًا للحرج، لقد تغندر وتأنّق، وتحوّل إلى كلب برجواي من المدينة، وإذا كانت جدّة التحوّل الذي طرأ عليه يدفعه للإعجاب بنفسه والتفاخر ولو قليلًا، فمَن يلومه إذا اغتبطَ لحظّه السعيد؟ "واو"، قالت بولي عندما أخذوه أخيرًا بالخارج إليها. "لا شكّ أنهم صنعوا منكَ مخلوقًا يدير الرؤوس، صحيح؟ أتعرف أيّها الشرارة الكهربية، الخطوة التالية لكَ ستكون هي الفوز بجوائز في مسابقات جمال الكلاب."

بعد أربع وعشرين ساعة، ذهبا إلى الطبيب البيطري. كان السيد بونز مسرورًا بفرصة ركوب السّيّارة مرّة أخرى، ولكنه قد صادفَ في حياته من قبل بعضًا من أولئك الرجال ذوي المعاطف البيضاء، وكان يعرف عن الإبر وميزان الحرارة والقفّازات المطّاطية، يعرف ما يكفي لكي يشعر برهبة حيال ما ينتظره. لطالما كانت السّيّدة جيورفيتيش هي الشخص المسؤول عن ترتيب مواعيد زياراته تلك في الماضي، ولكنْ، بعد وفاتها، ظلَّ السيد بونز متحرّرًا من كرب المزيد من التعامل معِ مقدّمي الرعاية الطّبّيّة عمومًا. فقد كان ويلي إمَّا مفلسًا تمامًا، أو ناسيًا تمامًا، بحيث لا يتجشّم عناء ذلك، وبما أنَّ الكلب كان لا يزال حيًا بعد أربع سنوات من عدم زيارته للطبيب، فلم يستطعْ أن يرَ جدوى إجراء فحص له الآن. إن كنتَ مريضًا لدرجة الاحتضار، فما من طبيب بقادرٍ على إنقاذكَ. وإن لم تكن مريضًا،

فلماذا نسمح لهم بتعذيبكَ وخزًا ونخسًا فقط لكي يقولوا لنا إن صحّتكَ على ما يرام؟

كان هذا الأمر ليكون رهيبًا، لولا وجود بولي معه في أثناء الفحص الطّبّيّ، تُمسكه بين ذراعَيْها، وتُطمئنه بصوتها الناعم الحبيب. وحتّى مع عَونها له، ظلَّ يرتعش وينتفض خلال الزيارة بكاملها، وقد قفز عن الطاولة ثلاث مرّات، وركض نحو الباب. كان اسم الطبيب بيرنسايد، والتر أ. بيرنسايد، ولم يُخفِّف من المشقّة أنّ ذلك الدّجّال أبدى لُطفه نحوه. لقد رآه السيد بونز وهو ينظر إلى بولي، وقد شمّ رائحة الإثارة الجنسية على جِلد الطبيب الشّابّ. كانت هي المقصودة بلُطفه، ولم تكن محبّة الكلب إلّا حيلة، وسيلة لكسب وُدّها وإثارة إعجابها بتفهّمه ومهارته. لم يكن مهمًا أنه وصفَ السيد بونز بالكلب الحكيم، ومسّد على رأسه، وضحكَ من محاولاته للهرب. فما فعل هذا كله إلّا ليقترب من بولي، ورُبمّا حتّى يمسّ جسدها مسًا خفيفًا، وبولي، المستغرقة تمامًا في الاهتمام بأمر الكلب، لم تلحظْ حتّى ما الذي كان يسعى إليه ذلك السافل.

"ليس سيّئًا،" قال الطبيب أخيرًا. "مع الأخذ في الاعتبار كل ما عاناه."

"إنه جوّال عجوز صلب،" قالت بولي، وهي تضع قبلة بين عينَي السيد بونز. "ولكن معدته مأساة. أكره مُجرّد التفكير في الأشياء التي لا بدّ قد دخلتْ إليها."

"سيكون بخير ما إن تُعدّي له نظامًا غذائيًا ثابتًا، ولا تنسي أن تعطيه أقراص الديدان. في غضون أسبوع أو اثنَيْن، ومن المؤكّد تقريبًا أنك سترين تحسّنًا كبيرًا."

شكرتْ بولي الطبيبَ، وعندما تصافحتْ هي وبيرنسايد في طريقها للخروج، لم يستطع السيد بونز إلّا أن يلحظ أن (سِنيور ناعم) قد احتفظ بيدها في يده وقتًا أطول ممّا ينبغي. وعندما ردّ تحيّة بولي المهذّبة بقوله "سُعدتُ بكِ، وتحتَ أمركِ."، انتابتِ الكلب رغبة حادّة مفاجئة في أن يقفز ويعضّ ساقه. استدارت بولي لكي تغادر. وإذ كانت تفتح الباب تمامًا، أضاف الطبيب: "تحدَّثي مع جون في الاستقبال. وسوف تُحدّد لكِ موعدًا من أجل المسألة الأخرى."

"لم تكنْ فكرتي"، قالت بولي. "لكنْ، هكذا يريد زوجي."

"إنه على صواب،" قال بيرنسايد. "هذا يُبسِّط الأمور أكثر، وعلى المدى البعيد، سيجعل سباركي أكثر سعادة."

عادَ دِك إلى البيت ليلة الخميس، ما جعلَ نهار الجمعة ذلك أشدّ إملالًا ممّا كانت عليه النهارات السابقة. لا مزيد من ساعات الرفاهية المختَلسة التي يقضيها في المنزل. لا مزيد من الجلوس في الحمّام يشاهد بولي وهي تستحمّ. لا مزيد من البيض المخفوق. لا مزيد من الحليب المُحلَّى من أوعية حبوب فطور الطفلَيْن. في الأحوال العادية، كان يمكن لخسائر على هذا القدر من الجسامة أن تُؤلمه، لكنْ، في صباح يوم الجمعة ذلك على الخصوص لم تثرْ فيه أكثر من وَخزة أسفٍ حزينة. كان لدى السيد بونز الآن أملٌ، وكان يعلم أنّه ما إن يغادر دِك في أصيل يوم الأحد، فسوف يُفتَح الباب له من جديد. وجدَ عزاءً في هذه الفكرة، ورغم أن السماء أمطرتْ مطرًا خفيفًا في ذلك اليوم، وأخذ الهواء يميل للبرودة مع تباشير الخريف، استقرّ مُقامه في منزل الكلب الخاصّ به، بصحبته عَظْمة من المطّاط كانت بولي قد اشترتْها من أجله من حلّاق الكلاب، وأخذ يعضّها،

بينما كانت الأسرة تتناول فطورها بالداخل. سمعَ صوت حافلة المدرسة تأتي وتذهب، سمعَ السّيّارة الفان تبتعد، وعندئذٍ، في الوقت الفاصل قبل عودة بولي، ظهرَ دِك، وسارَ في باحة البيت، ليلقي عليه التحية. ولا حتّى ذلكَ عكّر شعوره بالرضا. بدا الطّيّار في مزاج رائق ومبتهج ذلك الصباح، وعندما أطرى السيد بونز على قصّة شَعْره الجميلة، وسأله عن أحواله معهم، تجاوزَ الكلب في كرم عن شكوكه ناحيته، واستجابَ له بأن لَعَقَ يده في تحفُّظ وأناقة الرجال النبلاء. وقال لنفسه إنه لا يملك ضغينة نحو دِك، كل ما هنالك أنه أشفقَ عليه، لأنه لا يعرف كيف يستمتع بحياته. العالم حافلٌ بتلك الروائع والمدهشات، وإنه لمن المؤسف أن يقضي رجلٌ وقته قلقًا بشأن الأمور غير الصحيحة.

كان السيد بونز يتوقّع وقتًا طويلًا يمرّ بطيئًا، واستعدَّ لتلك الساعات السابقة على عودة الطفلَيْن للبيت، بأن يفعل أقلّ ما يمكن: أن ينعسَ قليلًا، أن يعضَّ على العظمة، أن يتمشّى قليلًا في الباحة، إذا ما انقطع المطر. كان التكاسل والتراخي هو المهمّة الوحيدة على جدول أعماله، لكن دِك ظلَّ يذكر كم كان هذا يومًا مهمًا، وظلَّ يعزف على وتر أنَّ "ساعة الجدّ قد حانت أخيرًا،" وبعد فترةٍ، بدأ السيد بونز يتساءل إن كان قد فاته شيءٌ ما. لم يكن لديه أدنى فكرة عمَّا كان يتحدث، لكنْ، بعد تلك التصريحات الغامضة كلها لم يُفاجئه بالمرّة أنّه، ما إن رجعتْ بولي من توصيل تايجر، طُلبَ منه القفز إلى السّيّارة والخروج في رحلةٍ أخرى. كان الأمر مختلفًا، بطبيعة الحال، الآن ومع وجود دِك معهما، ولكنْ، مَنْ كان هو ليحتجّ على تغييرٍ طفيف للنظام المتّبع؟ كان دِك في مقعد السايق، وبولي جلست بجانبه، ومِستر بونز في الخلف، راقدًا على منشفة شاطئ، وضعها دِك من تحته لحماية السّيّارة من شَعْر الكلب المتساقط. لم يكن من الممكن

إنزال زجاج النافذة في الخلف، ممّا قلّل من متعة الرحلة بدرجةٍ مُعتبرة، ورغم ذلك، فقد استمتع بمُجرّد الحركة، وإجمالًا فضَّل أن يكون هُنا على أن يظلَّ في موضعه السابق بالباحة.

أحسَّ رغم ذلك أنّ الأمور لم تكن هادئة بين الزوجَيْن. وإذ تواصلت الرحلة، صار من الواضح أنّ بولي كانت مكبوتة على غير عادتها، تُحدِّق عبر النافذة عن يمينها بدلًا من النظر نحو دِك، وبعد فترة بدا أن صمتها هذا يُثبط من معنويات دِك هو أيضًا.

"اسمعي، يا بولي"، قال، "أنا آسف. لكنّ هذا في مصلحته حقًا."

"لا أريد أن أتحدّث عن هذا،" قالت. "لقد اتّخذتَ قرارَك، وهكذا انتهى الأمر. أنتَ تعرف رأيي، فما جدوى أيّ جدال بعد ذلك؟"

"وكأنني الشخص الوحيد الذي فكّر في هذا الأمر على الإطلاق،" قال دِك. "إنه أمرٌ مُتّبع وشائع."

"حقًا؟ وماذا سيكون قولكَ إذا فعلَ شخصٌ ما هذا بكَ أنتَ؟"

أطلقَ دِك صوتًا يتأرّجح ما بين النخرة والضحكة. "وبعد، يا حبيبتي؟ كفاكِ مِن هذا. إنه كلب. لن يعلمَ حتّى بما حدث له."

"أرجوكَ، يا دِك. لا أريد أن أتحدّث عن هذا."

"ولمَ لا؟ إذا كنتِ منزعجة مِن–"

"لا. ليس أمامه. هذا ليس عَدلًا."

ضحكَ دِك مرّة أخرى، ولكنْ، هذه المرّة خرجت الضحكة كنوعٍ من

الاندهاش الصاخب، قهقهة كبرى تنمّ عن عدم التصديق. "لا بدّ أنكِ تمزحين!" قال. "قصدي، يا يسوع المسيح، أننا نتحدّث عن كلب، يا بولي!"

"فلتعتقد ما شئتَ. ولكني لن أقول كلمة أخرى عن الأمر في هذه السّيّارة."

ولم تقلْ كلمة. ولكنَّ ما قد قيلَ كان كافيًا لأن يساورَ القلق السيد بونز، وعندما توقّفت السّيّارة أخيرًا، ورأى أنهم قبالة المبنى نفسه الذي زاره هو وبولي صباحَ الثلاثاء، المبنى نفسه الذي يضمّ بين مكاتبه عيادة الطبيب البيطري دكتور والتر أ. بيرنسايد، علمَ أن شيئًا فظيعًا على وشك أن يحدث له.

وقد حدث. والأمر الغريب أن ذِك كان مُحقًّا، فلم يَدرِ السيد بونز على الإطلاق ما الذي أصابه. خدّروه بإبرة في ردفه، وبعد إجراء الاستئصال، ثمّ أخذه إلى السّيّارة، كان لا يزال ضائعًا بدرجةٍ لا يدري معها أين كان – فضلًا عمّنْ كان هو، أو إن كانَ موجودًا. لاحقًا فقط، عندما خفَّ أثر التخدير، بدأ يشعر بالألم الذي حَلَّ به، لكنه حتّى عندئذٍ كان غافلًا تمامًا عن سببه. كان يعرف الموضع الذي ينبعث منه الألم، لكنّ ذلك أمرًا مختلفًا عن معرفته بما وراء ذلك، ورغم أنه كان عاقدَ العزم تمامًا على تفقّد البقعة المَعنية، فقد أجَّلَ المهمّة لوقتٍ تالٍ، مدركًا أنه يفتقر القوّة اللازمة لأن يثني جسده ليصبح في الوضع الملائم. كان قد صارَ في بيت الكلب الخاصّ به عندئذٍ، ممددًا على جانبه الأيمن، وبولي على ركبَتَيْها أمام الباب المفتوح، تُمسّد رأسه، وتُطعمه بيدها – شرائح لحم قليلة السواء، ومُقطّعة قطعًا صغيرة. كان للّحم نكهة استثنائية، غير أنه في الحقيقة لم يكن يملك أيّ شهية في

تلك اللحظة، وإن كان يتقبّل ما يُقدَّم له، فما ذلك إلّا لإسعادها. كان المطر قد توقّف الآن. غادر دِك مع تايجر في مكانٍ ما، وكانت آليس لا تزال في المدرسة، لكن وجوده مع بولي كان مريحًا بما فيه الكفاية، وإذ واصلت تمسيد رأسه، وتطمينه بأن كل شيء سينتهي على ما يرام، تساءل ما الذي قد حدث له بحقّ جنهم؟ ولماذا ينتابه هذا الألم البالغ؟

في الوقت المناسب، تفقّد الضرر، واكتشف أن شيئًا ما مفقود، ولكنْ، لأنه كان كلبًا، وليس عالِم أحياء أو أستاذاً في التشريح، فقد ظلَّ غافلًا تمامًا عما قد وقع له. نعم، كان من الصحيح أن الكيس الصغير قد صار خاويًا الآن والرفيقَتَيْن القديمَتَيْن قد اختفتا، ولكنْ، ماذا كان معنى هذا بالتحديد؟ لطالما استمتعَ بلَعق ذلك الجزء من جسمه، بل في الحقيقة اتّخذه عادةً ثابتة بقدر ما يستطيع أن يتذكّر، ولكنْ، بخلاف الكُريَّتَيْن الرقيقَتَيْن بدا كل شيءٍ آخر في تلك المنطقة سليمًا سالمًا. أنَّى له أن يعلم أن تلك الأجزاء المفقودة كانت هي المسؤولة عن جَعْله أبًا مرّاتٍ عديدة؟ باستثناء علاقة الأيّام العشرة التي ربطتْه بجريتا، الكلبة المَلموت من مدينة آيوا، فقد كانت غرامياته دائمًا قصيرة الأجل – مضاجعات مندفعة، نزوات مرتجلة، تقلّبات مسعورة في القَشّ – ولم يسبق له قَطّ أن رأى جروًا واحدًا ممّا أنسلَ. وحتّى لو رأى أحدها، كيف له أن يكون قادرًا على عقد الصلة؟ لقد حوّله دِك جونز إلى خَصيّ، ولكنْ، في عينَي نفسه كان لا يزال أمير الغرام، رُوميو الفصيلة الكلبية، وأنه سوف يواصل التّودّد إلى السّيّدات حتّى يُطلق نَفَسَ الاحتضار الأخير. ولمرّةٍ واحدة، زاغَ منه الجانب المأساوي لحياته. كان الألم الجسدي هو الشيء الوحيد الذي له أهمّيّة، وما إن يتبدّد، فلن يعيد التفكير في تلك العَملية ولو مرّة واحدة.

مرَّت أيّامٌ أخرى. استقرّ داخل الإيقاع المنتظم للحياة المنزلية، واعتاد الأشياء المتنوّعة التي تأتي وتذهب من حوله، وصار يفهم الفارق بين أيّام الأسبوع العادية وأيّام العطلة الأسبوعية، بين صوت حافلة المدرسة في مقابل صوت شاحنة شركة خدمة الطرود المتّحدة، روائح الحيوانات التي تعيش بين أشجار الغابة المحاذية لباحة المنزل: السناجب والراكون وقوارض الصيدناني الصغيرة ذات الخطوط والأرانب، والطيور بأشكالها جميعها. صار يعلمُ الآن أن الطيور لا تستحقّ المشقّة، لكنْ، كُلّما اقتحم المرجة مخلوق من غير ذوي الأجنحة كان يُكلّف نفسه بمهمّة مطاردة اللئيم خارج الملكية، مندفعًا نحوه في نوبةٍ هائجة من النباح والزمجرة. عاجلًا أو آجلًا، سوف ينتبهون لحقيقة أنه مقيّد بذلك السِّلك اللعين، لكنَّ حضوره يُروّع أغلبهم حتّى الآن بما يكفي لأن تظلّ اللُعبة ممتعة. باستثناء القطّ، بالتأكيد، لكنْ، هكذا كان الحال مع القطط على الدوام، وذلك الأسود من منزل الجيران قد اكتشف بالفعل طولَ الرَّسن المطّاطي الذي يُشدّه إلى السِّلك بكل دقّة، ما يعني أنه قد أدرك الحدود التي تنتهي عندها قدرة السيد بونز على الحركة في كل نقطة من الباحة. وكان ذلك المتطفّل السّنّوري يتّخذ على الدوام موقعًا مصمّمًا ليحقّق الحدّ الأقصى من الإحباط: على مسافة بوصات قليلة من نطاق الكلب. لم يكن بوسع السيد بونز أيّ شيءٍ حيال هذا. فإمَّا أن يقفَ هناك، وينبح حتّى تنفجرَ رأسه، بينما يطلق الكلب هسهسته عليه، ويُصوّب مخالبه نحو وجهه، وإمَّا أن يتراجع إلى بيته، ويتظاهر بتجاهل القطّ، وحتّى عندئذٍ كان ابن القحبة ينطّ على السقف، ثمّ يروح ينشب مخالبه في ألواح خشب الأرز السّميكة من فوق رأسه تمامًا. كان هذان هما البديلان الوحيدان: أن يُخدَش أو يُسخَر منه، وفي الحالتَين كلتَيْهما كانت القضية خاسرة. من ناحيةٍ أخرى،

كانت هناك معجزات صغيرة محدّدة من الممكن رؤيتها من داخل بيت الكلب نفسه، لا سيما في الليل. ثعلبٌ فضي، على سبيل المثال، أدبرَ هاربًا عبرَ المرج في الثالثة صباحًا، واختفى قبل أن يتمكّن السيد بونز من تحريك عضلة واحدة، طابعًا في عقله صورة تتخلّف بعد تبدّد الأصل، صورةً بلغتْ في اكتمالها ذروة الحدّة والصفاء، بحيث استمرّت تعاوده لأيّامٍ فيما بعد: طيفٌ من انعدام الوزن والسُّرعة، تألّق حياة البَرّيّة مكتملاً بلا شائبة. بعد ذلك، في ليلةٍ من أواخر سبتمبر، ظهر ذلك الظبي الذي خطا خارجًا من وسط الأشجار، داعسًا وسط العشب لعشرين أو ثلاثين ثانية، ثمّ جفلَ فجأة لضجّة سيّارةٍ بعيدة، فارتمى في الظلمة من جديد، تاركًا آثار سحجات كبيرة في المرج، ظلّت هناك حتّى الأسبوع التالي.

لقد نمَا في نفسه ولعٌ مفرط بذلك المرج – ملمسه القطيفي المبطّن، والجنادب تتقافز للوراء وللأمان وسط سيقان العشب الخضراء، رائحة الأرض تصعد إليكَ أينما ولّيتَ وجهكَ، وبمرور الوقت، أدركَ أنّه لو كان هناك شيء واحد يتقاسمه هو ودِك، فإنها هذه المحبّة العميقة غير العقلانية للمرج. كانت الرابطة التي جمعتهما، ولكنها كانت أيضًا مصدر خلافاتهما الفلسفية الأعظم شأنًا. لدى السيد بونز، كان جمال المرج هبةً ربّانية، وشعرَ بأنها يجب أن تعامَل كأرضٍ مقدّسة. وكان دِك مؤمنًا بهذا الجمال هو أيضًا، ولكنه عرفَ أنه ثمرة جهدٍ إنساني، وإن كان له أن يبقى، فلا بدّ من بذل رعاية ومثابرة لا نهاية لهما. كان المصطلح الرسمي هو صيانة المرج، وحتّى منتصف نوفمبر لم يمرّ أسبوعٌ واحد من دون أن يكرّس دِك نهارًا كاملاً على الأقلّ دون العَمل على تشذيب وجزّ مَرْج العشب على طول مساحة الرّبع فدّان. وكان لديه ماكينته الخاصّة لذلك – عربة برتقالية وبيضاء تبدو هجينًا وَسَطًا ما بين عربة الجولف وجرّار مُتقزِّم – وفي كل مرّة

يدير فيها المحرّك، كان يساور السيد بونز يقينٌ بأنه على وشك أن يموتَ. لقد كره ضجيج تلك الماكينة الغريبة، وكره احتدامَ دفقاتها وفأفأتها التي تنشقّ لها أذناه، وكره روائح الجازولين التي تخلّفها في كل ركنٍ من الجوّ. كان يختبئ في بيته، كُلّما زأر دِك خارجًا إلى الباحة راكبًا ذلك الشيء، وكان يدفن رأسه تحت البطّانيّات في جهدٍ بلا طائل، لكي يصمّ أذنَيْه، ولكنْ، لم يكن هناك مَهرب في الحقيقة، ولا حلّ آخر إلّا أن يفرّ هاربًا من الباحة تمامًا. ولكن دِك كانت عنده قواعد، وبما أن السيد بونز يُفترَض به أن يكون في الباحة، فقد تظاهر حضرة الطيّار بأنه لا يلاحظ معاناة الكلب. كانت الأسابيع تتوالى، والهجمات تتواصل على أذنيَ السيد بونز، ولم يستطعْ مَنع نفسه من مراكمة نقمةٍ مُؤكّدة نحو دِك لرفضه أن يضعَ وجوده في الاعتبار.

لم يكن هناك شكّ أن الأمور كانت أفضل عندما يغادر دِك. كانت هذه حقيقة من حقائق الحياة، وقد تعلَّم أن يتقبّلها تمامًا كما قد تعلّم من قبل أن يتقبّل المعاملة القاسية من السّيّدة جيورفيتيش. ففي البداية، كانت عدوانيّتها نحوه واضحة تمامًا، وامتلأ عامه الأوّل في بروكلين بلطماتٍ موجعة على الأنف ونوبات توبيخ غاضبة من العجوز عسيرة الإرضاء، وهكذا تفاقمت الضغينة على الجانبَيْن كلَيْهما. لكنْ، ألم يتغيّر هذا كله؟ لقد كسب مودّتها في نهاية الأمر، ومَنْ يدري إن كان الأمر نفسه لن يحدث مع دِك أيضًا؟ وحتّى يحدث ذلك، حاولَ ألّا يفكّر في الأمر أكثر من اللازم. كان لديه ثلاث أشخاص يحبّهم الآن، وبعد أن أمضى حياته كلها ككلب لرجلٍ واحد، كان هذا أكثر ممّا يكفي. حتّى تايجر كان قد بدأ يُبشِّر بالخير، وما إن يتعلّم المرء كيف يبقى بعيدًا عن أصابعه الصغيرة القارصة، فيمكن أن تكون صُحبته ممتعة حقًا – ما دامت بجرعاتٍ صغيرة. أمَّا مع آليس، في المقابل، فمهما كانت الجرعات كبيرة لم تكن يُشبَع منها. وكَم تمنّى لو

مكتبة

كانت قادرة أن تقضي معه مزيدًا من الوقت، لكنها كانت تغادر إلى تلك المَدرسة المزعجة طوال اليوم، إلى جانب دروس ما بعد المدرسة لرقص الباليه كل ثلاثاء، ودروس البيانو كل خميس، فضلاً عن الفروض المنزلية التي عليها أن تقوم بها كل مساء، وهكذا فإن زياراتها خلال أيّام الأسبوع له كانت تقتصر غالبًا على حديث موجز في الصباح المبكّر – بينما تسوّي بطّانيّاته، وتعيد ملء أوعية طعامه ومائه – ثمّ ما بعد عودتها إلى البيت، في الوقت الذي يسبق العَشاء مباشرةً، عندما تقدّم له تقريرًا بما جرى لها منذ الصباح، وتسأله عن يومه، وكيف مضى. كان ذلك أحد الأمور التي يحبّها للغاية فيها: طريقتها في التّحدّث إليه، إذ تنتقل بهدوء من نقطةٍ إلى نقطة من دون أن تُغفل أيّ جزئية، وكما لو أن قدرته على فَهْم ما تقول ليستْ مَوضع سؤالٍ بالمرّة. كانت آليس تعيش أغلب وقتها في عالم كائناتٍ خيالية، وقد اصطحبتْ السيد بونز إلى ذلك العالَم، واتّخذتْه شريكًا ومرافقًا، وأعطتْهُ دورَ البطولة الرجالي الأوّل أمامها. وكانت أيّام السبت والأحد حافلةً بتلك الارتجالات الحمقاء. فكان حفل الشاي الذي حضراه في قلعة البارونة دي دانويتي، وهي سيّدة جميلة إنما خطرة تضع خطّةً انتهازية، لتستولي على مملكة فلوريانيا. وكان هناك زلزال المكسيك، وكان هناك الإعصار على صخرة جبل طارق، وكان هناك تحطّم السفينة الذي طرحهما على شواطئ جزيرة نيمو، حيث كان الغذاء الوحيد المتاح هو لُبّ الأغصان الصغيرة وقشور جوز البلّوط، ولكنْ، إذا تمكّنتَ من العثور على ذلك الزاحف الليلي المسحور، والذي يعيش تحت سطح الأرض، والتهمتَه في قضمةٍ واحدة، فسوف يهبُ لكَ القدرة على الطيران. (ابتلعَ السيد بونز دودة أعطتْها هي له، وبعد أن تشبّثتْ آليس بظهره، حلّق في الهواء، وهربا من الجزيرة.)

كان تايجر هو الركض والقفز، وكانت آليس هي الكلمات ولقاء العقول. كانت الروح المسنّة في جسدٍ غَضّ، والتي استطاعت بكلامها أن تُقنعَ والدَيْها ببقائه، ولكنه الآن بعد أن أمضى بعضَ الوقت بينهم، أدركَ أنّ بولي هي مَن في أمس الحاجة إليه. فبعد عشرات الصباحات من تتبّعها من هنا إلى هناك، ومن الإنصات إلى ما تُخبره به ومراقبة ما تفعل، فَهِمَ السيد بونز أنّها كانت سجينة ظروفها، بقدر ما كان هو تمامًا. كانت في الثامنة عشرة فقط حينما التقتْ بدِك، وقد انتهتْ للتّوّ مِن المدرسة الثانوية، ولكي تكسب بعضَ المال قبل أن تبدأ الدراسة في مدينة تشارلوت في نورث كارولاينا مع حلول الخريف، كان عليها أن تعمل بوظيفة نادلة خلال الصيف في مطعم مأكولاتٍ بَحْرِيّة في مدينة الإسكندرية بولاية فيرجينيا. في المرّة الأولى التي دخلَ فيها دِك المطعم، وجد نفسه يطلب منها الخروج معه في موعد. كان يكبرها بتسعة أعوام، وقد رأتْه في غاية الوسامة والثقة بالنفس، فتركتْ نفسها تنجرف معه أبعدَ ممّا انتوتْ في البداية. استمرّتْ العلاقة الرومانسية لثلاثة أو أربعة أسابيع، ثمّ عادتْ إلى نورث كارولاينا، لتبدأ الدراسة ما قبل الجامعية. كانت تُخطِّط للحصول على درجة في التعليم، وأن تصبح معلّمة مدرسية، ولكنْ، بعد شهرٍ واحد فقط من فصلها الدراسي الأوّل اكتشفتْ أنها كانت حامل. أبلغتْ والدَيْها النبأ، فاستشاطا غضبًا. قالا لها إنها ساقطة، وإنها حطّت عليهما العَار باستهتارها، ثمّ رفضا أن يُقدِّما لها أيّ عَون – ما سبّب صَدعًا في الأسرة، لم يلتئم تمامًا بالمرّة، ولا حتّى بعد تسع سنواتٍ من الاعتذارات وإبداء الندم مِن الجانبَيْنْ كلَيْهما. لم يكن الأمر أنها رغبتْ في الزواج مِن دِك، ولكنْ، بعد أن أدار لها والدها ظهره، إلى أين كان عساها أن تذهب؟ قال دِك إنه يحبّها، وواصلَ قوله لها إنها كانت أجمل وأروع فتاة على وجه الأرض،

وبعد أشهرٍ من التذبذب للوراء والأمام، ومِن الغرق في أشدّ الافتراضات يأسًا (عملية إجهاض، التخلّي عن الطفل للراغبين في التبنّي، الاحتفاظ بالطفل، ومحاولة الاعتماد على نفسها)، انحنتْ تحت وطأة الضغوط، وهجرت الدراسة، لتتزوّج مِن دِك. وقالتْ لنفسها إنها ستكون قادرة على العودة للدراسة ما إن يكبر الطفل بما يكفي، لكنّ آليس وُلدتْ بمجموعة كاملة من المشكلات الطِّبّيّة، وخلال الأعوام الأربعة التالية كانت حياة بولي قاصرة على الأطبّاء، والمستشفيات، والجراحات التجريبية، وطَوافٍ بلا نهاية بين العلاجات والاستشارات لإبقاء ابنتها على قيد الحياة. كان هذا إنجازها الذي تفتخر به أكثر من أيّ شيء آخر كإنسانة، هكذا أخبرتْ السيد بونز ذات صباح – كيفَ عكفتْ على رعاية آليس، وانتزعتْها من الموت – ولكنْ، بما أنها لم تكن هي نفسها سوى فتاة صغيرة في ذلك الحين، فقد تساءلتْ إن لم يُجفِّف ذلك منابع قوَّتها إلى الأبد. وما إن صارت آليس معافاة بما يكفي لأن تذهب إلى المدرسة، بدأت بولي تفكّر بشأن عودتها هي نفسها إلى الدراسة، ولكنْ، عندئذٍ حملتْ بتايجر، واضطرّتْ لإرجاء دراستها مرّة أخرى. والأرجح الآن أنّ الأوان قد فات. كان دِك قد بدأ يجني نقودًا جيّدة، وحين يضافُ راتبه إلى بعض الاستثمارات التي قام بها، فقد كانوا في حالٍ ميسورة الآن. لم يُردْ لها أن تعمل، وكُلّما قالت إنه رُبّما يكون من اللطيف أن تعمل على كل حال، كان دائمًا ما يجيبها بالرّدّ نفسه. إنَّ لديها بالفعل وظيفة، قال. كان العمل كزوجة وأمّ وظيفة شاقّة بما فيه الكفاية لأيّ امرأة، وطالما ظلّ قادرًا على رعايتها، فلماذا يجب تغيير الأمور لمُجرّد تغييرها؟ ثمّ بعد ذلك، ولكي يُبرهن على مقدار حبّه لها، ذهبَ وابتاع لها هذا المنزل الكبير البديع.

كانت بولي تحبّ المنزل، لكنها لم تكن تحبّ دِك. وقد صار هذا

ظاهرًا بكل جَلاء لعينَي السيد بونز، حتّى ولو أنّ بولي نفسها لم تكن تدري به بعد، ولن يمضي وقتٌ طويل قبلَ أن تنزل الحقيقة أخيرًا فوق رأسها كالصاعقة. لهذا السبب كانت تحتاجُ إلى السيد بونز، ولأنه أحبّها أكثر من أيّ شخصٍ حَيّ في العالم كله، كان يُسعده أن يكون كاتم أسرارها، والوحيد الذي تتأمّل أمامه أفكارها بصوتٍ مسموع. لم يكنْ هناك أيّ شخصٍ آخر، ليملأ هذا الدور من أجلها، ورغم أنه كان مُجرّد كلب، ليس بوسعه أن يُواسيها، ولا أن يجيب أسئلتها، فمُجرّد حضوره كحليفٍ لها كان يكفي لمَنحها الشجاعة حتّى تتّخذ خطواتٍ محدّدة رُبّما ما كانت لتخطوها من غيره. رُبّما لم يكن وَضع قواعدها الخاصّة بشأن السماح له بدخول المنزل شأنًا خطيرًا، لكنه كان بطريقته الصغيرة عملًا مُتحدّيًا لسُلطة دِك، نموذجًا ميكروسيكوبيًا للخيانة الذي قد يقود، في الوقت المناسب، إلى خياناتٍ أضخم وأهمّ. كان كلّ مِن السيد بونز وبولي يعلمان أن دِك لم يرغبْ بدخوله إلى المنزل، وقد أضافَ هذا الحُكم المبرم متعةً إلى زياراته، وأضفى عليها طابعَ الخطورة والاستراق، كما لو كان هو وبولي شريكَيْن متواطئَيْن في ثورة بالقَصر للإطاحة بالمَلك. وانجرف السيد بونز رغمًا عنه إلى حرب أعصاب ونزاعاتٍ كامنة مثل النار تحت الرماد، وكُلّما امتدّ وجوده هناك، صار الدور الذي يلعبه أشدّ خطورة وحسمًا. فبدلًا من أن يتجادلَ دِك وبولي حول أمورهما، صارا الآن يتجادلان بشأنه هو، مُستخدِمَيْن الكلبَ ذريعةً، ليدافع كلٌ منهما عن قضيّته المنفصلة، ورغمَ أن السيد بونز نادرًا ما اطّلع على تلك الأحاديث بينهما، فقد عرفَ ما فيه الكفاية مِن سَماع بولي تتحدّث إلى أختها عبرَ الهاتف ليعلمَ بأن بعض المعارك الضارية قد نشبتْ على حسابه. وكانت مناوشة الشَّعْر-على-السجّادة مُجرّد مثال. حرصتْ بولي على الدوام أن تزيل آثار السيد بونز من المنزل عندما يكون دِك على وشك

الرجوع، تستعمل بكل مثابرة واجتهاد المكنسة الكهربائية في كل بقعةٍ مرّ بها الكلب، بل إنها تنزل على يَدَيْها وركبَتَيْها إذا لزمَ الأمر، وتستعين بقطعٍ من الشريط اللاصق الشفّاف، لتنزع أيّ شعرات شاردة، هربت من شَفط الماكينة. رغم ذلك، حدث ذات مرّة، عندما لم تؤدّ واجبها على خير وجه، أن اكتشفَ دِك بضعة خيوط واهية من فراء السيد بونز مفرودة على سجّادة غرفة المعيشة. وكما روتْ بولي الواقعة لأختها بيج في دورهام، تلك الجُرئيات من الرَّغب أدَّتْ إلى مواجهةٍ فظّة وطويلة. "يسألني دِك ما الذي تفعله تلك الشُّعيرات هناك؟" قالت، وهي جالسة على مقعد عالٍ من مقاعد المطبخ مدخّنةً إحدى سجائر الصباح النادرة، "فأقولُ له إنني لا أعلم، رُبمّا سقطتْ عن الطفلَيْن. ثمّ يصعد للطابق الأعلى، ويدخل غرفة النوم، فيجد واحدةً أخرى على الأرض بجانب الكومود. يخرج ممسكًا بالشيء بين أصابعه، ويقول، أظنّ أنكِ لا تعلمين عن هذا أيضًا، فأقول لا، ولماذا عليَّ أن أعرف؟ رُبمّا أتتْ من فرشاة سباركي. فرشاته؟، يقول دِك، وماذا تفعل فرشاته في غرفة النوم؟ كنتُ أنظّفها، أقول له، بأقصى درجة ممكنة من الهدوء، ما الفرق في ذلك؟ لكن دِك لم يدع الأمر ينتهي على ذلك. كان لا بدَّ أن يصل إلى قاع اللُّغز، وهكذا يواصل الضغط. لماذا لم تنظّفيها في الباحة؟ يقول، حيث المكان المُفترَض لذلك؟ لأن السماء كانت تمُطر، أقول، وأنا أضيف كذبتي الرابعة عشر إلى هذا الحوار. إذنْ، لماذا لم تنظّفيها في المرأب؟، يسأل. لأنني لم أرغب في ذلك، أقول. الظلام مُطبق هناك. وهكذا، يقول، وقد بدأ يغلي بالغضب الآن، جررتِ فرشاة الكلب، ونظّفتيها على الفراش. صحيح، أقول، نظّفتُها على الفراش، لأنّ هذا ما راقَ لي أن أفعله، فيقول، ألا ترين أن هذا شيء مقرف، يا بولي؟ ألا تعرفين كم أبغض ذلك؟ إنني أؤكّد لكِ، يا بيج، أنَّ الأمر استمرّ على

هذا المنول لعشرة دقائق أخرى. هذا الهُراء التافه كله، يدفعني للجنون أحيانًا. لا يمكنني احتمال الكذب عليه، ولكنْ، ماذا عسى أن أفعل غير هذا عندما نبدأ تلك النزاعات الغبية؟ إنه مُماحِكٌ بمعنى الكلمة، ذلك الرجل. قلبه في المكان الصحيح، لكنه ينسى نصف الوقت أين قلبه حقًا. يا يسوع. لو أنني أخبرتُهُ أنني أدع الكلب يدخل المنزل،فسوف يُطلّقني على الأغلب. سوف يحزم حقائبه، ويخرج هكذا بكل بساطة."

تلك كانت المَعْمَعَة الزوجية التي وجدَ السيد بونز نفسه يتعثّر بها. وآجلًا أو عاجلًا، لا بدَّ أن هذا سوف يُسفِرُ عن أمرٍ ما، ولكنْ، إلى أن تستيقظَ بولي، وتفيق لنفسها، وتطرد أخيرًا هذا المحارب حامل الرمح خارج البيت، فسوف يبقى الجوّ مشحونًا بالمكائد والأحقاد الدفينة، الخُطط والخُطط المضادّة للحُبّ المحتضر. فعلَ السيد بونز ما في وسعه كله، ليتكيّف مع هذا كله. ورغم أن الكثير لا يزال جديدًا عليه، ورغم أن أمورًا عديدة لا تزال بحاجة لدراسةٍ وفَهْمٍ، فإن تقلّبات الحياة الزوجية لبولي لم تشغل إلّا حيّزًا ضئيلًا من طاقاته. لقد قدّمتْهُ أسرة جونز إلى عالَمٍ مختلف عن ذلك الذي عرفه مع ويلي، ولا يمرّ يومٌ واحد من دون أن يخامرَه كشفٌ مفاجئ أو تساوره غصّةٌ عابرة ندمًا على ما فاته في حياته السابقة. ليس الأمر فقط الرحلات اليومية بالسّيّارة، ولا كان الوجبات المنتظمة أو انعدام وجود القرّاد والبراغيث في معطف فرائه. بل أيضًا حفلات الشواء في الفناء الخلفي للمنزل، وعظام شرائح لحم البقر تُعطى له ليقرمها، والخروج أيّام الإجازة الأسبوعية للتنزّه بجانب بِركة واناشيبي، ثمّ السباحة مع آليس في الماء لطيف البرودة، ذلك الإحساس الكُلّيّ بفخامة رخاء العيش الذي ضمّه، واكتنفه. لقد نزلَ بأمريكا أخرى، أمريكا المرأب الذي يتّسع لسيّارَتَيْن، وقروض الإصلاحات المنزلية، ومتاجر التسوّق العملاقة المبنية على طراز

عصر النهضة الجديد، والحقُّ أنه ليس لديه ما يعترضُ عليه. دائمًا ما شنّ ويلي الهجوم على تلك الأشياء كلها، شجبها وندّد بها بطريقته الكوميدية المتحاملة، لكن ويلي كان يطلّ عليها من الخارج، وقد رفضَ أن يمنح أيًا منها فرصة، ويجرّبه. أمَّا الآن، وقد اطّلع عليها السيد بونز من الداخل، تساءلَ أين كان يكمن خطأ سيّده القديم؟ ولماذا اجتهدَ للغاية لكي يستنكفَ عن زخرف الحياة الطيّبة ومباهجها؟ قد لا يكون كل شيءٍ مثالياً وكاملاً في هذا المكان، ولكنّ فيه الكثير ممّا يستحق الثناء والاستحسان، وما إن يعتاد المرء على آلية عمل النظام لا يعود من المهمّ إن كان مَربوطًا إلى سِلك مطّاطيّ طوال اليوم. وعندما تقضي هناك فترة شهرَيْن ونصف تكفّ حتّى عن الانشغال بأن اسمكَ هو سباركي.

٥

كان مفهوم الإجازة العائلية مجهول تمامًا بالنسبة له. عندما كان جروًا فيما مضى في بروكلين، سمع السّيّدة جيوروفيتش أحيانًا تستخدم كلمة إجازة، ولكنْ، بطريقة لا يمكن لها أن ترتبط أبدًا بكلمة عائلة. فقد كانت السّتّ ماما تتوقّف فجأة عن أعمالها المنزلية، وتَغطس في الأريكة، وتُلقي قَدَمَيْها على منضدة القهوة أمامها، وتُطلق تنهيدةً طويلة حارّة. وتقول: "هذا يكفي، أنا في إجازة." ووفقًا لهذا الاستخدام، بدت الكلمة مرادفًا لأريكة، أو لعلّها كانت طريقة بسيطة وأكثر أناقة لوصف فِعل الجلوس. في الحالَتَيْن كلتَيْهما، لم يكن لها أيّ صِلة بالعائلات – ولا صلة كذلك بفكرة السفر. كان السّفر هو ما يفعله مع ويلي، وفي خلال السنوات جميعها التي قضياها على الطريق معًا، لا يمكنه أن يتذكّر مثالًا واحدًا مرّتْ فيه كلمة إجازة عبر شَفَتَيّ سيّده. رُبّما كانت الأمور لتختلف إن كان ويلي لديه يعمل في وظيفة تدرّ دخلًا منتظمًا في مكانٍ ما، ولكنْ، باستثناء عدد محدود من الوظائف الغريبة التي التقطها عَرَضًا على طول الطريق (كَنس الأرضيات في بار في شيكاجو، موصّل رسائل تحت التمرين مقابل الحصول على طَقم ثياب كامل في فيلادلفيا)، فقد كان دائمًا لا رئيس عمل له إلّا نفسه. كان الوقت يتدفّق من دون شيءٍ يقاطعهما، ولا حاجة لتُقيم أيّام التقويم إلى فترات عمل وفترات راحة، ولا لزوم لملاحظة الأعياد الوطنية، ومواعيد الذكرى السنوية، أو أيّام المناسبات الدِّينية، لقد عاشا في عالمٍ منفصل،

متحرّر من مراقبة حركة العقارب، وعَدّ الساعات وهو ما يستولي علي جُزءٍ مُعتَبر من وقت كل شخصٍ آخر. اليوم الوحيد من العام الذي كان يبرز متمايزًا عن الأيّام الأخرى كان الكريسماس، ولكن الكريسماس لم يكن إجازة، بل كان يوم عمل. فما إن يحلّ الخامس والعشرين من ديسمبر، وبصرف النظر عن مقدار ما قد يشعر به ويلي من إجهادٍ أو مِن صداع أثر الشراب، فقد كان على الدوام يدخل في زِيّ سانتا كلوز الخاصّ به، ويقضي اليوم سائرًا في الشوارع، موزّعًا الأمل وناشرًا رُوح العيد والبهجة. كانت طريقته الخاصّة لتكريم أبيه الروحي، هكذا قال، لتذكُّر العهد الذي اتّخذه على نفسه بالنقاء والتضحية بالنَّفْس. لطَالما وجدَ السيد بونز حديث سيّده عن السلام والأخوّة رخوًا قليلاً بالنسبة لذائقته، لكنّ المؤلم حقًا أنه كان يرى أحيانًا نقود عشائهما تنتهي بين يَدَيَّ شخصٍ يبدو أيسر حالًا منهما، كان يعرف أن ثمّة منهجاً لجنون ويلي. الخير يجلب خيرًا؛ والشرّ يجلبُ شرًا؛ وحتّى إن قوبلَ الخير الذي تُقدِّمه بالشّرّ، فلا خيار أمامكَ سوى مواصلة بذل أفضل ممّا أعطيتَ. وإلّا – وتلك كانت كلمات ويلي حرفيًا – فأيّ جدوى للاستمرار في العَيش؟

كانت آليس هي أوّل مَنْ تحدّثتْ إليه مستخدمةً عبارة إجازة عائلية. كان يوم الأحد التالي بعد عيد الشُّكر، وقد خرجتْ للتّوّ إلى الباحة، ومعها كيس بلاستيكي شفّاف ممتلئ ببقايا الديك الرومي وحشوته – مزيد من معجزات مطبخ بولي الأبيض. قبلَ أن تُفرغ آليس الطعام في وعائه، قرفصتْ أرضًا إلى جانبه، وقالت: "رتّبنا كل شيء، يا سباركي. سوف نذهب في إجازة عائلية. الشهر القادم عندما آخذ إجازة من المدرسة، سوف يأخذنا بابا إلى عالَم ديزني." بدتْ في غاية السعادة والحماس، فافترضَ السيد بونز أنها أخبار طيّبة، وبما أنّه لم يكن مُستبَعَدًا قَطّ من كلام آليس عندما

تتحدّث بصيغة نحنُ، فقد وجدَ نفسه مُهتمًا بالطعام الذي كان على وشك أن يأكله أكثر من التبعات الممكنة لهذا المصطلح الجديد عليه. لم يقتضِ منه الأمر سوى أكثر من ثلاثين ثانية، ليأتي على بقايا الديك الرومي، ثمّ بعد أن لعق نصف وعاء ماء، تمدّد على العشب، وأنصتَ إلى آليس بينما كانت توافيه بالتفاصيل كلها. سوف يحبّ تايجر رؤية ميكي ماوس ودونالد دَك، قالت، ورغمَ أنها قد كبرتْ على أمور الأطفال تلك، فإنها تذكر كم أحبَّتْها عندما كانت صغيرة، هي أيضًا. كان السيد بونز يعرف مَن كان شخصية ميكي ماوس هذا، وبناءً على ما نما إلى علمه، فلم يكن منبهرًا للغاية. مَن سمعَ ذات يومٍ عن فأرٍ لديه كلب كحيوانٍ أليف؟ كان هذا شيئًا مُضحكًا حقًا، إساءة للذوق السليم والمنطق الرشيد، انحراف عن النظام الطبيعي للأشياء. أيّ أحمق يمكنه أن يخبركَ أنّه ينبغي أن يحدث العكس. المخلوقات الكبيرة تسود على الصغيرة، وإن كان هناك شيء واحد هو على يقينٍ منه في هذا العالَم، فهو أن الكلاب أكبر حجمًا من الفئران. فكم كان أمرًا محيرًا له، آنذاك، وهو مفترش العشب في أصيل ذلك الأحد من أواخر نوفمبر، أن يسمع آليس تتحدّث بكل تلك الحماسة عن رحلتهم الوشيكة. بكل بساطة لم يستطعْ أن يفهم لماذا قد يرغب الناس في السفر مئات الأميال لمُجرّد مشاهدة فأر مزيّف. رُبمّا لم تكن الحياة مع ويلي حافلة بالمزايا، لكنْ، لا يستطيع أحدٌ أن يتّهم السيد بونز بأنه لم يُجرِّب السفر. فقد ذهبَ إلى كل مكان، وفي زمانه رأى كل شيء تقريبًا. رُبمّا لا يكون من حقّه قول هذا، بالطبع، ولكنْ، إذا كانت أسرة جونز تتطلّع لزيارة مكانٍ مثير للاهتمام، فكل ما كان عليهم فعله هو أن يسألوه، وسوف يقودهم عن طيب خاطر إلى عشرات المواقع البديعة.

لم يُقَل أيّ شيء بشأن الموضوع خلال ما تبقّى من الإجازة الأسبوعية.

ورغم ذلك، ففي صباح الاثنَيْن، وعندما سمعَ الكلب بولي تتحدّث إلى شقيقتها على الهاتف، أدركَ إلى أيّ حدّ قد أساء فَهْم ما أخبرتْهُ به آليس. لم تكن الرحلة قاصرة على قيادة السّيّارة لرؤية الفأر، ثمّ الرجوع من حيث أتوا، والتوجّه إلى البيت، كانت رحلة أسبوعَيْن مِن الإزعاج والانتقال. طائرات وفنادق، سيّارات مستأجرة ومُعدّات غطس، حجز مطاعم وخصومات للعائلات. لم تكن هناك فلوريدا فقط، بل كانت هناك نورث كارولاينا أيضًا، وبينما أنصتَ السيد بونز إلى بولي وهي تناقش ترتيبات قضاء الكريسماس في دورهام مع أختها بيج، انتبه أخيرًا إلى أنه أيًا كان المكان الذي سوف تقصده هذه الأسرة لقضاء إجازتها، فإنه لن يكون معهم.

"نحتاج لراحة،" قالت بولي، "وربّما سوف يفيدنا هذا. مَنْ يدري، يا بيج؟ ولكني مستعدّة لأن أُجرِّب. لقد تأخّرتْ دورتي عشرة أيّام، وإذا اتّضحّ أن ما أظنّه قد حدث، فسيكون عليَّ التفكير بسرعة." ثمّ أضافت، بعد صمتٍ قصير: "كلّا. لم أُخبره بعد. لكنّ هذه الرحلة كانت فكرته، وأنا أحاولُ أن أعدّها علامة مُبشِّرة." تلا ذلك صمتٌ آخر، ثمّ سمعَ أخيرًا الكلمات التي فسّرتْ له المعنى الحقيقي لمصطلح الإجازة العائلية: "سوف نضعه في مأوى للكلاب. يُفترَض أن ثمّة مأوى لطيف على مسافة عشرة أميالٍ من هنا. شكرًا لتذكيري بهذا، يا بيج. من الأفضل أن أشرع في الإجراءات على الفور، فتلك الأماكن تصير مزدحمة بشكل فظيع في فترات الكريسماس."

لبثَ واقفًا هُناك في انتظار أن تُنهي حديثها، يرمقها بإحدى تلك النظرات الكئيبة، نظرة تجلُّد رواقية، اعتادت الكلاب أن تُوجِّهها للبشر منذ أربعينَ ألف سنة. "لا تقلقْ، يا شرارة الكهرباء،"، قالت له وهي تضع سمّاعة الهاتف. "إنهما أسبوعان لا أكثر. وقبل أن تشعر بافتقادنا سنكون قد عدنا بالفعل." ثمّ انحنتْ، لتمنحه عناقًا، وأضافت: "على كل حالٍ، أنا

سوف أفتقدكَ أكثر ممّا سوف تفتقدني أنتَ. لقد سكنتَ تحت جلدي، يا كلبي العجوز، ولم أعد أستطيع العيش من دونكَ."

لا بأس، فسوف يعودون. كان واثقًا تمامَ الثقة من ذلك الآن، لكنّ هذا لا يعني أنه لا يُفضّل أن يذهبَ معهم. ليس لأنه يشعر برغبة عارمة لأن يُحبَس في غرفة فندق في فلوريدا أو أن يُشحَن مع الأمتعة في رحلات الطيران، لكنَّ المبدأ نفسه هو ما ضايقه. لم يتركْه ويلي ويذهب من دونه قَطّ، ولا مرّة واحدة، ولا تحت أيّة ظروف، ولم يكن معتادًا على هذا النوع من التعامُل. رُبّما يكون قد دُلّل حدَّ الإفساد، لكنْ، وفقًا لقواعده الخاصّة لا تقتصر سعادة الكلاب على شعورهم بأنهم مرغوبون. لا بدَّ للكلب أن يشعر بأنه لا يمكن الاستغناء عنه.

لقد كانت انتكاسة، لكنه في الوقت ذاته كان يعلم أنها ليست نهاية العالم. لقد تعلّم ذلك الآن، وقد تساوتْ عنده الأمور جميعها، وأغلب الظّنّ أن السيد بونز سوف يتعافى من شعوره بخيبة الرجاء، ويقضي فترة سجنه بروحٍ طيّبة وخاضعة. وعلى أيّ حال، لقد اجتازَ شدائد أسوأ من هذا، لكنْ، بعد أن تلقّى النبأ السيّئ بثلاثة أيّام، أحسّ بأولى وخزاتٍ عديدة مؤلمة في بطنه، وخلال الأسبوعَيْن ونصف التاليَيْن امتدّت الآلام إلى عجزَيْه، وأطرافه، وحتّى إلى حلقه. كانت أرواحٌ شريرة كامنةً في داخله، وكان يعرف أنَّ ذلك البيرنسايد هو المسؤول عن وضعها هناك. كان الدّجّال مستغرقًا تمامًا في تأمُّل ساقَي بولي، بحيث لم يفحصه كما يجب، ولا بدَّ أنه أغفلَ شيئًا ما، لا بدَّ أنه نسي إجراء اختبار أو أن يُنعم النظر إلى دمه حتّى الميكروسكوب المناسب. كانت الأعراض لا تزال مُبهَمَة للغاية، بحيث لا ينجمُ عنها أيّ مظاهر خارجية واضحة للعيان (لا قيء، ولا إسهال،

ولا نوبات ارتجاف حتّى الآن)، لكنْ، مع مرور الأيّام، كان السيد بونز يشعر بأنه لم يعدْ في حالته الطبيعية بوتيرةٍ متزايدة، وبدلًا من أن يتعاملَ بهدوءٍ مع مسألة الإجازة العائلية هذه، بدأ يعبس ويطيل التفكير فيها، ويساوره القلقُ حول ألف جانبٍ مختلفٍ لها، وما بدا للوهلة الأولى أنه مُجرّد عَثرة صغيرة على الطريق استحالَ مُصيبةً فادحة.

لم يكن المأوى مكانًا في غاية السوء. حتّى هو كان بوسعه أن يرى ذلك، فعندما أودعه هناك آليس ووالدها في أصيل يوم السابع عشر من ديسمبر، اضطرّ السيد بونز أن يقرّ بأن بولي قد أدّت مهامّها كما يجب. لم يكن ملاذ الكلب يشبه ولو من بعيد سجن سنج سنج أو قلعة الشيطان، ولم يكن معسكر اعتقال للحيوانات المهمَلة والمهانة. أُقيم المأوى على مساحة عشرين فدانٍ، كانت ذات مرّة جزءًا من مزرعة للتبغ، وكان منتجعًا ريفيًا بمستوى أربع نجوم، فندق كلابي مُصمَّم لتلبية احتياجات الحيوانات الأليفة ونزواتها الأصعب إرضاءً والأشدّ تدليلًا. كانت أقفاص النوم مُصطفّة على الجدارَيْن الشرقي والغربي في حظيرةٍ حمراء مجوّفة. كان عددهم ستّينًا، بمساحة فسيحةٍ متاحة لكلّ واحدٍ من السادة النزلاء (أوسع وأرحب، في الحقيقة، من مساحة بيت الكلب الخاصّ بمستر بونز في المنزل)، ولا يقتصر الأمر على تنظيف الأقفاص يوميًا، بل إن في كل قفص لحاف ناعم ومغسول حديثًا، ولُعبة جلدية يسهل العَضّ عليها – في شكل عظمة، أو قطّ، أو فأر، حَسب تفضيلات مالكيها. وراء الباب الخلفي للحظيرة مباشرةً، كان هناك مرج معشب مغلَق بمساحة فدّانَيْن يُستخدَم كملعبٍ ممتاز. كما تتوفّر أنظمة غذائية خاصّة، واستحمام أسبوعي من دون مصاريف إضافية.

لكنْ، لا شيء من هذا كان له أهمّيّة، على الأقلّ بالنسبة لمِستر بونز.

أخفقتْ تلك الأجواء الجديدة كلها في التأثير عليه، أو أن تثيرَ فيه أهون درجات الاهتمام، وحتّى بعد أن قدَّموه للمالك، وزوجة المالك، وأعضاء مختلفين من فريق العمل (جميعهم مِن متيني البُنيان، ومُحبّي الكلاب الطيّبين)، كان لا يزال لا رغبة لديه في أن يبقى. لم يَمنع هذا دِك وآليس من المغادرة، بطبيعة الحال، وبينما أرادَ السيد بونز أن يُطلق عواءً مُعربًا عن احتجاجاته على الشيء العَفن الذي فعلوه به، لم يستطعْ أن يجد أيّ سوء في وداع آليس المُحبّ والمُترَع بالدموع. حتّى دِك، وبطريقته الموجزة، بدا آسفًا شيئًا ما لاضطراره لتوديعه. ثمّ ركبا السّيّارة، وانطلقا، وإذ لبثَ السيد بونز يراقبهما يبتعدان على طول الطريق الترابي، ويختفيان وراء المبنى الأساسي، ناوشته الإشارة الأولى لنَوع المحنة التي كان يعانيها. لم يكن الأمر مُجرّد حالة كآبة وانخفاض معنويات، هذا ما أدركه، ولم يكن مُجرّد شعوره بالخوف. إنَّ به ما يسوء بدرجةٍ خطيرة، وأيًا كان الاضطراب الذي ظلَّ يختمر فيه مؤخّرًا، فقد كان على وشك الوصول إلى نقطة الغليان. رأسه يؤلمه، ونارٌ موقدة في معدته، وضعفٌ غزا ركبَتَيْه، جعل فجأة من الوقوف مهمّة شاقّة. أعطوه طعامًا، لكنّ مُجرّد فكرة الطعام أشعرتْهُ بالغثيان. قدّموا له عظمة، ليلوكها، لكنه أشاح برأسه بعيدًا. كان الماء فقط مستساغًا له، لكنهم عندما دفعوا الماء أمامه، توقّف عن الشرب بعد لعقَتَيْن.

كان موضوعًا في قفص ما بين بولدوج في العاشرة من عمره يُطلق صفيرًا مع تنفّسه، وكلبة لابرادو ذهبية شهية. في الأحوال العادية، كان وجود أُنثى من ذلك العيار سيدفعه في نوباتٍ مسعورة من تشمّمٍ شهواني، لكنه في تلك الليلة بالكاد امتلك القوّة على الانتباه لوجودها قبل أن يرتمي على لحافه، ويسقط في النوم. ما هي إلّا لحظاتٍ بعد فقدانه للوعي حتّى كان يحلم بويلي من جديد، ولكن هذا الحلم لم يكن يُشبه في أيّ

شيء تلك الأحلام الأخرى السابقة له، وبدلًا من التشجيع الرقيق والحجج العقلية المطمئنة، تناولَ وجبةً كاملة من غضب سيّده العارم. لعلّها كانت الحُمّى المشتعلة داخله، أو لعلّه أمرٌ ما وقع لويلي في تِمْبُكْتُو، لكنَّ الرجل الذي أتى لمِستر بونز تلك الليلة لم يكن هو ويلي كما عرفه في حياته وموته لسبع سنواتٍ خَلَتْ وثلاث أرباع سنة أيضًا. كان ويلي هذا انتقاميًا ولاذعًا، ويلي شرّير، ويلي محرومٌ من أيّ تعاطفٍ وطيبة، وكان السيد بونز المسكين مذعورًا للغاية من ذلك الشخص إلى درجة أنّه فَقَدَ سيطرته على مثانته، فبَالَ على نفسه للمرّة الأولى منذ أن كان جروًا.

ما زادَ الأمر ارتباكًا، أن ويلي المزيّف كان مُطابقًا من حيث المظهر لويلي الحقيقي، وعندما بزغَ في الحُلم تلك الليلة كان مرتديًا الزّيّ البالي نفسه لسانتا كلوز، والذي كان الكلب قد رآه خلال أعياد الكريسماس السبعة الماضية. الأسوأ مِن ذلك، أن الحلم لم يجرِ في مكانٍ مألوف من أماكن الماضي – كَحُلم قطار الأنفاق، على سبيل المثال – لكنه يجري في الحاضر، في هذا القفص نفسه، حيث كان السيد بونز يبيت ليلته. أغمض عينَيْه، وعندما فتحهما من جديد في الحُلم، كان ويلي هناك، واقفًا في الركن على مسافة قَدَمَيْن فقط منه، مستندًا بظهره على القُضبان. "سأقولُ ما لديّ مرّةً واحدة،" هكذا بدأ، "لذا فلتُنصتْ جيّدًا، ولتسدّ خَطْمكَ تمامًا. لقد جعلتَ من نفسكَ مزحة، مزحة رثّة ومُقرِفَة، وأنا أمنعكَ من استدعائي إلى أفكاركَ بعد ذلك. إيّاكَ وأن تنسى ذلك، أيّها الهجين. انقشْ هذا على عضائد أبواب القصر الذي تقيم فيه، وإيّاكَ أن تستخدم اسمي مرّة أخرى – لا عَبثًا، ولا حُبًّا، ولا بأيّ طريقة على الإطلاق. إنني ميّت، وأريدُ أن أُترَك في سلام. هذه الشكوى كلها، هذا التباكي كله على ما حدث لكَ – أتظنّ أنني لا أسمعها؟ لقد سئمتُ الاستماع لكَ، أيّها

الكلب، وهذه هي آخر مرّة تراني في أحلامكَ. أتفهم ذلك؟ أفْلِتْني، أيّها الأبله. حِلْ عن سَمائي. لديَّ الآن أصدقاء، ولم أعدْ أحتاج لكَ. فهمتَ؟ ابتعدْ عن شؤوني، وابقَ بعيدًا. أنا انتهيتُ منكَ."

مع الصباح، كانت الحُمّى قد ارتفعت لدرجة أنه كان يرى كل شيء اثنَيْن. صارت معدته ساحة معركة لميكروبات متقاتلة، وكُلّما تحرّك، ولو تقلّب بوصة أو اثنَتَيْن من حيث كان يرقد، تبدأ هجمةٌ أخرى عليه. أحسَّ كما لو أن قذائف أعماق تنفجر داخل أمعائه، كما لو أن غازات سامّة كانت تفترس أعضاءه الداخلية. كان قد استيقظ مرّاتٍ عدّة خلال الليل، مُتقيّئًا من دون أيّ سيطرة حتّى تهدأ الآلام، ولكنْ، لم يكن أيّ مِن تلك الهدهدات تستمرّ طويلًا، وعندما طلع النهار أخيرًا، وانصبّ الضوء عبر دعائم الحظيرة، رأى أنه كان محاطًا بنصف دزّينةٍ من بِرك القيء: كتل صغيرة من بلغمٍ شديد الجفاف، ومزق لحم نصف مهضومة، وبقع من دمٍ متخثّر، وسائلٌ أصفر كالحساء، لا يعرف له اسمًا.

كانَ صخبٌ هائل يُدوِّم مِن حوله عندئذٍ، لكن السيد بونز كان مريضًا للغاية، بحيث لا ينتبه إليه. كانت الكلاب الأخرى قد صَحَتْ وشَرَعَتْ في الحركة، تنبح في تلهُّف على اليوم الذي ينتظرها، لكنَّ أفضل ما كان بوسعه عمله هو الاستلقاء هناك في خَدَره، متأمّلًا الفوضى التي صنعها جسده. عرفَ أنه كان مريضًا، لكنْ، إلى أيّ حدّ بالضبط؟ وإلى أين سيأخذه هذا المرض بالضبط؟ لم تكن لديه أدنى فكرة. يمكن لكلبٍ أن يموت مِن أمرٍ كهذا، هكذا حدّث نفسه، كما يمكن لكلبٍ أيضًا أن يتعافى، وأن يرجع أفضل ممّا سبق في غضون يومَيْن أو نحوهما. إن كان له الخيار، كان يُفضِّل ألّا يموت. ورغم ما قد جرى في الحلم ليلة أمس، كان لا يزال يريد

أن يعيش. لقد صدمتْه قسوة ويلي غير المسبوقة، وجعلتْه يشعر ببؤسٍ ووحدة عسيرة على الوصف، لكنَّ ذلك لم يكن يعني أنّ السيد بونز كان مستعدًا لأن يغفرَ لسيّده ما فعله. لا يدير المرء ظهره لصاحبه، لأنه خذله مرّة واحدة – ليس بعد صداقة عمر كامل، لا يمكنكَ، وخصوصًا في وجود مُلابسات، تُخفِّف وقع الأمر. كان ويلي ميتًا، ومَن يدري إن لم يكن الموتى يكتسبون مرارةً وعدوانيةً بعد موتهم بفترة؟ ثمّ مرّة أخرى، رُبّما لا يكون ذلك هو ويلي بالمرّة. قد يكون الرجل في الحُلم محتالًا مُدّعٍ، شيطانٌ متنكّر في صورة ويلي أُرسلَ من تِمْبُكْتُو، لكي يخدع السيد بونز، ويجعله ينقلب على سيّده. لكنْ، حتّى إن كان هو ويلي، وحتّى إن كان ما قاله موجعًا بإفراط، وقيلَ بروحٍ خبيثة لئيمة، فقد كان السيد بونز أمينًا بما يكفي لأن يُقرّ بأن كلامه احتوى على بذرةٍ من الحقيقة. لقد قضى وقتًا أطول من اللازم في الفترة الأخيرة يشعر بالرثاء لذاته، وقد بدَّد ساعاتٍ ثمينة كثيرة للغاية مبتئسًا لإهاناتٍ ومظالم متناهية الضآلة، وذلك النوع من السلوك ليس ملائمًا لكلبٍ في منزلته. كان هناك الكثير ممّا يستحقّ الامتنان له، والكثير من الحياة لا تزال أمامه ليعيشها. عرفَ أنّ ويلي قد أخبره بألّا يفكّر فيه مرّة أخرى مُطلقًا، لكنّ السيد بونز لا يمكنه مَنْعَ نفسه عن ذلك. كان في تلك الحالة من الخضخضة وشِبه الهذيان التي تجلبها السخونة المرتفعة، ولم يعد بوسعه السيطرة على الأفكار التي تدخل إلى رأسه، وتخرج منه بقدر ما كان عاجزًا عن الوقوف وفتح باب هذا القفص. وإن حدثَ وكان ويلي حاضرًا في خواطره الآن، فليس بيَدَيْه شيء، يستطيع فعله حيال هذا. كل ما على سيّده أن يفعله هو أن يضع يَدَيْه على أذنَيْه، وينتظر حتّى تنتهي تلك الأفكار. وعلى الأقلّ، لم يعد السيد بونز يشتكي الآن، على الأقلّ، كان يحاول أن يكون صالحًا.

بعد أقلّ من دقيقة مِن تفكيره بشأن باب قفصه، أتتْ امرأةٌ شابّةٌ، وفتحت المزلاج. كان اسمها بيث، وكانت ترتدي معطفًا منتفخًا من النايلون الأزرق. فخذان ممتلئان، ووجه استدارته غير تامّة، وقصّة شَعْر بنّاتية بسيطة. تُذكِّرها السيد بونز من اليوم السابق. كانت هي التي حاولت إطعامه وتقديم الماء له، هي التي ربتتْ على رأسه، وأخبرتْه بأنه سيكون بحالةٍ أفضل في الصباح. فتاةٌ لطيفة، ولكنها ليست متخصّصة في تشخيص الأمراض. رأتْ في كومات القيء إنذارًا واضحًا، فقرفصتْ، ودخلت القفص لتُلقي نظرةً أدقّ. "لم تكن ليلة طيّبة، أليس كذلك، يا سباريك؟" قالت. "أظنّ أنّ علينا أن نعرض الأمر على بابا." كان بابا هو رجل أمس، تذكّر، ذلك الذي قدّم لهم جولة في المكان. رجلٌ ضخم ومتين البدن بحاجبَيْن أسوَدَيْن كثَّيْن، ومن غير أيّ شَعْر على رأسه. كان اسمه بات – بات سباولدنج أو بات سبرولين، لم يكن يستطيع أن يتذكّر. وكان هناك زوجة في الصورة كذلك، وقد صحبتهم في الجزء الأوّل من الجولة. نعم، الآن كان يستعيد ما حدث، الأمر الغريب بشأن الزوجة. كان اسمها بات، وتذكّر السيد بونز أنّ آليس وجدت الأمر مضحكًا، بل إنها أطلقتْ ضحكة صغيرة عندما سمعت الاسمَيْن معًا، وقد جذبها دِك جانبًا، وأخبرها بأن تستحضر آداب اللياقة. باتريك وباتريشيا، واختصارًا بات وبات. كان أمرًا مُربكًا للغاية، بل مربكًا وسخيفًا بدرجةٍ رهيبة.

بعد لأيٍ، استطاعت بيث أن تلاطفَهُ حتّى وقفَ على أقدامه، وسار معها إلى المنزل. تقيّأ مرّةً في طريقهما، لكنّه استطاب إحساس الهواء البارد على جسمه الساخن، وما إن طُردتْ المادّة اللزجة خارج بدنه، بدا أن آلامه قد خفّتْ بدرجة لا بأس بها. متشجّعًا، تبعها إلى داخل المنزل، ثمّ قبلَ ممتنًا عرضها بأن يستلقي على سجّادة غرفة المعيشة. انطلقتْ بيث

بسرعة، لتبحث عن أبيها، كان السيد بونز قد التفّ حول نفسه بالفعل قُبالة المدفأة، محوّلًا انتباهه نحو الأصوات التي تُصدرها ساعة الحائط العتيقة في الردهة. سمع عشر تكّات، ثمّ عشرين تكّة، ثمّ أغمض عينَيْه. وقبيل أن يأخذه النوم، قُوطع بصوت خطواتٍ تقترب، وسمعَ بعدها صوت رجل قال: "اتركيه كما هو الآن. وسوف نرى كيف سيكون حاله عندما يستيقظ."

نام طيلة الصباح، وجزءًا كبيرًا من الأصيل، وعندما صحا، أحسّ أن المرحلة الصعبة قد انتهتْ. لم يكن قد عادَ في أحسن حالٍ، ولكنْ، على الأقلّ، كان نصف حيّ الآن، ومع انخفاض حرارته بضع درجاتٍ، كان بوسعه أن يُحرِّك عضلاته من دون أن يشعرَ بأنَّ جسده مصنوع من أحجار البناء. كان حَسن الحَال بما يكفي لأن يقبل قليلًا من الماء، على أيّ حال، وعندما استعدت بيث أباها، ليحكم بنفسه على حالة الكلب، كان عطشُ السيد بونز تغلّب عليه فواصل الشرب حتّى أتى على الماء كله. كان ذلك خطأ فادحًا في التقدير، فلم يكن في وضعٍ جسدي يتيح له استيعاب مثل تلك الكمّيّة الهائلة، وفي اللحظة التي دخل فيها بات رَقْم واحد إلى الغرفة، أفرغَ السيد بونز فورًا كل ما تحتويه معدته على سجّادة غرفة المعيشة.

"بحقّ جهنم، كم أرجو ألّا يَرمي الناس كلابهم المريضة علينا،" قالَ الرجل. "كل ما نحتاجه أن يموتَ هذا الكل، وسوف نجد أنفسنا أمام دعوى قضائية مُعتبرة، أليس كذلك؟"

سألتْ بيث: "هل تريدني أن أتّصل بدكتور بيرنسايد؟"

"نعم. قولي له إنني في طريقي إليه." وشرعَ في مغادرة الغرفة، لكنْ، في منتصف طريقه نحو الباب توقّف، والتفتَ إلى بيث من جديد. "واتتْني

فكرةٌ أخرى. رُبّما يجب على أمّكَ الذهاب بدلًا منّي، فالأمور مزدحمة بشكل رهيبٍ هُنا اليوم."

كانت تلك ضربة حَظٍّ لمِستر بونز، ففي الوقت الذي لزمهم للعثور على بات رَقْم اثنَيْن، وتدبير رحلتها، استطاعَ أن يضع خطّة. ومن دون خطّة، ما كان بمقدوره أبدًا أن يفعل ما فعل. لم يُشكِّل أيّ فارقٍ بالنسبة له إن كان معتلًّا أم صحيحًا، أو إن كان سيعيش أم سيموت. فقد قدّموا له القشّة التي تقصم الظهر، وعلى جثّته أن يسمح لهم بأن يأخذوه إلى ذلك البيطري المغفَّل. لذلك كان بحاجةٍ إلى خطّة. لن تُتاحَ له إلّا ثوانٍ معدودة للتنفيذ، ولا بدَّ أن يكون الأمر كله جَليًا في رأسه قبل أن يحدث – بحيث يعرف بالضبط ماذا سيفعل ويعرف بالضبط متّى سيفعله.

كانت بات رَقْم اثنَيْن نسخة أكبر سنًا من بيث، رُبّما ذات ردفَيْن أعرض قليلًا، وترتدي معطفاً منتفخاً أحمر بدلًا من الأزرق، لكنْ، كانت توحي بالانطباع نفسه من الكفاءة الذُّكُورية ورُوح الدعابة البليدة. مالَ السيد بونز لكلّ منهما أكثر ممّا مالَ لبات رَقْم واحد، وشعرَ بقليلٍ من الأسف، لأنه سوف يخون ثقتهما، خصوصًا بعد أن عاملتاه بتلك الطّيبة كلها، لكنَّ هذه كانت مسألة كل شيء أو لا شيء على الإطلاق، ولم يكنْ لديه وقت، ليُبدّده على أمور العواطف. سارتْ به المرأة في الخارج إلى السّيّارة مربوطًا برَسَن، وكما كان يعلم تمامًا أنها ستفعل، فتحتْ باب المقعد المجاور للسائق، لتسمح به بالركوب أوّلًا، دون أن تُفلتَ الرسن حتّى آخر ثانية ممكنة. وفي اللحظة ذاتها التي انغلق فيها الباب بشدّة، تزحزح السيد بونز إلى الناحية الأخرى من السّيّارة، واستقرّ على مقعد السائق. كان ذلك هو جوهر وأساس استراتيجيّته، وكانت الحيلة أن تكمن في أن يحرص على ألا

يشتبك الرسن بمحوّل السرعات أو بعجلة القيادة أو بأيّ نتوء آخر (وهو ما لم يحدث) وأن يكون آمنًا ومطمئنًا في موقعه عندما تكون هي قد دارت حول مقدّمة السّيّارة، وفتحت الباب على الجانب الآخر (وهو ما حدث). هكذا تمامًا رأى الأمر يحدث في عقله، وهكذا تمامًا حدث الأمر في عالَم الواقع. فتحتْ بات رَقْم اثنَيْن الباب المجاور لمقعد السائق، فوثب السيد بونز للخارج. ارتطم بالأرض، وانطلق راكضًا، وقبل أن تتمكّن من الإمساك بذيله، أو أن تدوسَ بقدمها على رسنه، كان قد ذهب.

اتّجه صوب الغابة على الجانب الشّمالي من المنزل الرئيس، محاولًا أن يبقى بعيدًا بقدر الممكن عن الطريق. سمعَ بات رَقْم اثنَيْن تنادي عليه ليعود، وبعد بلحظة، انضمَّ إلى صوتها صوتا بيث وبات رَقْم واحد. بعد ذلك بوهلةٍ قصيرة، سمعَ محرّك السّيّارة يدور وصوت العجلات تنزلق على التراب، لكنه كان قد توغّل كثيرًا في الغابة عندئذٍ، وعرفَ أنهم لن يجدوه أبدًا. حَلَّ الظلام مبكّرًا في ذلك الوقت من العام، وما هي إلّا ساعة أخرى حتّى يعجزوا عن رؤية أي شيء.

واصلَ التقدّم باتّجاه الشَمَال، مهرولًا للأمام عبرَ الشجيرات المتجلّدة من شدّة البَرد، بينما يتبدّد من حوله نور الشتاء الشّاحب. كانت الطيور تتفرّق، إذ يقترب منها، وتطير مُحلّقةً إلى الأغصان العالية لأشجار الصنوبر، وكانت السناجب تفرّ راكضة في الاتّجاهات جميعها عندما تسمعه آتيًا. كان السيد بونز يعلم إلى أين يتّجه، حتّى وإن لم يدرِ على وجه التحديد كيف يصل إلى هناك، كان يعتمد على أنفه لتوجيهه في الاتّجاه الصحيح. لم تكن الباحة الخلفية لمنزل عائلة جونز تبعد إلّا بمسافة عشرة أميال فقط، ورأى أنه سيصل إلى هناك غدًا، أو اليوم الذي يليه على الأكثر. دعكَ من

أنَّ الأسرة غائبة عن المنزل، ولن ترجع إلّا بعد أسبوعَيْن آخرَيْن، ودعكَ من طعامه مغلقٌ عليه في المرأب، ولم يكن يملك أيّ وسيلة للوصول إليه. كان مُجرّد كلب، ولم يكن بقادرٍ على التفكير المسبق إلى هذا الحدّ. في هذه اللحظة، كان الشيء الوحيد الذي يهمّه أن يصل إلى حيث يريد. وما إن يفعل، فإن سائر الأمور سوف تتكفّل بنفسها تلقائيًا.

أو هكذا كان يعتقد، غيرَ أنَّ الحقيقة المؤسفة أن اعتقاد السيد بونز كان خاطئًا. لو كان في كامل قوّته، لما كان هناك شكّ في أنه سيبلغ وجهته، ولكن جسده لم يكن مستعدًا لتلبية ما يُطالبه به، وسرعان ما نالَ منه هذا القفز والركض. لم تكن مسافة العشرة أميال بالرحلة الطويلة، ليس إذا ما قُورنتْ بالرحلات الشّاقّة الجسيمة التي اضطلع بها سابقًا منذ ثلاثة أشهر ونصف، لكنه كان يسافر بمعدةٍ خاوية الآن، ولا يمكن لكلبٍ أن يمضي إلى أبعد من ذلك اعتمادًا على قوّة الإرادة الخالصة. من الجدير بالإعجاب أنه قد نجحَ في قَطع ميلَيْن تقريبًا في حالته المضعضعة تلك. ظلَّ يتقدّم ما استطاعت أقدامه أن تحمله، وبعد ذلك، ما بين خطوةٍ والتالية، تهاوى إلى الأرض، وأخذه النوم.

للمرّة الثانية خلال ليلَتَيْن، حلمَ بويلي، ومن جديد، كان الحلم مختلفًا عن الأحلام الأخرى التي أتتْهُ من قبل. في هذه المرّة كانا جالسَيْن على الشاطئ في لا جولا، كاليفورنيا، وهو مكان كانا قد زاراه في رحلتهما الأولى معًا، قبل أن يكتمل نُمُوّه، ويصير كلبًا ناضجًا. معنى ذلك أنَّ هذا حدث قبل سنوات وسنوات، وكان آنذاك يعيش أيّامًا كان كل شيءٍ فيها جديدًا وغريبًا عليه، عندما كان كل شيء حدث أو يحدث للمرّة الأولى. بدأ الحُلم في منتصف وقت الأصيل. كانت الشمس تتألّق زاهية، ونسمة خفيفة

تهبّ، ومِستر بونز يرقد ورأسه على حِجر ويلي، مستطيبًا إحساسه بأطراف أنامل سيّده، بينما تتحرّك جيئة وذهابًا عبر جمجمته. هل حدثَ أيّ مِن هذا حقًا؟ لم يعد يمكنه أن يتذكّر، ولكنْ، بدا المشهد له نابضًا بالحياة بما يكفي لأن يكون واقعيًا، وكان هذا كل ما يكترث له الآن. بنات جميلات في ثياب السباحة، وأغلفة آيس كريم وأنابيب الكريمات الواقية مِن الشمس، وصحون طائرة تتأرجح عبر الهواء. كان ذلك هو ما رآه عندما فتحَ عينَيْه في الحُلم، وكان بوسعه أن يشمّ غرابته وجَماله، كما لو أن جزءًا مِنه كان يعلم بالفعل أنّه تجاوز حدود الواقع الصلب. كأنّ الأمر بدأ من الصمت، الصمت بمعنى غياب الكلمات، مع حضور صوت الأمواج تغسل الشّطّ في مَدّها وجَزرها وصوت الريح تُحرّك الرايات ومظلّات الشاطئ. ثمّ تناهتْ نغمةٌ موسيقى بوب تُذاع على راديو في موضعٍ ما، صوت امرأة يغنّي كُن حبيبي، كُنْ حبيبي، كُنْ حبيبي الآن. كانت أغنيّة حلوة، حلوة وغبية، وقد استغرقَ السيد بونز في الاستماع إليها، بحيث لم ينتبه أنَّ ويلي كان يتحدّث إليه. وعندما أولى انتباهه إلى سيّده، كان قد فوّت بالفعل عباراتٍ عديدة، رُبمّا فقراتٍ بكاملها من معلومات ضرورية، ولزمتْه بضع لحظاتٍ قبل أن يتمكّن من تجميع أجزاء مضمون ما كان ويلي يقوله.

"أن أعوّضكَ عمّا فعلتُ بكَ"، كان أوّل ما سمعَهُ، وتلاه "آسف، يا صديقي القديم"، و"امتحان". وعندما تبعت تلك العبارات بـ "عمل قبيح" و"تمثيلية سخيفة"، كان السيد بونز في طريقه لفَهْم المقصود. لم يكن ويلي الشيطاني سوى حيلة، خدعة لإغواء قلبه بأن يقسوَ ويتخلّى عن ذكرى سيّده. وبقدر ما كانت تلك المحنة مُلتوية ومشوَّهة، فقد كانت هي الطريقة الوحيدة لامتحان مدى ثبات عواطف الكلب. حاول المقلب أن يكسر معنوياته، ورغم أنَّ السيد بونز قد كاد أن يفتكَ به الذعر، لم يتردّد

لحظة في أن يغفرَ لويلي حينما استيقظ في الصباح التالي، وأن ينفضَ عنه افتراءاته واتّهاماته الباطلة، وأن يعفوَ عمّا سلف. وعلى هذا النحو، اجتاز الامتحان، من دون حتّى أن يعرفَ أن كان يُمتَحن. وكان هذا الحلم هو المكافأة، هذه الزيارة لعالمٍ من صيفٍ كَسول بلا نهاية، والفرصة للاستمتاع بدفء الشمس في ليلة شتاءٍ باردة، ورغم أنّ هذا الحُلم كان سارًا ومُتقنَ الصنعة، فلم يكنْ أكثر من تمهيدٍ لأمرٍ أعظم شأنًا.

"ما هو ذلك الأمر؟"، سمعَ السيد بونز نفسه يقول، وفجأة أدركَ قدرته على الحديث من جديد، أن يصوغَ كلماتٍ صياغة واضحة وسلسة مثل أيّ ذي ساقَيْن يغمغم بلغته الأمّ.

فقال ويلي: "ذلك، مثلًا."

"أي ذلك؟" قال السيد بونز، في عدم فَهْمٍ مطلق. "أي ذلك؟"

"ما تفعله الآن."

"أنا لا أفعل أيّ شيء. إنني فقط أرقدُ ها هنا معكَ على الرمل."

"ألستَ تتحدَّث إليَّ؟"

"أشعر كأنني أفعل. يبدو كأنه حديث. لكنّ هذا لا يعني أنني أتحدّث حقًا."

"وماذا لو قلتُ لكَ إنكَ تفعل؟"

"لا أدري. أظنّ أنني سأنهض واقفًا، وأرقص رقصة صغيرة."

"إذنْ، فلتبدأ الرقص، يا السيد بونز. عندما يحين الوقت لن يكون عليكَ أن تقلق."

"أيّ وقت، يا ويلي؟ عمَّ تتحدّث؟"

"عندما يحينُ وقت ذهابكَ إلى تمبُكْتُو."

"أتقصد أن الكلاب يُدخلونها؟"

"ليس الكلاب جميعها. بعضهم فقط. تُنظَر كل حالة على حدة."

"وأنا سأدخلها؟"

"ستدخلها."

"لا تضحكْ عليَّ، يا سيّدي. إذا كنتَ تمزح الآن، فلا أظنّ أنني قد أحتمل."

"صدِّقني، يا كلبي، ستدخلها. لقد حُسمَ القرار."

"ومتى يكون عليَّ الذهاب؟"

"عندما يحين الوقت. لا بدَّ أن تتجمّل بالصبر."

"لا بدَّ أن أموتَ أوّلًا، صحيح؟"

"تلك هي الصفقة. وحتّى ذلك الحين، أريد منكَ أن تكون ولدًا طيّبًا. عُد إلى مأوى الكلاب، ودعهم يعتنون بكَ. وعندما ترجع أسرة جونز ليأخذوكَ، تذكّر كم حالفكَ الحظُّ الطّيّب. لا يمكنكَ أن تطلب أكثر من

بولي وآليس. هاتان الاثنتان نعمة كبيرة، خذها منّي كلمة أكيدة. وأمرٌ آخر: لا تدع الغيظ يأكلكَ بسبب ذلك الاسم الذي أسموكَ به. سوف تكون دائمًا السيد بونز بالنسبة لي. ولكنْ، إذا بدأ يُحبطكَ في أيّ وقت، ما عليكَ إلّا أن تضعه في صيغته اللاتينية، وسوف تشعر بأنكَ أفضل. سباركاتوس. ألا تجد فيه رنينًا لطيفًا؟ سباركاتوس الكلب. انظروا وتأمّلوا سباركاتوس، أنبل مَن هرّ ذيلًا في روما قاطبةً."

نَعم، كان للاسم رنينٌ لطيف، رنينٌ في غاية اللطف، وعندما استيقظَ السيد بونز بعد الفجر مباشرةً، كان صوت الكلمة لا يزال يتردّد صداه في رأسه. ما أكثرَ التّغيّر الذي طرأ بينما كان نائمًا، وما أكثر الأشياء التي حدثتْ له بين إغماض عينَيْه وفتحهما، إلى درجة أنه لم يلحظْ لأوّل وهلة الجليد الذي تساقط خلال الليل، ولا انتبه إلى أنَّ الطنين المجلجل الذي أحدثتْه كلمة سباركاتوس لم يكن في الحقيقة إلّا صرير الأغصان المغطّاة بالثلج من فوقه، تتحرّك ببطء مع الريح. لم يكن يرغب في مغادرة عالم الحلم، لذا فقد أدرك بالتدريج فقط كم اشتدّت البرودة من حوله، وعندئذٍ، وما إن بدأ يشعر بالبرد صارَ مُدركًا لسخونةٍ بقَدْر الشدّة نفسها. كان شيءٌ ما يحترق في داخله. كان البرد بالخارج، والحرارة بالداخل؛ كان جسمه مغطّى بالجليد، وفي جوفه قد عادت الحمَّى، بما كان له في اليوم السابق من ضراوةٍ وقدرة على إصابته بالشّلل. جَرّبَ أن يحاول الوقوف، وأن ينفض الجليد عن فرائه، ولكن أقدامه كانت مثل قطعٍ مِن الإسفنج، وكان عليه أن يتخلّى عن بذل الجهد. رُبّما فيما بعد، قال لنفسه، رُبّما بعد أن تطلع الشمس، ويدفأ الهواء قليلًا. إلى حين ذلك، ظلَّ راقدًا على الأرض متأمّلًا الثلج. ما سقطَ منه لا يزيد عن البوصة، ورغم ذلك، فقد كان كافيًا ليجعل العالَم يبدو مكانًا مختلفًا. كان هناك شيءٌ غريبٌ في بَيَاض الثلج، هكذا

تبيّن، شيءٌ غريب وجميل معًا، وإذ كان يراقب زوجَيْن من عصافير الدوري والقرقف يلقطان في الأرض بحثًا عمّا يمكن أكله، انتابه وَجعٌ صغير من التعاطف، وأحسّ به يخفق في داخله. نَعم، تعاطفٌ حيال تلك الكائنات ذات الريش عديمة الجدوى. لا حيلة له في ذلك. بدا كأن الثلج يضمّهم جميعًا معًا، ولمرّة واحدة كان قادرًا على أن ينظر إليها، لا كمصادر للإزعاج، بل كمخلوقاتٍ تربطه بها صلةٌ، أعضاء في الأخوية السّرّيّة نفسها. مراقبًا الطيور، تذكّر ما قاله له ويلي بشأن العودة إلى مأوى الكلاب. كانت نصيحة جيّدة، وإذا كان جسمه مؤهّلًا للمهمّة، لكان عمل بها. لكن جسمه غير قادر، كان أضعف من أن يقطع تلك المسافة، وإن لم يكن بوسعه الاعتماد على أقدامه للوصول إلى هناك، فعليه إذنْ أن يبقى حيث كان. ولمُجرّد الرغبة في فعل أيّ شيءٍ آخر، أكل بعض الثلج، وأخذ يتذكّر الحُلم.

بعد وهلة، بدأ يسمع أصوات السّيّارات والشاحنات، وهدير حركة المرور في ساعات الصباح الأولى. كانت الشمس قد طلعتْ عندئذٍ، وإذ أخذت الثلوج تذوب عن الأشجار، وتسقط أرضًا قُبالته، تساءلَ السيد بونز ما إذا كان الطريق السريع قريبًا منه كما يبدو. يُمكن للأصوات أن تكون مخاتلة في بعض الأحيان، وأكثر من مرّة خَدَعَهُ الهواء، فحسبَ شيئًا بعيدًا للغاية أقربَ إليه ممّا كان. لم يكن يريد أن يبدّد طاقاته على جهودٍ عقيمة، لكنْ، إذا كان الطريق حيث ظنَّ أنه قد يكون، فرُبمّا تكون لديه فرصه عندئذٍ. كانت حركة المرور تتزايد الآن، ويمكنه أن يتتبّع أنواع المركبات كلها تتسابق مندفعة على الطريق السريع المبتلّ، في موكبٍ لا ينقطع من السّيّارات الكبيرة والصغيرة، من سيّارات النقل والشاحنات الصغيرة وحافلات المسافات الطويلة. وفي كلّ واحدةٍ منها شخصٌ أمام عجلة القيادة، وإذا كان أحد أولئك السائقين مستعدًا لأن يتوقّف ويساعده،

فلربّما يُنقَذ عندئذٍ. كان معنى هذا أن يصعد التّلّ المواجه له، بالطبع، وبعد ذلك يشقّ طريقه نزولًا للجهة الأخرى، وبصرف النظر عن مقدار مشقّة ذلك كله، فقد كان لا بدّ منه. كان الطريق في موضعٍ ما، وعليه أن يجده. العقبة الوحيدة أنه كان عليه أن يجده من المحاولة الأولى، فلو أنه اتّخذ الطريق الخطأ، لن يملك القوّة اللازمة ليرجع، فيصعد التّلّ، ويبدأ من جديد.

لكنه وجد الطريق، وعندما وقعتْ عينا السيد بونز عليه أخيرًا بعد أربعين دقيقة من الكفاح للمرور خلال الشوك والنتوءات والجذور البارزة التي عرقلتْهُ، وبعد أن زلّتْ أقدامه، وتعثّر واقعًا على حافّةٍ ترابية، وبعد أن انتقع فراؤه في الأوحال المترسّبة من ذوبان الجليد، أدركَ الكلبُ المريض والمحموم أنَّ الخلاص صارَ في متناول اليد. وكان الطريق عملاقًا هائلًا، وكان الطريق مُبهرًا مدوّخًا: طريق أوتوستراد فائق السُّرعة من ستّ حارات، السّيّارات والشاحنات تندفعُ عليه مثل السهام في الاتّجاهَيْن كلّيْهما. كانت بَلل الجليد الذائب لا يزال متعلّقًا بالسطح الأسود للطريق وبالحواجز المعدنية الواقية وبأغصان الأشجار على جانبَي الطريق من الشرق والغرب، ومع تَوهُّج الشمس في السماء وانعكاس ضوئها على ملايين القطرات من الماء، أمامَ ذلك كله بدا الطريق السريعة لمِستر بونز منظرًا يُمتِّعُ العين من السطوع الخالص، مَجَالًا مِن نورٍ لا سبيل لمقاومته. كان ما يتمنّاه على وجه التحديد، وصار يعلم الآن أن الفكرة التي خطرت له خلال الأربعين دقيقة مِن العَناء والشقاء نزولًا وصعودًا على التّلّ كانت هي الحلّ الصحيح الأوحد لمشكلته. تستطيع السّيّارات والشاحنات أن تحمله بعيدًا عن هذا المكان، ولكنها تستطيع أيضًا أن تسحقَ عظامه، وأن تُوقِفَ تنفّسه إلى الأبد. كان الأمر كله في غاية الوضوح ما إن تطلّ عليه من مسافةٍ بعيدة. لم يكن

مضطرًا للانتظار حتّى يحين الوقت؛ فلم يعد الوقت في صالحه الآن. كل ما كان عليه أن يتّخذ خطوة واحدة في داخل الطريق، وسيكون في تِمْبُكْتُو. سيكون في أرض الكلمات وماكينات تحميص الخبز المصنوعة من الزجاج ، في بلاد عجلات الدرّاجات الهوائية والصحاري الحارقة حيث تتحدّث الكلاب كأندادٍ للبشر. لن يوافق ويلي على هذا في بداية الأمر، وليس ذلك إلّا لأنه سيظنّ أن السيد بونز قد أنهى حياته بنفسه. غير أن السيد بونز لم يكن يُدبِّر شيئًا مبتَذلًا كالانتحار. إنه فقط سيلعب لعبة، من نوع الألعاب التي لا يُقدِم عليها إلّا كلب عجوز ومريض ومعتوه. أفَلم يصبح هكذا الآن؟ كلب عجوز ومريض ومعتوه.

كانت تُسمّى راوغ العربة، وهي رياضةٌ جَليلة تنتمي لتقاليد عتيقة وعريقة، وتسمح لكل عجوزٍ محنّك أن يستعيد أمجاد شبابه. كانت مبهجة ومُنعِشة للقوى، وتحدّيًا أمام القدرات الرياضية لكل كلب. فقط اعبُرِ الطريق ركضًا، واكتشفْ إن كان بوسعكَ تجنّب الاصطدام. وكُلّما زاد عدد مرّات قدرتكَ على فعل ذلك غدوتَ بطلًا أعظم شأنًا. آجلًا أو عاجلًا، بطبيعة الحال، تكون الاحتمالات في غير صالحكَ، وقليل من الكلاب مِن لعبوا راوغ العربة من دون أن يخسروا في محاولتهم الأخيرة. لكنّ ذلك نفسه كان جمال هذه اللعبة الفريدة. لحظة خسارتكَ هي ذاتها لحظة فوزكَ.

وهكذا حدثَ، في ذلك الصباح الشتوي الزاهي في فيرجينيا، أنَّ السيد بونز، المعروف باسم الصاحب الأقرب للشاعر الراحل ويلي جي. كريسماس، انطلق ليثبتَ أنه كان بطلًا بين الكلاب. بعد أن تجاوزَ العُشب المحاذي للجانب الشرقي من الطريق السريعة، انتظرَ فُسحةً في حركة المرور، ثمّ بدأ يركض. رغم ما كان عليه مِن وهن، كانت لا تزال بقية

من عافية في أقدامه، وما إن شرعَ يسرع في خطواتٍ واسعة حتّى شعرَ بأنه أقوى وأسعد حَالًا ممّا كان عليه لشهورٍ خَلَتْ. اندفعَ يعدو صوبَ الضجيج، صوبَ الضوء، صوب الوَهج والهدير اللذَيْن كانا يتسارعان نحوه من الاتّجاهات جميعها.

لو حالفه أهونُ الحظّ، فسيكون بصحبة ويلي قبل انقضاء النهار.

مكتبة

telegram @ktabpdf

تابعونا على فيسبوك

جديد الكتب والروايات

مِستر بونز، الكلب البطل لكتاب بول أوستر المذهل هذا، هو الصاحب الأقرب وكاتم أسرار ويلي جي. كريسماس، متشرّد ألمعي ومضطرب من بروكلين. وحيث تتداعى صحة ويلي ببطء، ينطلق صحبة مستر بونز قاصدًا بالتيمور بحثًا عن معلمته للغة الإنجليزية في المدرسة الثانوية، وعن بيتٍ جديد يأوي مستر بونز، الذي لن يستطيع العيش دون ويلّي، ولا تقبل شخص آخر غيره. سيستمر السيد بونز بالهروب إلى أن يقتنع بإمكانية اللحاق بويلّي إلى تمبكتو، المكان الذي يمكن فيه للكلاب والبشر التعايش بسلام، و«حيث تتحدّث الكلاب كأندادٍ للبشر».

مستر بونز «الكلب» سيكون راويَتَنا خلال هذه الرحلة، ومِن خلال مشاهداته وتأملاته سوف يغزل بول أوستر حكايةً من بين الحكايات الأثرى والأشد فتنةً في السرد الأمريكي الحديث.

الناشر

«قطعة بديعة عن الذاكرة... الذكريات الكئيبة، والرقيقة مع ذلك، لرجلٍ ورفيقه الكلب تتكشّف في صورة قصة مأساوية-كوميدية لدون كيشوتي معاصر من بروكلين.»

روكي ماونتن نيوز

مكتبة ٣٢٧

ISBN: 978-88-85771-35-2

9 788885 771352

المتوسط

مكسه